غائب طعمة فرمان

خمسة أصوات

رواية

مدونة ابو عبدو

للنشر والترجمة والتوزيع

خمسة أصوات
غائب طعمة فرمان

إلى أصدقائي في صراعهم مع أنفسهم
ومع الآخرين

غائب

الأول

تقاذفته الأزقة مثل أرجل اخطبوط هائل. كان زقاق يسلمه إلى زقاق آخر مثله. أزقة تتشابك. تتفرع وتضيق. تدور حول نفسها. ومناظر تتكرر، وبيوت متلاحمة الجدران، وأبواب حافية، وأبواب على عتبات، وشناشيل ملونة بألوان حزينة مثل جو المواكب الدينية، وأطفال يتراكضون، وقطط شاردة، وعجائز شكسات تلفت أصواتهن لكثر ما استعملت. وتوقف في رأس زقاق طويل لم يعرف هل مر به من قبل، في جولته الضائعة هذه. كانت في رأس الزقاق شناشيل مائلة صبغت بلون أخضر فاتح كأنما أحالته أمطار الشتاء. وفكر بأنه رأى هذه الشناشيل قبل أن يتوغل في متاهة الدروب، وانه إذا قطع الزقاق سيسمع قعقعة السيارات في شارع غازي، بداية رحلته الخائبة. قال لنفسه "ربما هذه المدرسة، فأرسلوا له رسالة بتوقيع فتاة زعمت أنها ستنتظره عند ساعة البريد أمام البنك الزراعي في الساعة الواحدة ظهراً. وكان ذلك صيفاً. راقبوه ينتظرها في وقدة الحر. ومن بعيد قتم قميصه الأخضر، ولسع وجهه لمعاناً أحمر محتقناً. وعاد في الساعة الثالثة مشوياً، محمر العينين، مسربلاً بالعرق. وربما فعلوها به أيضاً؟ من فعلها منهم؟ إبراهيم أم شريف أم حميد، أم عبد الخالق؟ أم كلهم مجتمعين؟ وتأفف. ولكنه لم يكف عن البحث. سار في الزقاق، وراح يبحث عن بيت قرب مصبغة في زقاق في رأسه دكان نجار. ملعونة تلك الكلمات. ملعونة الرسالة كلها. في الليل كان يسهر معهما. يرددها في سره. ورقة مخلوعة من دفتر، وكلمات ربما خطتها يد خشنة زعمت أنها نسائية لها مأساة عظيمة. والآن يتعين عليه أن يعود إلى الجريدة. سيجد على مكتبه كومة من العرائض وعملاً كثيراً. من أوحى إليه أن يكتب عن مستشفى العزل؟ ربما

هي أيضاً تريد الدخول إلى المستشفى فأرسلت هذه الرسالة مستغيثة بشهامته الأدبية. كان يفكر بشكلها. وجهها وقوامها. وكان اسمها يمس قلبه بدفء غريب. نجاة! هكذا بالضبط تحت كلمات ربما نقلت من كتاب كيف تكتب الرسائل. ربما قضت عشرة أيام لتنتقي هذه السطور... الخمسة... لا أكثر! واحد، اثنان... ثلاثة... ثمانية! وواصل البحث.

لم يكن في وسعه أن يسأل. لأن ذلك يثير الشبهات. فكل محلة من هذه المحلات عائلة واحدة موزعة على بيوت. قد يتخاصمون فيما بينهم ويتناطحون، ولكنهم في الشك في الغريب سواسية.

هذه هي محلة المصلوب. إنه يعرفها بجامعها العتيق وأزقتها المشقوقة بمجاري المياه الآسنة. ولكن أين البيت؟ أين زقاق 104 "النيشان دكان نجار" ومصبغة تنشم رائحتها من بعيد". وانعطف إلى زقاق المقرر 7، وآخر عرضه المقرر 5، وثالث ممسوح. ورابع من غير هوية. وقابلته ساحة صغيرة بين ثلاثة أزقة. وكان في رأس أحدها دكان نجار!

وقف ينظر إليه في دهشة أول الأمر، ثم أحس بدبيب الرهبة يتمشى تحت جلده. هذا هو الدكان إذن! وفي هذا الزقاق بيتها!

حين نزل من الباص في شارع غازي كان يخامره شك قوي في صدق هذه الرسالة، وكان يعتبر مجيئه عبثاً. كان مدفوعاً بمجرد الاثبات لنفسه بأن الرسالة ليست مزورة. وبأنه لم يكن أضحوكة لأحد. وحين انغمر في متاهة الدروب الضيقة نسي هذا الدافع أيضاً، وانغمر بكل إحساسه في متابعة مسيره مثل نملة سقطت فجأة في شبكة عنكبوت، فركزت على قوتها للتخلص. أما الآن فهذا الدكان أمامه، ولعل البيت المرقم 8 / 104 على بعد خطوات. وتجمد في مكانه. ماذا سيقول لها؟ يطرق الباب؟ يناديها باسمها.. نجاة

هنا؟ منو انت؟ أنا سعيد من جريدة "الناس". لا، لا يجوز. أنا صديق. لا، غير صحيح. أنا الذي بعثت له الرسالة. أوه! منتهى السخف. فلربما بعثتها سراً، دون علم أهلها. من قال ان رسالتها تتعلق بمستشفى العزل؟ ربما بشيء آخر.. ألطف.. رسالة إعجاب، تدله. فالتدله في الحب مأساة أيضاً. ويذهب إليها بهذه الهيئة؟ يتكئ على حائط في زقاق عرضه المقرر 5 أمتار، ويستمع إلى عواطفها؟

قال لنفسه: "ورطة!.." كان يرتجف. يتقدم ويحجم. يتأرجح في فراغ. وفجأة تحرك جسمه إلى الأمام بحركة لا إرادية على صوت ماء يرشق وراءه. وحين عاد إلى السير، والتفت التفاتة خاطفة استطاع أن يرى دلواً مسوداً، والقسم الأسفل من جسم صغير. وأمامه لاحت توابيت خشبية نظيفة مصفوفة قرب سقف الدكان. وكان النجار منهمكاً في صنع تابوت جديد أمام الدكان. كان يجلس على "ركبه ونص" حسر الرأس في بقعة مشمسة، والمسامير بارزة من فمه، وذراعه المتينة المشعرة تهبط خفيفة خاطفة على الخشب. ورأى سعيد الزقاق يمتد أمامه ضيقاً عميقاً منعطفاً إلى ما لا علم له به. لم يرفع النجار بصره إليه حين مر به. وخطا الخطوات الأولى في الزقاق مضطرباً، وكأنه لا يدلف بين حائطين بل بين صفين من الجنود. مر ببيت وبآخر، وها.. هي المصبغة. رآها قبل أن يشم رائحتها. ولما تجاوزها شم رائحة النيل منها نافذة. وكان من اضطراب النفس بحيث لم يرفع بصره على أرقام البيوت ولم ير من مر به، وانعطف بانعطاف الزقاق، وحين كان على بعد كبير، رفع رأسه فرأى 104/16. كل شيء صحيح إذن. ودارها إحدى هذه الدور الصامتة. إنها صادقة إذن. هل يعيد الكرة؟ عادت نفس الأسئلة المرتابة في ذهنه. من قال "هي"، لا "هو"؟ ربما أحد أصحابه دبر له مأزقاً، وحين يطرق الباب سيفتح له رجل. أهلاً ومرحباً. جاء بك الاسم الأنثوي!

خرج من العطفة ثلاثة رجال، وتحرك سعيد على مرآهم. خطا خطوة ثم ارتد. وسار في الجهة التي ساروا فيها، بعيداً عن الدار والمصبغة.

كانت الجريدة التي يعمل فيها سعيد بناية هرمة حدباء متطامنة شهدت جانباً من العهد العثماني، وكل الحكم الوطني، وفيضانات دجلة السخية، وأصداء المعارك الوهمية في دائرة الأختام الحكومية المجاورة لها. وفي البناية عشر غرف، وثلاثة سراديب سقوفها شبيهة بصدر حمال عجوز يحمل أكثر مما يستطيع. وهم الآن في حجرتين خضراوين في الطابق الثاني. بعد الظهر بدأ العمل الجدي في الجريدة. كتب المقال الافتتاحي في ضوء نقاط رئيس التحرير، وعمود الصفحة الثانية، وأعد سعيد عمود "الرأي العام" من أكوام العرائض التي تملأ جرارات مكتبه. وبعد الساعة السادسة بدأ راديو قديم يعود إلى ما قبل الحرب، وآخر جديد يملآن الحجرة بطنين مضجر، متنقلين بين الأخبار والأغاني. وامتلأت الحجرة في الطابق الثاني بزوار كثيرين، وتحولت إلى بوتقة حامية تغلي شكاوى وأخباراً وإشاعات، ومشاريع عن الحكم الديمقراطي في العراق.

بعد الساعة الثامنة وضع سعيد قلمه، وخلع نظارته، وفرك عينيه المتعبتين، والتفت إلى مدير التحرير إلى يساره:

_ ابراهيم، خلصت؟

_ بعد عشر دقائق.

ومرت الدقائق العشر ثقيلة قضاها سعيد بالتطلع عبر الشباك إلى القسم الخلفي من مدرسة قضى فيها عهداً مارس فيه الشعر، والمظاهرات من أجل فلسطين، والحلم بالجامعة العربية. وكان متعباً منقبض الصدر، وبحاجة إلى هواء نقي. وفي الخارج أصبح تنفسه ممزوجاً برائحة غبار

وطين. وتذبذبت الأضواء أمام عينيه، وذرات صغيرة مثل هوام الليل. وكان عجولاً ونادماً من شيء ما.

صعدا الباص الذاهب إلى الباب الشرقي، وجاء الجابي، ودفع ابراهيم عن نفسه، وأبرز سعيد بطاقته الشخصية. ولما رآها الجابي لاح البشر على وجهه، وتمتم بشيء في مودة، وظل يروح ويجيء عند مقعدهما وقبل أن يصل الباص إلى رأس القرية أحنى الجابي رأسه وهمس:

_ أستاذ سعيد، أنا معجب. خصوصاً بالمقالة عن مستشفى الحميات.

هز سعيد رأسه بحرج. ورأى ابراهيم يبتسم وهو يدير رأسه إلى الشباك على يمينه. ولما ذهب الجابي سأل ابراهيم:

_ الآن تذكرت. ماذا فعلت بالرسالة التي جاءتك؟

_ أية رسالة؟

_ تلك التي كتب عليها "شخصي"، فاتهمتني بمحاولة فتحها. لابد من أنها عن مستشفى العزل أيضاً.

_ بالضبط – ثم أضاف للتمويه – أتراني سأظل مشغولاً بمستشفى العزل؟

_ حركت ساكناً.

وفي قرارة نفسه لم يكن مرتاحاً لما قاله، وكأنه اغتاب شخصاً عزيزاً، وكذب عليه. فما أدراه ماذا تريد نجاة؟ ربما شيئاً آخر غير مستشفى العزل. وعادت إلى ذهنه مسيرته الصباحية، واستعذبها. بدت له الآن مثل جولة في مدينة غير بغداد. داهمه شعور حركي يدفعه إلى المغامرة. وعندما نزلا من الباص قال لابراهيم:

_ ابراهيم، اليوم راح أسويها.

_ أكثر من زجاجة بيرة؟

_ لا، أبيض.

هز ابراهيم كتفه في شك، وقال:

_ ربما أفرحك إعجاب الجابي بمقالتك.
_ ربما.
كانت دجلة تفوح برائحة طين نقي، وهي تجري منتفخة البطن وراء صف المقاهي المقفرة التي ستعمر بعد شهرين. ثم صرخت رائحة سمك يقلى بدهن ثقيل. وكانت بلقيس أمامهما. دخلاها ونقلا بصرهما في منبسطها الشبيه بمستودع للبضائع. وفي الأعماق لمحت منضدة البليارد الخضراء مثل أرض حديقة بيتية في الصيف. وقال ابراهيم "هم هناك.." واتجها نحو مائدة قرب شباك يجلس إليها شخصان. ومن النظرة الأولى عرف سعيد بصديقه سبقاه بشوط بعيد. كانت المائدة مبللة ومجدرة بقشور الباقلاء والحمص.
سأل إبراهيم:
_ كل هذا الأكل أكله شريف؟
أجاب شريف ببراءة:
_ لست أنا. أنت تعرف أنني أفضل أن أشرب ربع عرق بحبتين من الباقلاء.
قال ابراهيم وهو يجلس:
_ أعرف. حتى تسكر بسرعة.
قال شريف:
_ صحيح. فلماذا أشبع، فأنفق على العرق فلوساً أكثر؟
قال سعيد، وهو يجلس في الجانب الآخر:
_ لماذا لا تقول فلوس الآخرين؟
_ أنا لم أطلب منك فلساً واحداً طوال حياتي.
_ لأنك تعرف أنني سأرفض. أنا لا أعترف بعبقريتك لأدفع ضريبتها كما يفعل إبراهيم.
_ انظروا! بدأ يعطي لنفسه قيمة.
قال إبراهيم:

_ سعيد مشهور الآن. بدأ يتلقى رسالة إعجاب شخصية.
قال شريف لابساً لباس الحكمة:
_ نعم، الشهرة في مجتمع جاهل هي للمشعوذين وأنصاف المتعلمين. تمام، عبد الخالق؟
بادر سعيد قبل أن يرد عبد الخالق:
_ فلماذا لم تشتهر أنت؟
عند ذاك قال عبد الخالق:
_ هو مشهور بما فيه الكفاية. الذي أكل المزة شخص من المعجبين بشعر شريف. جاء وجلس وسقط على صحون المزة محركاً فمه بكلمة إعجاب، وسط عشرات الحبات من الباقلاء.
قال شريف:
_ شخص تافه يتمسح بأذيالي. يريد أن أعلمه الشعر.
ضحك ابراهيم منتشياً، وقال عبد الخالق في تذمر:
_ يجب أن تعلم نفسك أولاً.
قال شريف وهو يمط شفتيه بامتعاض بعد جرعة كبيرة من العرق:
_ لست بحاجة إلى تعليم.
فثار عبد الخالق وقال:
_ هذا من فساد الدماغ. أكبر الفلاسفة لا يقول ذلك.
شمر شريف يده، وقال غاضباً:
_ بابا، أنت تقرأ أكثر مني؟
_ عاينوا – قال عبد الخالق يشهد الناس – لم يقرأ إلا كتابين من الكتاب للسطحيين ويتناهى. من أنت لتتباهى؟
قال شريف مزهواً:
- أنا بودلير العصر.

ضحك الثلاثة، ومسح عبد الخالق الامتعاض من نفسه بجرعة من العرق. وجاء الساقي فطلب ابراهيم ربعية عرق، وسعيد "نص ربع".

قال ابراهيم بنبرة حادة:

_ مشكلة المثقفين ليست القراءة. بل معرفة الحياة.

عرف سعيد أن ذلك رأي قديم استعمله ابراهيم ليدافع عن أول كتاب أصدره سعيد. كان كتاباً فاشلاً.

صاح شريف وكأنه ظفر بمنشوده:

_ لا أحد يجاريني في ذلك. ذقت الجوع، وسكنت فنادق الدرجة الرابعة، وبصقتني طرقات التشرد، وفضلاً عن ذلك قضيت ليالي شهريارية نائماً على سرير واحد مع إحدى الفنانات. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

قال سعيد:

_ خيال نص ربع عرق على معدة خاوية.

وقال عبد الخالق:

_ معرفة الحياة شيء مهم. إذا لم تكن معرفة سطحية، ومع ذلك ليست هي كل شيء بالنسبة للأديب. هناك أناس يستطيعون أن يقصوا عليك ما رأوه على سطح الحياة، ولكنهم لا يصبحون أدباء. المهم أن تعرف كيف تصوغ ما تعرف.

انطوى سعيد على نفسه وقال لها: كلام صائب. إنهما شطرا تفاحة الفن الريانة. وعبد الخالق يتحدث عن معرفة، وأنا أحبه لذلك، ولأنه يقرأ الإنكليزية بطلاقة وأنا أقرؤها بعسر وتهج. اليوم كانت لي فرصة لمعرفة الحياة، جانب من الحياة، مأساة فتاة يبدو من اسمها أنها جميلة. فلماذا ركضت وجبنت؟

جاء الساقي بالعرق، وصحن زلاطة جيدة، وباقلاء، وحمص، وصفها على المائدة. فقال له عبد الخالق:

_ ارجوك، ارفع قيء أحد الثقلاء.

لـم يفهـم السـاقي، وراح يتلفـت فيمـا حولـه. فقـال ابراهيم:

_ يقصد القشور هذه.

قال الساقي "ها!.." وشرع يرفع.

أنشأ سعيد يعد كأسـه. راقبـه ابـراهيم مبتسـماً، ثـم قال:

_ أنت لا تمزج الخمرة بالماء، بل تقطرها قطرات.

قال شريف:

_ إنه يفعل مثلي قبل عشر سنوات.

_ ها قد كشفت عن سنك – قـال سـعيد معتـدلاً فـي جلسته، وقد هيأ كأسه، ثم أضاف حين ران سكون طـارئ مخاطبـاً إبـراهيم – أتعـرف؟ إننـي شـربت البيـرة لأول مـرة ممزوجة بالماء بعد تخرجـي مـن الثانويـة. وكنـت قـد قـدمت إلــى دار المعلمــين العاليــة فســقطت بفحــص العيــون، فاشـتغلت معلـم مدرسـة ابتدائيـة أهليـة. وكـان مـن عـادة المعلمين أن يـذهبوا كـل يـوم خمـيس إلـى حانـة، فـذهبت معهم، وملأتني الرهبة لدى دخولي الحانـة، وكـأنني داخـل إلــى غرفــة عمليــات، ورفعــت زجاجــة البيــرة المســتوردة بتوجس، وكأنها مخدر أخاف أن أصيب منه أكـثلا مـن الـلازم. وسكبت شيئاً من البيرة في كعب القدح، ثم ادهقت القـدح بالماء.

قال شريف:

_ أما أنا فقد شربتها مسروقة مـن زجاجـة أبـي. كـان يجلس في بيتهـا فـي بعقوبـة وأمامـه ربعيـة عـرق يشـربها متربعـاً علـى الأرض، مـداعباً أمـي. وانتهـزت فرصـة ذهابـه للتبول فشربتها من فم الزجاجة بلا مـاء ويومهـا أوشـكت أن أختنق.

قال عبد الخالق:

_ أما أنا فقد تعلمت شرب الخمرة أيام دراستي في الجامعة الأميركية ببيروت.
قال ابراهيم:
_ شربت الخمرة في ليلة آخر امتحان لي في كلية الحقوق.
أحس سعيد بخدر لذيذ، وبحرارة في قدميه. كان شيء خشن يتحجر في عينيه. غاب حتى أحس بيدين تنزلان على كتفيه، وكأنهما ترصانه على الكرسي. حتى لا يطير. رفع رأسه بتوجس، ورأى حميداً فوق رأسه. كان يقول لابراهيم: اتصلت بالجريدة فقالوا انهما خرجا. ما أسهل الصحافة، تنتهي سهرتها في الساعة الثامنة!
قال ابراهيم:
_ اجلس. هناك صحف يومية تعد كل أعداد الأسبوع دفعة واحدة، وتترك أمرها لعامل المطبعة. اسحب كرسياً، وقال لنا أين كنت.
ضحك حميد، وسحب كرسياً من مائدة فارغة. أفاق سعيد على نفسه، ونظر إلى حميد. كان بسام الثغر كعادته.
_ كنت أشرب البيرة مع المميز. كان يوماً حافلاً بالنسبة لي. تكالبوا علي جميعاً يريدون أن يرسلوني إلى الديوانية لاشتغل مديراً لفرع البنك الجديد هناك اعتذرت بلباقة. إلا أن المميز صحبني في سيارته، وتغدينا سوية في شريف وحداد، وشربنا أربع زجاجات بيرة ولم أقتنع... ها ها ها.
تلفت، ونادى الساقي باسمه، ثم سأل:
_ ما رأيك؟ هل أذهب؟ أنا متردد.
قال ابراهيم في مجاملة باردة:
_ يعز علينا أن نفارقك. ولكن إذا كان في المسألة تقدم.

قال عبد الخالق:
_ اذهب فلعل هناك شيئاً آخر.
قال شريف بقطعية:
_ إذا ذهبت إلى هناك ستنسى وتموت.
_ وعدني بإرجاعي حالما يرون موظفاً كفؤاً
قال سعيد:
_ لو كنت في مكانك لذهبت.
سأله حميد:
_ ماذا تتوقع أن أجد هناك؟
- مذاقاً جيداً، حياة ريفية.
قال شريف:
_ بل موتاً قبل الأوان. هل أنت مجنون؟
قال عبد الخالق:
_ اذهب، واخلص من هذا الجمود، والدوران في الطاحونة.
أصر شريف على المعارضة:
_ تذهب وتدفن نفسك في الخواء. أنا هربت من بعقوبة، وهي ضاحية من بغداد.
قال عبد الخالق:
_ من يسمعك يقول انه تعلم على سكنى العواصم، يا جثة.
قال ابراهيم:
_ العواصم تجذب الأيدي غير الماهرة.
قال شريف:
_ لا. لي حياة واحدة فلماذا أقضيها في قرية؟
قال حميد مبتسماً:
_ تخليت عن أصلك.
أجابه شريف متحدياً:
_ ستتخلى عن عقلك كله إذا ذهبت. ستكون غريباً.

قال حميد وكأنه يقنع نفسه:
_ سأكون في بلدي. فالعراق ليس بغداد وحدها.
قال شريف:
_ العراق بغداد فقط.
صرخ عبد الخالق:
_ اسكت. ستفسد عقله بأفكارك الانتهازية الجامدة. دعه يذهب.
قال ابراهيم ببرود:
_ اذهب؛ إذا كان ذلك لفترة قصيرة. فماذا عندك في بغداد؟ لا ماما، ولا داده.
قال حميد رافعاً سبابته إلى فوق:
_ طير وحيد – وضحك – غصن ومقطوع من شجرة.
عاد شريف إلى المعارضة:
_ ستشرب الخمرة في بيوت سرية.
قال عبد الخالق:
_ لا تصدق. سنرسل لك الخمرة ونكتب عليها: "دبس"!
دمدم شريف، وهو يهيئ كأسه:
_ إنهم يتخلون عنك بهذه السهولة. أنت بالنسبة لهم لا شيء.
قال سعيد:
_ لجأ شريف إلى أسلوبه الخبيث.
قال شريف:
_ هذه هي الحقيقة. لا فرق عندكم. أن يذهب أو يمكث معكم.
سكت الجميع، وكأنهم أمسكوا متلبسين. وقال عبد الخالق "تفو!.."
قبل أن يفرغ في جوفه جرعة. تابع شريف قوله:

_ ثم انك متعود على السهر. بعد الساعة الثانية عشرة يعجبك أن تتمشى في شارع أبي نؤاس. وهناك أين تتمشى؟ في البادية؟

قال سعيد:

_ والله ليتني أسافر إلى أي مكان.

قال شريف:

_ مجرد كلام. لن تستطيع أن تفارق بغداد يوماً واحداً.

رد سعيد كالحالم:

_ لا، والله. بودي أن أتحرك.

وكان على مثل اليقين من ذلك. أما بالنسبة لحميد فمجال عريض. حميد لا يترك بغداد. خفاش من خفافيش الليل، ملك يتربع على عروش الحانات، ويسهر حتى الساعة الثانية عشرة. وبعدها يهيم في الشوارع. قال سعيد لنفسه: أنا أعرفه. كلنا نعرفه. بعد السهرة سيدعونا إلى الهيام في الشوارع، وإذا لم يجد ملبياً هام وحده، أو تمشى على شارع أبي نؤاس مثل شاعر فقد ربة شعره على الشاطئ. شاعر أخرس لست أدري من أين يجد الوقت ليقرأ. مثقف ديموقراطي، يثقف على غواتيمالا، ويسخط على تصرفات الباكستان، ويقول المثقفون في العراق مصابون بالذبحة الصدرية. ماذا يقصد بذلك؟ أغلب الظن أنه هو نفسه لا يعرف، فكيف لي أن أعرف؟ أنا لا أعرف شيئاً. كان علي اليوم أن أعرف. كان علي أن أطرق الباب وأنادي نجاة؟ واستمع لشكواها. لماذا نختلق المآسي حين نكتب القصص، ولا نستمع لمآسي الناس الحقيقية؟ كلنا يريد أن يكتب عنها، بينما نعيش بعيداً عنها. نعب الخمرة، وننسج من أحلام يقظتنا غلالات نرى من خلالها الحياة، نغبش من ورائها وجه الواقع، ونحارب باللسان فقط، ما نعتبره سبب إسرافنا في الخمرة.. الخمرة التي تتمشى في أوصالي الآن... ارتخاء... عجز عن رفع

يدي... رؤى صامتة على خلفية مظلمة كالليـل... ذكريـات... سيل عات من الذكريات... سيل مدمر من الـذكريات... والآن أتذكر ذلك النجار الذي يصنع تابوتـاً. مـن سـيتمدد فـي ذلـك التـابوت؟ لطيـف أن يعـرف الإنسـان مـا يكتـب لـه. لا. لـيس لطيفاً. لطيف لو عرفت نجاة اليـوم. نعـم، هـذا لطيـف. ولكـن لـيس لطيفـاً أن تعـرف أن ذلـك التـابوت معـه لـك، وأن هـذه القطعة من الأرض سـتلحد فيهـا فـي السـاعة الفلانيـة مـن اليوم والشهر الفلانيين. إذن لمت في نفـس السـاعة التـي تسـمع فيهـا الخبـر. سـتكون مفـتح العينـين ولكنـك ميـت، وسـتتكلم مـع النـاس، ولكنـك ميـت. سـتأكل كمـا يأكـل الأموات. كيف يأكل الأموات. يؤكلـون ولا يـأكلون. وهـذه هـي المصيبة. تقزز.

_ سعيد سابح في الأحلام.

_ سعيد سكران.

_ سعيد يتخيل بادية الشام.

الثاني

وقفت عند باب الحجرة وسألت:
_ يمه، ابراهيم؟ راح تروح اليوم لبيت عمك؟
رفع ابراهيم عينيه عن جريدته، ونظر إليها صامتاً. لم يدر ماذا يجيبها. كانت تسأله كل يوم تقريباً السؤال نفسه: هل ستذهب إليهم؟ هل سأنتظرك هناك؟ وكان يتخلص بهزة من رأسه لا هي بالرفض ولا هي بالقبول. ويتركها تقف قليلاً ثم تنسل بنفس الطريقة التي جاءت بها.
_ بودي أن أذهب. كل يوم أصمم على الذهاب، ولكن لا أجد الوقت الكافي. لجريدة تأكل وقتي كله.
قالت:
_ ماكو واحد ينوب عنك؟ ساعة لو ساعتين؟
_ من؟ سعيد؟ إنه لا يدبر شيئاً، ولا يحل أصغر مسألة، والآخرون لا اعتماد عليهم.
_ ويوم الجمعة؟ أنت لا تدري؟ ولو نويت رحت.
_ يوم الجمعة للراحة، وهو يوم ثقيل – وتبسم لها – والنية فيه لا تصادف فالاً حسناً.
_ أنت لا تريد.
رد عليها بزفرة طويلة. وعاد إلى جريدة "الاوبزرفر" وعرفت هي أن المقابلة قد انتهت. وقفت لحظات صامتة عند الباب، ثم انصرقفت. ألقى بنظرة خاطفة إليها فرأى ظهرها العريض المتكور يبتعد في الممشى الضيق. وأسقط بصره على الجريدة. ولكنه لم يستطع مواصلة القراءة. كان يراها في عين خياله. تابع مسيرتها عبر الممشى الضيق بخطاها الثقيلة، ويدها اليمنى ممسكة بالدرابزين، وبصرها ملقى على مواقع قدميها، حاملة ثقلها وثقل خيبتها. كان يعرف أنها ستدخل الحجرة المقابلة فيرفع شيخ هزيل العود رأسه، ويستقبلها بنظرات مستفسرة.. ها. راح يروح؟

وستتريث قبل أن ترد بشيء لا يثير غضبه، بل يخففه قدر الإمكان حتى لا يتكدر مزاجه أكثر.

بعد لحظات سمع ابراهيم دمدمة. طوى الجريدة وأسند جبهته إلى راحة يده، وراح يتسمع، وكأنما يحاول أن يحول الدمدمة إلى كلمات مفهومة. كانت تتوافد عبر الباب في نوبات طويلة تطوقه وتثقل على صدره. نهض من كرسيه، ونظر في ساعته، وتقدم من ملابسه الموضوعة على كرسي آخر قرب سريره. خلعها البارحة، ونام رأساً، متكدراً مؤجلاً قراءة "الاوبزرفر". حين صعد الدرج بعد الساعة الحادية عشرة أحس بحركة في الحجرة المجاورة. وعرف أنه هو مستيقظ إلى تلك الساعة المتأخرة من الليل بانتظاره. كان ينتظره كل ليلة، وكأنما عنده شيء مهم يريد أن يقوله قبل طلوع الصباح. وفي الغالب لا يقول شيئاً أ:ثر من "ها.. جيت..؟" أو "الساعة بيش؟" يقولها وكأنه لا يتذمر إلا من طول الليل. ولكن ابراهيم يعرف أنها تخصه. يعني أنا هنا. ومتى تنتهي هذه الـ "أنا هنا"؟

شرع ابراهيم يرتدي ملابسه. سكتت الدمدمة. وتنفس إبراهيم نفساً عميقاً كالصعداء. وفكر في شيء من هدوء الأعصاب بذلك الشيخ الهزيل الذي هو أبوه. يقضي نهاره حبيس البيت، ولا يقابل أحداً، ويضيق بالضوضاء المتسربة من الشارع عبر الشبابيك، ولا يفتح الباب إلا إذا طرق أربع مرات، ويريد أن تسمع الدنيا كلها كلمته. ان تنصت إلى صوته الواهي. خاطبه في سره "أبي، أنا أعرف أنك تتعذب، ولكن ماذا بوسعي أن أفعل لك؟ سأذهب اليوم مرضاة لك. ولكن هذا لا يحل عقدتك. دعني أشق طريقي، يا أبي، دعني أختار حاجاتي في هذه الدنيا، ولا تتدخل. كفاك تدخلاً! دعني أقرر أنا بنفسي، وسأذهب إلى بيت عمي متى أشاء".

ولكن هذه الأفكار جعلته يحس وكأنما قالها بصوت مسموع، وبوجه أبيه، وان هذا الشيخ رفع إليه عينين كسيرتين، وقال "هكذا إذن!.." ولم يكن في الجهة تهديد بقدر ما فيها تذكير في الماضي.

حين هبط الدرج رأى أمه في أسفله، فقال لها تكفيراً عن ذلك الشعور بالإساءة:

_ سأذهب اليوم.

_ يعني انتظرك هناك؟

_ انتظريني.

وشعر بارتياح حين غادر البيت. إن هذه الأزقة الملتوية المؤدية إلى شارع الرشيد تشعره بطمأنينة أكثر مما يشعر بها ببيته الهادئ. عبر شارع الرشيد أمام وزارة الدفاع، واحتواه ضجيج الحياة الذي يبدو فيه متوحداً مستقلاً بذاته. هنا في بحر الأصوات المتلاحمة يجد صوت نفسه مثل رائحة جريدة يمكنك أن تشمها بين عشرات النسخ القديمة. وفكر في نفسه: إن الصحفي الناجح هو من يملك القدرة على التشمم. وبعض الصحفيين في الغرب ليسوا إلا مجرد حاسة تشم. تموت كل الحواس فيهم، وتبرز هذه الحاسة. وأنا لا أريد أن أكون كذلك. أريد أن أتشمم، وأرى، وأفكر، وأختار، وتكون لي إرادة.

دخل ابراهيم إلى الجريدة فطالعه وجه المحاسب من خلال شباك حجرة المحاسبة. حياه:

_ صباح الخير، سيد خليل.

أجاب خليل بتشك:

_ هلا، يا به هلا. تعال شوف، اقرأ.._ ماذا أقرأ؟ - واستدار ودخل الحجرة. فقال خليل:

_ مقال شديد في جريدة "الدستور" يهاجم جريدتنا. أخشى أنهم سيغلقونها.

قال ابراهيم في أول صوت له هذا اليوم:

_ لا تخف! ليس أمرنا موكولاً بجريدة هزيلة

_ أعـرف ذلـك، ولكـنكم أيضـاً تصـعدون إلـى فـوق، وتنسون كل شيء، وتسطرون المقالات الملتهبة.

_ ماذا تريدنا أن نفعل؟

_ خففوا قليلاً.

_ من أجل المحاسبة؟

_ لا تستهن بها. لو تأتي يوم الخميس ولا تجد فلوساً ماذا ستقول؟

_ ليست جريدتنا جريدة تجارية.

_ أنا أعرف.

وعاد المحاسب إلى دفتر كبير كان بين يديه. جمع ابراهيم جرائد اليوم، وانصرف. صعد الدرج إلى غرفة التحرير الخضراء، وشم رائحة تراب قديم جاف حين دخلها. كانت الأرض مكنوسة، ولكن مسودات البارحة مازالت متناثرة على مكتب سعيد، وعلى طاولة راديو الالتقاط.

جلس ابراهيم إلى مكتبه، ووضع الجرائد بين يديه، وأرخى ساقيه تحت المكتب، ونظر إلى الأمام عبر الشباك الصفير المطل على مؤخرة المدرسة. ثبت بصره في نقطة مضيئة في الخارج تبدو مثل رقعة ضوء مركزة بالنسبة لضوء الغرفة الباهت. وفي الصمت، وتماوج الأشقر والأخضر واللون الرمادي القاتم أحس ابراهيم بسعادة طاغية. فهو، هنا، سيد نفسه. إنه في هذا المكتب يستطيع أن يقول فتسمع كلمته، ويكتب فينشر كلامه في اليوم التالي بعد أن يتحول إلى كلمات وسطور وأعمدة ملكاً لكل الناس. وكان يؤمن إيماناً عميقاً بالصحافة، ويريد أن يكون صحفياً ناجحاً يعرف كيف يوصل آراءه للناس بشكل طيب، وكيف ينتقي الكلمات الأكثر قدرة على التعبير عن إرادته، والأكثر تحريكاً لمشاعر الناس. وكان يؤمن بأن الصحافة عصب الحياة، فيجب أن يكون هذا العصب مرهفاً سليماً دقيق الاستجابة للمؤثرات

الواقعية. وكان يحس أنه أحد أوتار هذا العصب. وتوقف عند هذه الفكرة. لا، بل الصحافة خلية توجيه تنقل الإشارات العصبية وتترجمها وترد عليها. وأنعشته هذه الفكرة، وجعلته يتخيل، ويرى لكل الأشياء مدلولها الرمزي. وبعد طول التحديق تخيل الشباك الصغير مرآة سحرية، واستحال جدار المدرسة الآجري الصافي متسعاً رحباً، ثم تصور الشباك نافذة أمامية في مقصورة القيادة لسفينة، وتخيل نفسه ربانها. تابع تفكيره بتلذذ. إنها الآن وسيلة في ميناء الصباح. وبعد قليل سيأتي الملاحون عمال المطبعة، وسعيد مساعد الربان، ثم يأتي عامل اللاسلكي ملتقط الأخبار، وستبحر السفينة في رحلتها اليومية في بحر الحياة لتعود منه إلى الميناء محملة بصيد البحر الحي، وتقدمه للناس غذاء نافعاً لعقولهم، خبزهم اليومي الذي لا استغناء عنه كالماء وكالهواء. وأعجبته هذه الفكرة، وقرر أن يسجلها متهللاً من الداخل. وقع بصره على الجرائد بين يديه، كومة كاملة من الجرائد، حصيلة يوم واحد فقط. نظر إليها مبهوراً، وكأنما عرف لأول مرة أن في العراق مثل هذا العدد من الجرائد. فمن يستطيع أن يقول لا ديموقراطية في العراق؟ شرع يتصفحها، وكل جريدة لا تأخذ من وقته غير دقيقة واحدة. عناوين مختلفة لمادة واحدة هزيلة. عافها محتفظاً بنقاوة فكرته عن الصحافة. وتناول شدة أوراقه ونظر إلى الشباك على يساره، كعادته كلما باشر في الكتابة. وسمع وقع أقدام على الممر. ثم رأى سعيداً مقبلاً.

دخل سعيد لامع النظارة، وسلم رافعاً ذراعاً هزيلة. ولكنه كان يبدو منشرحاً، وعلى أساريره كلام يوشك أن ينطق به. وبدأ يزيح الأوراق عن مكتبه موفور النشاط. قال ابراهيم:

_ أراك اليوم ضاحك الوجه.

التفت سعيد إليه وقال:

_ أتعرف، يا ابراهيم، انني أخذت أقرأ بالإنكليزية؟
_ أحسنت، هذا ما ينقصك. ماذا تقرأ؟
_ مدام بوفاري. انها تعذبني.
_ قرأت ملخصاً لها. أنا أحب قراءة الملخصات، فأنا صحفي، وليس لي وقت لقراءة الكتب الطويلة.
_ أما أنا فأريد أن أعرف أسرار الفن القصصي التي يعرفها عبد الخالق، ولا أعرفها أنا.
_ لا تصدق أنه يعرفها، وإلا لكتب كل يوم قصة.
_ لا أعرف. أما أنا فكاتب إنشاء.
_ أنت أديب.
_ لا أعرف. فالأدب موهبة، والقصة أم المواهب. فأين أنا منهما!

ونهض ليتناول الجرائد. وفكر ابراهيم مع نفسه: سعيد ينقصه شيء مهم، الثقة بالنفس. فهو يتخلى عن شجاعته من أول هجوم. وتنقصه الإرادة. فهو دائماً متردد وخجول. ونظر إلى سعيد باشفاق. كان يقلب الجرائد بعصبية وسرعة، وكأنه يبحث عن شيء ضائع بينها.

جاء حسين الفراش بالبريد، ووضعه على مكتب ابراهيم كان بريداً ضخماً. ولكن ابراهيم يعرف ما فيه تقريباً. تناول السكين، وبدأ يقطع المظاريف في عملية روتينية لا روح فيها ولا تشويق، وكأنه يقشر البطاطس. وبدأت تتجمع على يمينه أوراق رديئة الخط، مهروسة من تداول الأيدي لها، مذيلة بخربشة تواقيع، وبصمات أصابع. ثم غام الشباك على يمينه فرفع رأسه، ورأى شريفاً قادماً من غرفته في سطح الجريدة على الأكثر. لاح رأسه المدور الكبير، وجسمه الممتلئ أسود. سار شريف بخطى ثقيلة كخطى جندي لم يتم تدريبه بعد، وسلم فقال ابراهيم.
_ أهلاً ببودلير العصر.

وقال سعيد "هاه" ونظر إلى شريف صامتاً، وكأنه يجمع في رأسه فكرة يريد أن يقولها. راقب شريفا يذرع الغرفة، ويجلس ثقيلاً على كرسي راديو الالتقاط

وقال سعيد آخر الأمر:

_ أتعرف يا ابراهيم؟ إن مفكراً عظيماً قال إن جميع الشخصيات المهمة في التاريخ تظهر مرتين.

ابتسم ابراهيم وقال:

_ إذن، فلماذا تحتج عندما ينادي شريف بنفسه بودليرا؟

كان شريف يجلس بعظمة خلف الراديو الحديدي القديم، ولم تبدر منه حركة، وكان الأمر لا يعنيه. فقال سعيد يجيب ابراهيم:

_ ولكن مفكراً أعظم قال ان هذا المفكر نسي أن يضيف في المرة الأولى تظهر كمأساة، وفي النهاية كملهاة.

تململ شريف في مكانه مستعداً للرد، ولكنه صمت محتفظاً بوقار العظماء. وتابع سعيد قوله:

_ فتش عن كل تاريخنا تجد شخصيات عظيمة تصاحب عظمتها، أو تظهر على شكل مأساة، بينما هناك نسخ تحاول تقليدها فتفشل وتبدو مضحكة.

صاح شريف من مكانه:

_ أنا لا أسمح لك.

_ وهل ذكرت اسمك فيما قلت؟

_ ولكنك تعنيني. أنت أيضاً تحاول أن تكون نسخة مضحكة من غوركي.

_ أوه، لم يدر ذلك في خلدي.

_ هذا ما يقوله عبد الخالق.

كف ابراهيم عن فض الرسائل، وأشعل سيكارة، ودخن ناظراً إلى الشباك.

انتبه إلى سعيد يتناول مجموعة العرائض، ويقول:
_ هذه حصيلة يوم واحد من الشكاوى.
_ لا. سيأتي بريد المساء. ثم انني لم أتم فض الرسائل كلها.
_ ومع ذلك فهذا شيء كثير – قال سعيد بحزن – إنني في بعض الأحيان أفكر لماذا لم تتحسن حياة الشعب العراقي بشكل يناسب تذمره. فالتذمر، كما يقولون، أول خطوة نحو التغير، والتذمر كان عنوان الشعب العراقي ومرضه منذ البداية. إلا أنه لم يجد تغيرات مناسبة في حياته. لماذا؟
قال ابراهيم:
_ سيكون هذا موضوع مقالتك اليوم.
_ ليس المهم أن أكتب مقالة، بل أن ظفر بجواب.
_ ستجد الجواب من خلال كتابتك عن الموضوع.
أصر سعيد:
_ لا، قد يكون الأمر بالعكس. سنظفر بالجواب إذا كففنا عن الكتابة، إذا سكت الشعراء عن الشكوى، والكتّاب عن البكاء. ربما هي كثرة الشكوى، وقلة العمل. هناك تراث هائل من قصائد الشكوى والتوجع. كفانا شكوى، ولنبدأ بالعمل. ربما كان سبب شقائنا كثرة الكلام، وقلة العمل.
قال شريف:
_ أو بالعكس. سبب شقائنا كثرة العمل الفارغ، وقلة الكلام الجيد، قلة الفلاسفة. العراق بحاجة إلى فلاسفة.
مرّر شريف ذراعه على صدره بحركة ربما كانت مقصودة. وكأنه يريد أن يقول: بحاجة إلى فلاسفة من مثلي.
قال ابراهيم:
_ الفلاسفة في بعض الأحيان متباكون كون كالشعراء، بل ربما بحاجة إلى مفكرين عمليين.

_ هل تريدهم أن يفكروا لك بوضعية باصات أمانة العاصمة ليكونوا عمليين؟

وضحك ابراهيم، وبدأ يقتنع بأن شريفاً يدافع عن نفسه. وغرق سعيد في التخطيط على ورقة. عاد ابراهيم إلى فض الرسائل، متصوراً في ذهنه شريفاً في جلسته الرصينة. قال دون أن يرفع رأسه إليه:

_ قل لنا، يا شريف، ماذا حلمت في النوم، وأنت في حجرتك في السطح؟

فضل شريف السكوت بينما قال سعيد بحرارة:

_ شريف لا يحلم في النوم. أحلامه تبدأ حين يفتح عينيه.

أجاب شريف بنبرة صوته الثقيلة:

_ أتحسب ذلك مضحكاً؟ كل العباقرة يحلمون في النهار.

قال سعيد:

_ العباقرة من أمثالك، نعم. كل ما يكتبونه عن أحلام اليقظة.

صمت شريف. وأحس ابراهيم بانتعاش. وكان يحس بذلك كلما وجد نفسه خارج سهام النقد. رمق تلك العرائض المكتوبة على يمينه وقال لنفسه: سيجد سعيد اليوم عملاً شائقاً. حصيلة كبيرة من العرائض عليه أن ينتزع لبابها وهو عمل ممل حقاً.

وجد بين الرسائل رسالة معنونة إلى الأستاذ سعيد أحمد "شخصي" فرفعها بيده، وتمعن فيها، وكأنه يحاول أن يستشف محتوياتها من خلال طرفها السميك. وكانت كلمة "شخصي" تغريه بالمعرفة. ولو كان يرجح أنها من مستشفى الحميات أيضاً. قلبها بين يديه ووضعها بهدوء على مكتب سعيد حين دق جرس التلفون، واستدار ليرفع

السماعة ولما أعادها إلى موضعها بعد مكالمة قصيرة أعلن:

_ إنه حميد يدعونا إلى الغداء في مطعم قريب.

قال سعيد:

_ حُلّت مشكلة شريف.

في المطعم كان حميد متهللاً جداً. سأله ابراهيم حين تحلقوا حول مائدة:

_ ماذا وراءك؟

_ أعطوني إجازة للتفكير.

_ وماذا ستفعل؟

ضحك حميد ملء فمه، وقال:

_ أتظنني سأفعلها؟ لا، والحي القيوم، ولو كلفني ذلك الاستقالة. أعرف بغداد بلياليها وكتبها وسينماتها وأنزوي في بلدة نائية قرب نقرة السلمان؟

قال شريف منتصراً:

_ ألم أقل لكم؟

_ أنت تعرف نفسيتي جيداً.

_ عاجنك وخابزك.

_ ولهذا سأدعوك اليوم على قوزي. كل قدر ما تشتهي، فالراتب ما يزال قسم منه في الجيب، وصندوق الاستدانة مفتوح. لو كانت هناك بيرة لسقيتك زجاجة مثلجة احتراماً لعبقريتك. حقاً إن الإنسان يعيش حياة واحدة فيجب أن يعيشها ممتلئة، طافحة إلى الحافة بكل شهي. اليوم فرغت من كتاب تشيخوف عن حياة الريف. تعساً لها من حياة. ثم انك تعرف أنني أهيم في الليل. وقد أهيم هناك وأجد نفسي ضائعاً في الصحراء، فريسة للذئاب.

جاء النادل فطلب شريف "قوزي على تمن" وطلب الآخرون "كريم جاب". وقال سعيد حين انصرف النادل:

_ ومع ذلك فلست أنا معك. لا أرى في حياة المدن امتلاء. إنها حياة خلال آلات ضخمة ترسل ضجيجاً يصم الآذان. ونحن العراقيون من سلالة تعيش وتموت في عقر دارها. لا تجوال ولا مخاطرة. والإنسان الذي يولد في بغداد يموت في بغداد، ولا يرى شيئاً حتى من العراق.

قال شريف:

_ وماذا يوجد في العراق حتى أسوح فيه؟ لو خلقت في فرنسا مثلاً أو في اسبانيا لما تركت مدينة أو قرية دون أن أراها. أما في العراق فإن رؤية قرية واحدة تغنيك عن كل شيء.

قال ابراهيم:

_ هذا داء الاغتراب الذي يفتك بالأدباء العراقيين في مقتبل العمر.

وقال حميد:

_ هذا ما أدعوه بالذبحة الصدرية.

وقال سعيد بحماس:

_ ما هذا الكلام يا شريف؟ ودجلة الخالدة والفرات؟ أتراهما حقاً لا يضمان أماكن يمكن أن تشاد عليها حدائق بابل جديدة؟ - ثم اتجِه نحو ابراهيم وكأنه ينفي عنه داء الاغتراب – أتعرف بمَ أحلم يا ابراهيم؟ بأن أنحدر في نهر دجلة من الحابور إلى القرية، مثلما فعل مارك توين في المسيسبي. لقد حدثنا أحد أبناء العمارة، أنت تذكر، هذا الذي جاءنا بعريضة إلى الجريدة.

_ يشكو من مرض الجذام؟

قال شريف ذلك بغلظة، فأجاب ابراهيم:

_ لا، كان يطالب بفتح مدرسة ابتدائية في قريته. هذا ما أذكره.

_ بالضبط – هتف سعيد ناقراً المائدة باصبعه – وقد وصف لنا أنواع السمك والطيور الموجودة في أهوار العمارة.

عالم غريب عجيب. وقلت لنفسي: أي أديب ذهب إلى هناك و...
قال حميد معترضاً:
_ لست أديباً. أنا مجرد قارئ.
_ ومن يدري، فقد تكون أديباً.
_ هذا خارج برنامجي.
_ وما هو برنامجك في الحياة؟
سأل سعيد، فتطوع شريف بالرد:
_ أن يتزوج امرأة ثرية، ويصبح مديراً للبنك.
قال حميد:
_ لا. أريد أن أبقى أعزب طوال عمري. فالعزوبة حياة طليقة. ولا أريد أن أصبح مديراً للبنك، وبعدها أحال على التقاعد. والحقيقة أنني لا أحب البرمجة، ولو أنني درستها في كلية التجارة. قد تكون مستساغة في الاقتصاد، ولكنها غير مقبولة في الإنسان، فالمستقبل جميل لأنه غير معروف.
قال ابراهيم:
_ أليست لك أحلام؟ إنها أهدافك.
قال حميد:
_ أريد أن أكون سعيداً.
قال شريف:
_ السعادة شيء نسبي. هناك أناس يظنون أنفسهم سعداء، وهم أشقى خلق الله.
قال حميد:
_ السعادة في مقياسي أنا.
ولم يسأله شريف عن مقياس السعادة عنده لأن الطعام قد حضر. صفت الصحون على المائدة حارة شهية، وانقطع شريف إلى صحن "القوزي على تمن". وكان من

عادة شريف، حين يتهيأ للطعام، أن يتخلـى عـن كـل العـالم خارج حدود صحنه.

بعد أن فرغ حميد من الطعام قال:

_ لا أعـرف أيـن أذهـب بعـد الغـداء. يبـدو أن سـهرتي ستبدأ اليوم في ساعة مبكرة.

قال سعيد:

_ سنأتيك بعد الساعة الثامنة. ما رأيك يا ابراهيم؟

_ موافق.

وفـي سـره قـال: ولتنتظـر أمـي، فهـذه ليسـت المـرة الأولى.

الأول

حين عادوا إلى الجريدة رأى سعيد رسالة على مكتبه بدت وكأنها الرسالة القديمة. عرف خطها الضخم المائل. واختطفها بعجالة، وكأنه يريد إخفاء شاهد على خطأ ارتكبه. ودخلت الرسالة في جيبه مدعوكة معوجة. وجلس سعيد على كرسيه، وأجال بصره في الغرفة، بينما يده اليمنى تصلح وضع الرسالة في جيبه. تلمّسها. كانت غير مفتوحة. رسالة جديدة إذن! وربما من نفس الفتاة. نجاة! كانت يده ترتجف في جيبه. خاف أن يخرجها فيرى ابراهيم وشريف تراطم أصابعه. فكيف إذا فضها هنا؟

خرج من الغرفة متعثراً. وسار عبر الممر الطويل إلى الطرف الثاني من البناية، حث الحجرة التي تحفظ فيها الجرائد والملفات القديمة. هنا أيضاً أحس بأن عيون ابراهيم وشريف تلاحقه. فانعطف يميناً حتى الحاجز الصغير المطل على الشارع. وهناك أخرج الرسالة، وشرع يلتهمها مثل جائع في شهر رمضان يتناول فطوره خفية عن أعين الصائمين. وكان في الرسالة بعد الديباجة:

"تحاملت أنت على نفسك وأتيت. إلا أنك لم تتشجع لتدق الباب، وتنال الثواب، عجيب أمرك يا أستاذ سعيد. كنت أتصور الكتاب أشجع من هذا. أنتم تسبون الوزراء والحكومة في الجرائد ولكن تخافون أن تدقوا باب مستغيث. تخاف مني وأنا المرأة المسكينة التي رجتك بالمجيء لمشاهدة مأساتها. على كل حال لا أقنط. وأنتظرك..."

والتوقيع: نجاة!

وقضى يوماً عصبياً. كان في كل لحظة يهم بترك الجريدة، والذهاب إليها فوراً. لم يشارك في حديث. وبعد الساعة السادسة طن الراديو في ذهنه مثل صراخ وحش ضار، مثل ديناميت يتفجر. وفي الليل شرب منفصلاً عن

جلسائه إلى عالم نفسه. وفي اليوم التالي كان في الأزقة ذاتها.

رأى النجار بائع التوابيت، وكان في هذه المرة يصنع مهداً خشبياً. وتفاءل. ثم شم رائحة المصبغة قوية ليس كالمرة الأولى، وكأنها تنبئه بأنه دخل في منطقة المجهول، ولن يفلت هذه المرة. وبدأ يرى أرقام البيوت بتسلسل مذهل. رقع سوداء مربعة متآكلة ملطخة بالطين، وممسوحة، وبعض الأرقام مكتوبة بالطلاء على الأبواب أو بالقرب منها. وجرح عينه الرقم المقصود. وزاد من اضطرابه أنه رأى شخصاً طويلاً واقفاً قرب الباب. وفي الحال تكشفت اللعبة. وقع في المصيدة وفات وقت الرجوع. تقدم من الباب وتفحصه. وامتصت أعصابه الجانبية دفء جسم يقترب منه. وكان الرجل أجرأ منه. سأله:

_ سيد المن تريد؟

رفع سعيد إليه بصره، وقال بصوت مخنوق، وكأنما يلقي سر المرور لجندي واقف عند باب معسكر:

_ نجاة.

توقع سعيد أن يبتسم الرجل معتذراً قائلاً: "أنا نجاة.." أو يتجهم ويرد بخشونة على متطفل، أو أن يقول "أنت غلطان ماكو هيجي اسم!" توقع كل شيء إلا "إي" التي قالها الرجل خالية من كل مدلول. ونقر الباب ودفعه قليلاً، وأدخل رأسه بين الضلفتين، ثم أخرجه ودعا سعيداً إلى الدخول.

ارتد سعيد حين رأى امرأة تحمل طفلاً، واقفة وسط حوش صغير مربع الشكل. ربما لأن عباءتها لا تحجب إلا ظهرها، وصدرها عار أكثر من المألوف، وربما لأنها تحمل طفقلاً، والاسم نجاة كان يوحي له بشيء رومانتيكي له وشيجة بالأفلام السينمائية. إلا أن الرجل قال "تفضل، تفضل". وكانت هي تبتسم مرحبة، وكأنها تعرفه. كان البيت

صغيراً جداً ويبدو مظلماً رغم النهار الصاحي. ما أن دخله حتى غلفته رائحة عفونة قديمة.

وصل في خطوتين إلى ليوان صغير عار إلا من كرسي خيزران وضع قرب رازونة لاح في غير موضعه، وكأنما استعير من بيت الجيران ليجلس عليه سعيد. دعاه الرجل إلى الجلوس. كان يبدو رب البيت. على الأكثر هو زوجها – فكر سعيد بذلك – وما علاقتي أنا بين زوج وامرأة؟ تناول الرجل الطفل من الفتاة فبدت ذراعاها فارغتين لا تعرف ماذا تفعل بهما. فتاة نحيلة طويلة العنق، عظيمة الصدر. من الصعب أن تعرف عمرها بدقة. كانت ترتدي ثوباً أحال الغسيل لونه. وتهدلت أذياله فهي ليست على مستوى واحد. وكان صدرها مكشوفاً، وترقوتاها بارزتين. كانت تبدو رقيقة جداً وعذبة وبيتية، كل فتاة عراقية تقضي أغلب عمرها حبيسة الجدران، فتتضوع في البيت بكل بهائها وفتنتها وشبابها لفترة قصيرة من الزمن، وكأنها تستهلك فتنتها ثمناً لأن تعلن عن وجودها في بيت منعزل، ثم تأخذ بالذبول بسرعة. وعندما تبلغ الثلاثين تكون أربعة أ×ماس جمالها قد ولت. إنها صنف من المرأة العراقية يعرفه سعيد، تأكل شبابها بسرعة، مثل تلك المصابيح الوهاجة التي تستعمل في التصوير. تتوهج وهجاً ساطعاً لفترة قصيرة ثم تنطفئ إلى الأبد. وكانت نجاة تبدو قريبة إلى عهد الانطفاء. فكر سعيد: ربما هي مريضة وتريد أن تدخل إلى مستشفى العزل، وحسبته صاحب كلمة مسموعة. رفع بصره إليها ثانية. كانت ما تزال تبتسم ابتسامة حلوة خلال غلالة شحوب، وكأنها تريد أن يبدأ هو الحديث.

قال سعيد متململاً على مقعده:

_ عرفتني إذن!

هزت الفتاة رأسها وقالت "إي.. أهلاً وسهلاً" مبتلعة بعض الحروف، متنقلة بصرها بينه وبين الرجل، وكأنها تسأله هل تتصرف تصرفاً حسناً. قال الرجل:

_ انتظرناك.

رفع سعيد بصره إليه فرآه فارع الطول فقير اللباس ببنطلونه الحاكي، وسترته البنية. قال سعيد:

_ آسف. حاولت ولم أستطع.

_ لطيف أنك أتيت.

خمش الطفل شارب الرجل، وأوقف كلمة كان يريد أن يقولها. قال سعيد لنفسه "إنه زوجها حتماً. ولكن ما علاقتي أنا؟".

قال المرأة:

_ عيني، اعطينياه.

_ لا، خليه يلعب.

_ اليوم أول يوم يشيل رأسه من المخدة.

_ صاير عظام.

_ ليش ميصير، إذا حليب ما عندي، وماكو بالبيت إلا الخبز.

قال سعيد لنفسه "إذن، فالمسألة تتعلق بالفقر، تريدني أن أكتب عنها".

قال الرجل:

_ اللي يسمعك يحسبك يتيما.

_ يتيم، والله يتيم.

قال سعيد لنفسه "إذن فليس زوجها. ربما أخوها".

قال الرجل:

_ وأبوه ما يزال طيباً.

قالت بحرقة:

_ غسلت يدي من أبيه. البارحة قلت له: هناء راح تموت. تذبل بين يدي مثل الوردة، يراد لها طبيب. سكت

طويلاً، وعندما خرج قال: خذيها للطبيب، ولم يعط فلساً واحداً.
_ يمكن يريدها تموت.
_ لا يهمه شيء. مات قبلها أخوان.
وشرعت تبكي. قال الرجل بحدة:
_ جاء الرجل إليك، فاحكي له بصراحة. لا تبكي.
تجمد سعيد متوقعاً اللحظة الحاسمة. ولكن المرأة بدت أخذل من أن تفوه بكلمة. كان تدير لهما جنبها. وكان سعيد يرى صدرها يعلو ويهبط. لم يكن لها ثديان تقريباً، ولكن الخندق بينهما واضح.
كأن الرجل يئس من أن تتحدث، وبحديث معقول فناب عنها.
_ يا أستاذ سعيد. أنت ترى أمامك مأساة.. رجلاً تاركاً زوجته وأولاده للجوع. ألا يثير هذا شفقتك؟
_ شيء مؤسف – تمتم سعيد – هناك أزواج...
قاطعه الرجل:
_ لا يوجد أزواج مثل زوجها.
هو أعرف بذلك، فلم يصر سعيد على رأيه، ولكن:
_ ما نفع الكتابة عن هذا في الصحافة؟
_ هي لا تريدك أن تكتب – أجاب الرجل عنها – الكتابة لا تنفع.
_ وماذا تريدني أن أفعل؟
أجابت في الحال، وهي تشج من أنفها:
_ قل له... اجعل له دماغاً.
ذهل سعيد وقال:
_ أقول له؟ وهل أنا أعرفه؟
قالت المرأة:
_ أنت تعرفه.
_ أعرفه؟

وخاف أن يسألها من هو، لأنه شعر بأنه سيصاب بصدمة.

_ أنت تعرفه – قال الرجل في يقين – كل يوم تلتقون سوية.

فتح سعيد فمه. واخشوشنت عضلات عينيه. وقالت المرأة وهي تمسح عينيها:

_ جلساتكم لنص الليل.

الآن فقط بدأ وكأنما يعرفه. لم يشخصه تماماً، ولكن ضمير الجماعة استحضره وجسده شخصاً يعرفه كلياً.

وفجأة طرق الباب. ولعل سعيداً كان أكثر المرتبكين. كان كل كيانه متشبعاً بالزوج حتى خيل إليه أن الزوج وراء الباب الآن، وعندما يفتح يراه، يرى وجهاً يعرفه. قالت المرأة:

_ الباب مفتوح.

قال الرجل وقد تحرك:

_ نسيت. أنا قفلته بالمزلاج.

قالت المرأة باطمئنان: "هذه هناء.. لا أحد غيرها" وذهبت لتفتح الباب. ولم يطمئن سعيد إلى قولها. انتظر صامتاً حتى ظهرت فتاة صغيرة سارت إلى الليوان بوني، ورفعت عينيها إلى سعيد. فحياها بهزة من رأسه. كانت شاحبة زرقاء كدرة الوجه. قالت أمها شاكية:

_ لماذا أنت حافية؟ ستموتين.

قالت الصغيرة بصوت عليل:

_ نعالي ضيق.

قالت أمها وهي تسير خلفها:

_ رجلها اليمنى تورمت بدون سبب.

ودخلت الغرفة وراءها.

الثالث

هبط عليه الوحي أخيراً في قهوة قرب سوق الهرج، وحي متعكر صلف. شفتاك الحمراوان، عيناك السوداوان. ولم يعجبه الوحي. إنه لم ير غير وجهها البيضوي المصوب نحوه، وليل عباءتها. قامتها الهيفاء الغضة شهية كالزلابياء، سوداء كالكافيار أو لعل الكافيار أزرق! لم يره بل قرأ عنه، مثلما قرأ عن الشمبانيا، ولم يقربها. غضب وقال لنفسه: أنا لا أعرف هذا الترف. أنا من أرض العباقرة الجياع النائمين على سطح الجرائد. أنا بودلير العصر.

سرح خياله متمثلاً مرة أخرى حادثة الصباح.

فتاة بين فتيات. كانت واقفة عند محطة الباب في باب المعظم. حانت منه التفاتة فرآها تنظر إليه، وتتهامس مع صويجاتها. خطف بصره وجه ناصع البياض متجه نحوه مثل قمر على رصيف شارع. وسرت رعدة في أوصاله. واستدار متظاهراً بأنه يتحدث إلى صاحب كشك الكتب. وسأل نفسه ربما هي لا تنظر إليه؟ لا. رأى عينيها السوداوين تنظران إليه نظرات تحد. التفت فرأى بعض صويجاتها ينظران إليه. ثم نظرت هي ثانية، ورأى الشفتين الرقيقتين الحمراوين تنفرجان قليلاً، وتحرك الرأس حركة بدت وكأنها عفوية. كانت تقول بها "اتبعني!.." وتحركت قدماه في مغامرة جنونية، وصعد الباص من الدرجة الثانية. وتردد أيجلس هنا أم في الدرجة الأولى حيث جلست. وجازف بأربعة فلوس، وجلس وراءها تماماً. وعلى يمينه جلست صديقات لها. قال لنفسه "الآن سيراقبن حركاتي، ويقلن لها. وقرر أن تكون حركاته موزونة. مدت للجابي كفاً بضة وضاءة تشع دفئاً وأنوثة. ورفع بصره مع حركة اليد، وكأنما يتابع طائراً في طيرانه. وحسد الجابي لأنه لامس دفئها. كانت التذكرة بين أصابعها كالوردة. رفعتها حين عدلت

عباءتها على رأسها. وقال لنفسه: إنها تلوح بها لي، تلوح بوردة حب. لابد من أنها سمعت بي ورأتني في مكان ما. أو هو حب من أول نظرة؟ رأى رؤوس أصابعها الدقيقة المصقولة اللامعة الأظافر، السمر عند السلاميات، المطبقة على طرف العباءة. كانت لدنة طريقة قريبة منه، حلوة مثل أصابع العروس حتى ود لو يضعها في فمه. وغابت الكف، ولم يبق إلا ليل العباءة الأعمى، المنهي بمجرة النجوم عند انعكاس الشمس على الشريط البارز من شعرها عند حد العباءة. وفجأة رآها تهم بالنزول وتسلم على صويجاتها، وتنزل في ساحة الأمين. خلص نفسه من المقعد ونزل وراءها متخطياً عيون صويجاتها، وعبر الشارع حتى رآها تعبر. وقال لنفسه "مغامرة عاطفية سأمضي بها إلى نهايتها. أنا بحاجة إلى محبوبة، مثل حاجة الشاعر إلى وحي". ورآها تلتفت ثم تقف عند محطة الباص رقم 4 الذاهب إلى القصر الأبيض. وتأسف لأنه سيفقد 14 فلساً آخر. ولكنه صعد وراءها. مر بشجاعة من الدرجة الأولى، وتريث لكي تقع عيناها عليه. ولكنه لم يجرؤ أن يرفع بصره إليها ليرى ما في عينيها من تعبير. خاف، واستسلم للمغامرة بلذة حالمة. وجلس في الجانب الآخر من الباب متأخراً عنها بصف. هو الآن يستطيع أن يرى صفحة خدها الأيسر المؤطر بالعباءة. وحين مدت يدها بالفلوس رأى نصف ذراعها تقريباً؛ الكف البضة، والرسغ، والساعد المدور المحصور في ردنها الضيق الذي يطبق على اللحم بشدة حتى عجب حين رآها تخرج منديلاً صغيراً من هذا الردن، وتمسح أنفسها مسحاً خفيفاً، وكأنها تزيل الغبار عنه. واختفت الذراع. وقال لنفسه: إنها الآن في إجازة الدفء المسمى حضنها، في بيت الأسرار خلف العبارة، على الوسادة التي تشتاق إليها رؤوس العباقرة المتعبة. ثم قال لنفسه: إنها دنيا كاملة لو يظفر بها! نظر إلى وجهها. كان

ساكناً ولا يبدو أن لها نية في أن تحركه قليلاً ليرى الرموش الظلالية. وبدت تلتفت إلى باب الخروج بعد الباب الشرقي. وحسد الركاب الذين كانت تراقبهم ينزلون. وسأل نفسه: ربما تخاف أن أنزل؟ وطمأنها في سره: لا، ما دمت قد دعوتني فسأتبعك حتى بيتك لأعرف أين محارتك، أيتها اللؤلؤة. أنا الصياد المختنق الأنفاس من الدهشة لأنني سأظفر بصيد ثمين. واسترخى حين نهض شريكه في المقعد. وفرش نفسه على البطانة الجلدية البنية في تلذذ، ثم خلا الباص وتخيل نفسه في صالون واحد معها. واقتربت منه نفسياً حتى توهم أنها ستنهض، وتجلس معه وتقول: دعنا نتعارف. لماذا نغالط أنفسنا؟ أنا من المعجبات بشعرك. ويزول كل الجمود الذي لا معنى له. وخيل إليه أنه يشم رائحتها؟ رائحة امرأة معطرة، وأغمض عينيه بسعادة مصوراً إياها وراء الجفنين المطبقين حتى صدر صوت نشاز، وفتح عينيه، ورأى الجابي يقول "وصلنا!.."

كان الباص فارغاً. هبط منه في ضيق، وتلفت حوله وضحك ضحكة الخيبة. وسار في الشارع العريض وراء القصر الأبيض. في دنيا طليقة خالية من الناس. وقرر أن يصل إلى الباب الشرقي سيراً، ماراً بمدرسة الشرطة، منعطفاً على حديقة غازي.

والآن يجلس هنا، محاولاً أن يصوغ تجربة اليوم. كان ضجيج سوق الهرج يتلاشى مع تلاشي ضوء النهار. كانت جيوش الظلمة تتجمع بثيابها السود من داخل السوق المسقف ليسود سلطان الظلام. وكان المقهى وراء ظهره قد همد. أشعل سيكارة غازي، ودخن ناظراً إلى عطايا وحيه بامتعاض. وفكر مع نفسه: أنا لا أصلح للشعر الرومانتيكي. خلقت لأعربد كما فعل بودلير في زمانه. وفي دمي كل ديناميت الأرض وحممها. وفي فؤادي لهاث المستنقعات في ليل صيف خانق، تتصاعد ممتصة خضرة

العواطف من شرابيني. فماذا لو أسجل نفسي على حقيقتها، وأعرج على رحلة اليوم المبتورة، وأحرق بكلماتي النارية ذلك الجمود الذي كانت تتيبس منه؟ وردة، بل زهرة ضئيلة من زهور المستنقعات. ومص أنفاساً متتالية من سيكارته، وملأ صدره كله بالدخان. وفكر في مطلع قصيدة جديدة تفوح بأنفاس المستنقعات. كانت جيوش الليل قد قامت بمناورة مباغتة، واحتلت السوق، وأضاء بعض أنصار النهار مصابيح خافتة لتبقى في أذهانهم ذكرى باهتة عن النهار المهزوم. وبدت المناضد والمنصات التي تتكوم عليها الملابس المستعملة عارية قبيحة مثل عظام مبعثرة لتنين هائل. ولكن الوحي لم يأت، مع أن كل مساماته كانت مملوءة بعواطف متفجرة، كل شعرة في جسمه تهتز بالمخاض، وتتقلص أعماقه مثل طلق الحبلة. وتملكته حالة من التوتر النفسي جعلته يحس بالظلمة إحساس من قدم له رأس محبوبته في طبق. كانت تملأ حواسه. يشمها، يتلمسها، يحس بها كائناً حياً يزحف على جسمه. ودمدم مع نفسه: يا ليل الخناس.. الوسواس.. يا ليل الخناس الوسواس.. وبدا ذلك مثل لسان الأفعى التي تتمدد في أعماقه المتوترة الملتوية. يا ليل الخناس الوسواس. باب الميدان بلا حراس. وازدادت ذبذبة الأرض في جسمه. فأسرع.. أسرع بخطاك المحمومة.. كان كل جسمه في حركة راعشة. هذا هو، رب الشعر الأسود.. العنكبوت الزاحف أبداً إلى ركن مظلم يتململ ممطياً جسمه، ملقياً عقب السيكارة التي أحرقت اصبعه.. المارد التابع من أرض العباقرة الجياع، يرفع أناشيدها إلى السماء، ويمد بيده ليمسك بالنجوم النظيفة، تاركاً عليها بصمات أصابعه الملوثة بالنيكوتين.. إنه هنا، وحيداً في الديجور، تملأ أنفه روائح الأرض المتعذبة.. يا ليل الخناس الوسواس.. توجّه، احم ظهره. دعه يشعر بأنه يعيش في مملكته، وبين عبيده

ومحظياته من الزنجيات المتدثرات بألق نهار فائت. ها هو، يقف، ويسير ثقيل الخطى في أرجائك. لا بأس لو سعل من التبغ السيئ، شريطة أن لا يبصق دماً. هذه المناضد الفارغة ستجلس عليها العفاريت في الليل لتحرس آثار خطاه. وهذا النهر المعدني المعربد المسمى شارع الرشيد سيعبره، ليطل على زقاق منحدر، مثل قائد مغولي يطل على أرض المعركة قبل أن يخوضها. انحدر إليه..

اقتحم بيتاً، وجلس إلى جانب زهرة تهدلت تويجاتها. قالت له:

_ تخش؟

قال مستفزاً:

_ انتظري. أين غرفتك؟

_ هناك فوق – وأشارك إلى غرفة كلها شبابيك.

_ وماذا فيها؟

_ كيف ماذا فيها؟

_ يعني؟ اشرحي لي، ماذا في الغرفة؟

_ تريد تشتريها؟ تعامل مع عمتي.

_ لا، أبداً.

_ وليش هالتحقيق؟

_ أريد أن أتخيل.

_ تخيل في بيتكم.

ونهضت مشمئزة. إنها لا تعرف بأي نوع من الشبق مصاب. وانصرف إلى بيت آخر مبتدئاً بعملية ذهنية عصبية. ورآهن جالسات على تختين متقابلتين مثل جثث في دكان جزار. فجلس إلى جانب واحدة منهن.

_ اسمك يا حلوة؟

_ جميلة. ليش؟

_ للتعارف.

_ تعال نتعارف بالحجرة.

_ وأين هي؟
_ على يسارك.
_ ماذا فيها؟
_ تعال وتفرح.
_ وهل ستستعجلين؟
_ إذا كنت طيباً فلا أستعجل.
_ وكيف أكون طيباً؟
_ اسكت من هذا الكلام البائخ.
_ أنا شاعر، لا أحب السكوت.
_ شاعر لو شعار؟ أرقص لي وخذ درهم.
وقفزت منه. وضحك. إنهن لا يفهمنه مطلقاً. كلهن شكات وعجولات. لا يتركنه يتم عملية التخيل. كان يريد فقط أن يتصور العملية في ذهنه دون أن يشارك فيها ويتقزز. وكان يعتبر ذلك ضد التهويم الرومانتيكي.
ودخل بيتاً ثالثاً. رأى فيه فتاة ضاربة كالفروج. بدت ميتة، قلما دخل دبت الحياة في أوصالها، وأنزلت ساقها، واعتدلت واستقبلته ببشاشة:
_ أهلا.
_ أهلا بك أيضاً. كيف الصحة والأحوال؟
_ عايشة، والحمد لله.
_ هل تشكين من شيء؟
_ قلة المعاميل الطيبين.
_ مازلت شابة.
هزت رأسها بغموض، فقال لنفسه: إنها إحدى فتيات بودلير المسكينات. فربت على ظهرها بعطف. قالت:
_ لا تضرب على ظهري، تعال نخش.
_ أين غرفتك؟
_ هنا.. – ومالت بجذعها، وأزاحت ستارة كشفت عن خُنٍ رطب فيه سرير وإبريق. وانتفض الشاعر، وكأنما أزاحت

الستارة عن كل قذارة العالم، وبددت هالات القدسية حوله. نهض فأمسكت بيده:

_ وين رايح؟

_ إلى جهنم، اتركيني.

_ ابق.. سأسليك.

_ لست بحاجة إلى تسلية، بل إلى قدح من العرق.

_ اقعد. أجيب لك عرق.

نظر إلى وجهها السقيم. بدت الأصباغ طافية عليه. كانت عيناها غائرتين صغيرتين ووجنتاها مرتفعتين قليلاً، وحنكها صغيراً، ورقبتها هزيلة. لوحة بودليرية صارخة. ولكنه أصر على الخروج.

_ سأجلبها معي، وأعود.

أطلقت يده. وبدت غير متأثرة بكلامه، ساهمة، وبائسة، وكأنها أسيرة قدر مجهول، وخرج منها كالراكض. وتنفس الهواء المخلوط بفضلات الإنسان. وكان يعرف أن كل الخارجين من هذه البيوت يبولون في الزقاق الضيق كنوع من التطهير البذيء، ففعل مثلهم. وخرج إلى شارع الرشيد، واستقل سيارة إلى الباب الشرقي.

لم يجد في نفسه رغبة في الذهاب إلى بلقيس. كان يعرف أن ابراهيم وسعيداً قد خرجا الآن من الجريدة، وأن عبد الخالق وحيداً هناك. سيتحلقون حول مائدة يتناقشون حول نقل حميد إلى الديوانية، وكأن ذلك مشكلة دولية خطيرة. سار بمحاذاة شارع أبي نؤاس، والنهر إلى يمينه مثل شريان وردي اللون. ونسمة خفيفة تغضن صفحته. كان منتفخ الأوداج وكأنه غاضب من شيء مكدر وقع له في طريقه الطويل. شم شريف ربيعاً جديداً من رائحة الطين النقي، وأوراق الشجر الجديدة، والتراب الناعم الذي أخذ ينفذ من حذائه المفتوق. تنفس بعمق وتلذذ منبهراً من شيء غير محدد. قال لنفسه "ربما هو الحب

الذي يعن عليه أثر من ماض ريفي لا يمكن التخلص منه كلياً. في يفاعته كان يحب السير في البستان ليلاً، حين كان عالم النبات يبدو له غامضاً وقديماً جداً، والأشجار مخلوقات متجمدة. قال لنفسه: "عجيب هذا العالم، فيه بساتين وغابات، وأزقة قذرة، فيه نساء نظيفات، وأخريات مثل ديدان أرض الفروج التي عرضت جسمها علي في مسكنة، راضية أن تجلب لي العرق أيضاً. أوف!" ونفخ زفرة طويلة. رأى ضوء حانة خافتاً. نظر إلى الحانة مندهشاً من وجودها هنا، في تلك البقعة النظيفة من الأرض وتذكر، وهو يحدق في الضوء، بيتاً لبودلير في أزهار الشر "عيناك خافتتان مثل أضواء الحوانيت". ورغبه ذلك في الدخول إلى الحانة. طلب نصف ربعية، وصمونة. وجلس يحتسي الخمرة على معدة فارغة على عادته ليسكر بسرعة، وبأقل ما يمكن من التكاليف. وبعد عدة جرعات طويلة من الخمرة المخلوطة بالماء حاول أن يتذكر تلك الفتاة النظيفة التي ضاعت منه قرب القصر الأبيض، فلم يوفق. كانت تبدو مثل ذكرى قديمة. بينما كانت قريبة منه تلك المرأة الشبيهة بالفروج تطوف المساحيق على وجهها. حين وجه إليها ذهنه انتصبت في مخيلته بكل قوامها الهزيل، وحنكها الصغير، وعينيها الخافتتين "مثل أضواء الحوانيت" ورقبتها الهزيلة، وشعرها. والآن تخيل شفتيها الرقيقتين تتمتمان بشيء، ثم تحدق به في عتاب عاقدة حاجبيها، فيدعوها إلى جانبه، ويشعر بنعومة ثوبها على كتفه. ابتسم لها في خياله مرحبا "كيف الصحة والأحوال؟ عايشه؟ مازلت شابة. والتصقت به فرحة. وسرى دفؤها في كل جسده. لين مفاصله حتى لا يؤذي جسمها الرقيق المنطبق على جسمه، ولم يحرك ذراعه اليمنى التي تطبق عليها. ورفع كأسه بيده اليسرى، وقدمها إليها. مدت شفتيها وكأنها تهم بالشرب، ثم هزت رأسها رافضة، والتصقت بجسمه أكثر،

ونظرت إليه وهو يشرب الكأس، رافعة رأسها الصغير مع حركة للكأس المائلة. أخرجت حنجرته صوتاً. ابتسمت له، وتناولت الكأس الفارغة من يده، وكأنها تقول له: لا تشرب بعد. ودلى رأسه سكران. وغام ذهنه. وانغلق وقتاً طويلاً مثل موت مؤقت مفاجئ. وحين رفع رأسه، ونظر لم يجدها إلى جانبه. بل رأى باب الحانة المسدود بحاجز خشبي، والفراغ، والكأس بلا ثمالة، والصمونة لم تمس بعد، وصاحب الحانة ينظر إليه في ريبة. ووراءه ساعة تشير إلى الساعة الحادية عشرة، فدفع الحساب، وتناول الصمونة، وخرج.

حين فرغ من التهام الصمونة جالساً على مصطبة عند الشاطئ أحس بأن سورة الخمر تزايله، والساعة قد بلغت الثانية عشرة لا محالة، لابد من أن حارس الجريدة يغلق الآن بابها بالمزلاج. فتش في جيبه فلم يجد خمسين فلساً يضعها في كف الحارس ثمناً لفتحه الباب بعد الثانية عشرة. ففضل قضاء الليل هائماً في الشوارع.

الأول

كانت مدام بوفاري مستلقية على سريره تنظر إليه بعينيها الزرقاوين. وكان يسند مرفقه على وسادته، ويضغط صدعه على راحته، وينظر إليها من عل غير مفكر فيها، ولا في سجاتها الغرامية. كانت له سبحاته الخاصة، وأفكاره، قلقه. خلال ساعتين لم يقرأ غير صفحة واحدة. لم تتمثل في ذهنه شخصيات الرواية، بل صورته هو.. ضحكته الجسور، عربدته، لا مبالاته... تبجحه بأنه طليق، لم يكن يتصور أنه هو. كان يظن الزوج الفالت شخصاً من أولئك الذين يجلسون إلى مائدتهم غير مدعوين، ويحسبون أصدقاءهم. وحينما ودعه الرجل إلى الباب، وهمس له باسمه أحس بأنه شتم بأشنع شتيمة. بالأمس لم يذهب إلى بلقيس. تحاشاه. خاف منه أو خجل. وخاطب سعيد نفسه: لعين أنت يا سعيد، كم يعيقك الخجل عن أداء أشياء كبيرة في حياتك. كان بوسعك أن تذهب إليه يوم أمس، وتقول الحقيقة في وجهه، حميد، أنت متزوج ولك ولدان مريضان. لماذا تخجل من زواجك وتخفيه؟ ولماذا تزوجت إذن؟ كل السقم المرسوم على زوجتك من الأهمال، وربما من قلة التغذية، بينما أنت تغدق على الرايح والجاي، وعلى الخمرة والموبقات. نحن – أنا وابراهيم وعبد الخالق وشريف – نهرب إلى بلقيس لأنه ليس لنا من ينتظرنا في البيت. وأنت لماذا تهرب؟ من بيتك؟ وتفضل بلقيس القذرة عليه. كان من الممكن أن يكون لك بيت أفضل و...

_ سعيد، راح يبرد الأكل، تعال اكل.

سمع سعيد أمه فأجابها:

_ الآن، انتظري.

وعندما عاد إلى تفكيره تحول فكره إلى جهة أخرى. خاطب نفسه: على مهلك، على مهلك. من أجاز لك أن تتدخل في حياة الناس، وليكن حميد صديقك منذ خمسة أعوام. ولكن صداقتكما لا تتجاوز الجلوس إلى مائدة واحدة، والمشاركة في أحاديث خارجية. أنت لا تعرف ماضية ولا عائلته، مثلما لا يعرف هو عن حياتك البيئية شيئاً. ذلك لأن لكل منكما حياتين: حياته مع الناس، وحياتك مع نفسه، إن لكل منكما عالمين، خارجياً يظهره للناس، وآخر يحاول أن يحتفظ به لنفسه مخفياً عن كل الناس. ورضي سعيد بهذه الفكرة، وخاطب نفسه: ضع نفسك في موضعه. لو باغتك هو على مثل ما تريد أن تباغته به، كيف ستتصرف؟ نعم، كيف ستتصرف؟ أنت نفسك أشد الناس انغلاقاً وتكوراً على نفسك. فمن طرق باب بيتك من أصدقائك؟ ومن دعوت إليه منهم؟ لا أحد. لأنك تستحي من هذا البيت، ومن حياتك في هذا البيت، ومن الحفاة والمنتعلين الذين يدبون في أرجائه، ومن كونك لا تملك كرسياً يجلس عليه الضيوف. لا شيء لك فيه غير هذا السرير، وهذه المنضدة التي صنعها لك أخوك، وصبغها بلون رماني.

_ سعيد، رايحة للسوق.

_ دقيقة.

ومع ذلك تبقى مسألة الضمير – استرسل سعيد في أفكاره – عجيب هذا الضمير الإنساني. مع انه يعيش في داخل الإنسان إلا أنه لا يخضع لنظام جسمه، ولا لقوته وضعفه. أحياناً يتحجر كالغرانيت في جسم ما يزال يحتفظ في الظاهر بطراوة الدم واللحم، وأحياناً يغط في نوم عميق، وهي الحال التي تنطبق على حميد. هكذا! يؤخر بمخرز ليسقط صاحبه. وأنا الآن موكل بامساك المخرز ووخزه. هكذا! _ وكز سعيد على أسنانه. وانفعل جداً، ليس فقط

لأن ساعات قراءته في الصباح قد ضاعت، بل لأنه لم يكن راضياً كلياً عما توصل إليه.

ترك مدام بوفاري على سريره، ونزل منه مؤملاً أن يرى أمه فيثلج مرآها قلبه. كانت دائماً تبرد المواضع الملتهبة من نفسه. رآها تحمل سلتها الخوص. وعندما رأته قالت:

_ إلى متى تعذبني بأكلك؟

لم يجبها بل نظر إلى ساعته:

_ أوه، الساعة العاشرة والنصف. يجب أن أذهب إلى الجريدة، أين الفطور؟

_ على البريمس.

وتربع على الأرض، وتناول المقلاة السوداء. كانت فيها بيضتان مقليتان جمدتا على نفسيهما. قطع رغيف الخبز، وشرع يأكل.

_ طلع أبي للشغل؟

_ طلع قبل ساعة. ما كان يريد أن يروح. عرق النسا هائج عليه. لكنه شرب حبتين أسبرين، وعرق وخف عليه، وطلع.

_ وإلى متى هذا الأسبرين؟ الأسبرين لا يداوي عرق النسا.

_ يقول أحسن من الأطباء وإبرهم.

_ أوه، يا أمي، متى تتعلمون؟

_ كفاية علمناك – ردت دون غضب – وضعنا بيدك القلم.

_ على راسي. ولكن هذا لا يمنع من أن يذهب إلى الطبيب.

_ اقنعه.

تكلم سعيد مع نفسه: مهمة صعبة، ولكنني سأحاول. قبل أن تستدير أمه سألته:

_ راح تجي للغدا اليوم، لو مطعم الشمس أحسن؟
_ أنت أحسن من كل مطاعم العاصمة.
ورأى وجهها يتهلل، وخرجت مرتاحة. أما هو فظل يفكر في "الأسبرين" تمنى لو يجمعه من كل الصيدليات ويتلفه. عند ذلك سيضطر أبوه إلى الذهاب إلى الطبيب ويشفى.
دخل الجريدة وصعد الدرج محمولاً على جناح الأمل في شيء جديد. كان ابراهيم جالساً إلى مكتبه. أدى سعيد السلام، وحمل جرائد الصباح من مكتب ابراهيم، وجلس إلى مكتبه.
قبل أن يبدأ القراءة رأى ابراهيم يمد إليه ورقة. تناول سعيد، ورأى الختم الأسود المألوف له "مديرية الدعاية العامة". قال:
_ إنذار؟ يعني خليل كان صادقاً في تخوفه.
_ المحاسبون دائماً حساسون بالأخطار.
قرأ سعيد الإنذار. كان متعلقاً بمقال افتتاحي عن مفهوم الديموقراطية عند حكام العراق. سأل:
_ ماذا سنفعل؟
_ اتصلت برئيس التحرير، وقرأت عليه الإنذار، فأوصاني أن أكتب تعليقاً أشد في الرد عليه.
_ بودي أن أكتب أنا مقالاً آخر.
_ أكتب.
_ عجيبون هؤلاء. يسنون للناس مفاهيم، وهم خلو من كل مفهوم. وإذا نبهتهم إلى ذلك ثاروا عليك، وأنذروك بالويل والثبور.
_ حقاً يا ابراهيم، ألا تحس بالغصة حين تقرأ قوائم الكتب الممنوعة، بينما تزخر المكاتب بكتب الجرائم والجنس وفضائح باريس؟
قال ابراهيم مشيراً بذراعه:

_ بمناسبة الكتب الممنوعة سألت يوم أمس عن كتاب نهرو "لمحات من تاريخ العالم" فإذا هو من الممنوعات.

_ تصور!

قال سعيد ذلك وفكر مع نفسه: هؤلاء مثل أبي يحاولون أن يخدروا بالأسبرين – الكتب الجنسية المثيرة وغراميات كارمن – مواضع العلة التي لا يشفيها إلا نطاسي في الطب.

ولم يدعه ابراهيم في أفكاره. أخرجه منها قوله:

_ حسبتك جندياً.

رفع سعيد بصره فرأى شريفاً يسد مستطيل الباب بجسمه الضخم، ويدخل بوقار العظماء. سار بخطوات جندي، وجلس وراء الراديو على عادته. سأل ابراهيم:

_ يبدو أنك لم تنم اليوم في الجريدة.

_ لا – أجاب شريف باقتضاب، واسترخت أساريره بابتسامة.

_ أين كنت إذن؟

قال شريف متمهلاً:

_ إذا قلت لكما لا تصدقان.

قال سعيد:

_ قل، نحن نصدقك بكل شيء.

همس شريف:

_ كنت نائماً مع أجمل امرأة في العراق.

قال سعيد في خيبة أمل:

_ أوه، ستضطرني إلى استعمال الأسبرين.

_ ألم أقل أنك لا تصدق؟

قال ابراهيم:

_ قل لي أنا. هل كذّبتك يوماً ما؟

سكت شريف لحظة. ثم بدأ القصة:

_ سكرت يوم أمس في حانة.
_ يوم أمس لم تأت إلى بلقيس.
_ نعم. وبعدما ذهبت إلى ملهى الجواهري، وجلست على مائدة في المؤخرة.
سأل سعيد وهو ما يزال غير مصدق:
_ وكيف تقبل بالجلوس في المؤخرة؟
_ هذه طريقتي – قال شريف في ثقة – وقبل أن أتم كاسي جاءت وقالت بصوتها الغنائي: أنت هنا؟ كانت تتظاهر عندما دخلت الملهى كانت تغني على المسرح. لابد أنها رأتني. وبعد أن انتهت من نمرتها ظلت تحوم حولي، وكأنها لا تراني. فتركتها بثبات أعصاب. دعها تحترق. وستأتي إلى مائدتي كالنعجة.
وسكت شريف، فسأل ابراهيم بلهفة.
_ وهل جاءت؟
_ جاءت! جاءت وجلست إلى جانبي معطرة حريرية مملوءة أنوثة. وقالت بصوتها الغنائي: اقرأ لي شعرك. أنت تعجبني أكثر من أبي شبكة. إنها مثقفة. عندها كل دواوين علي محمود طه، وأبي شبكة. وقرأت لها قصيدة فطارت كالمسحورة، وطلبت أن أقرأ ثانية وثالثة. كان الناس ينادونها. ولكنها انصرفت عنهم حتى جاءت وصلتها الثانية. فقالت وهي تنهض مضطرة: هل يمكنك أن تنتظرني حتى أنهي وصلتي الأخيرة فآخذك معي إلى البيت. دعها تكون ليلة شعرية.
ونهض شريف من وراء كرسي راديو الالتقاط. وبدأ في حيوية تامة. ولو أن وجهه ظل على احتقانه مثل ممثل في مكياج.
_ وهل ذهبت؟ - سأل ابراهيم مرة أخرى.
_ انتظرتها حتى الساعة الواحدة والنصف. وأركبتني سيارتها الشوفرليت إلى جانبها. وفي الليل الهولاكوي بدت

مثل زهرة تفوح عطراً وألقاً. وتعشينا في البيت عشاء خفيفاً: فخذ دجاج بارداً، وملعقتين من العسل لتقوية الحنجرة، وخوخاً وموزتين، وقطعة من الجبن.

وبدا شريف مبهور الأنفاس. فقال له سعيد:

_ اجلس مكانك حتى لا تقع.

إلا أنه تابع كلامه واقفاً:

_ ثم ذهبنا إلى غرفة النوم. وهناك قدمت لي كأس ويسكي، واستلقت إلى جانبي، وقالت لي: اقرأ لي، فأخذت أقرأ لها أشعاري، وهي مستلقية على كتفي مسحورة. وظللت أقرأ حتى غفت وغفوت.

_ وهل اكتفيتما بقراءة الشعر؟

وكأنما أخذ شريف على غرة. قال:

_ قمنا ببعض الفعاليات. وافتح عيني في الصباح فأرى فتاة بزبون.

_ زبون؟ ربما هو روب؟

_ يمكن. أزرق، وفي يدها صينية. تصورت أنني أحلم. قد نسيت الليلة البارحة تماماً. وقالت لي الفتاة: شريف، جئت بفطورك. تركتك تنام حتى الساعة العاشرة، ولابد من أنك جائع الآن. فاقعد وتناول فطورك على السرير. وتذكرت الليلة الماضية. وضعت الفتاة الصينية في حضني. كان في الصينية ثلاث بيضات مقلية، وصحن قشدة مع العسل، وموز وشاي فتناولت فطوري.

_ الخفيف.

أضاف سعيد ذلك، فقال ابراهيم:

_ الخفيف على الجائع.. وبعد؟

_ بعدها أخذت حماماً وجئت إلى هنا.

وعاد إلى كرسي راديو الالتقاط. نظر إليه سعيد بدهشة. كان يبدو مثل كتلة مهروسة. قال له.

_ يبـدو أنـك أخـذت حمـام غبـار لا بخـار، لأن سـترتك مترية.
_ أين؟
_ هنا، عند كتفك، وذراعك وظهرك.
وقال ابراهيم:
_ وبنطلونك فيه لطخة كبيرة.

الرابع

تطلع من خلال شباك غرفته الصغيرة إلى الحديقة الخلفية المغمور نصفها بشمس الساعة السابعة. وقال في سره: هذا يوم آخر من حياتي، يوم لن يختلف عن يوم أمس، وما قبله، إلا بأنه قطع ورقة فارغة من تقويم حياتي، وقرب أول الشهر يوماً واحداً. وما عدا ذلك لا جديد فيه. أنا أعرف ماذا سيحدث في هذا اليوم. بعد قليل سأمارس العمليات التي أمارسها كل يوم.

وانصرف عن الحديقة مهموماً بعد أن تسمم بجرعة الصباح من الأفكار القاتلة. وأجال بصره في غرفته. هذه ليست غرفة، بل زائدة دودية، فصلت عن غرفة الضيوف بستارة، ووضع فيها سرير حقير هنا، وخزانة من طراز قديم هناك، وكرسي لا يصلح أن يكون في غرفة الضيوف، وطاولة تعود إلى أيام تلمذة والدة. وقيل له أسكن هنا، واكتب، واسترح. ومع ذلك فهو محسود. يسكن قصراً. لو عاش أحد أصدقائه هنا لفر هارباً في اليوم التالي. كل شيء ليس له. لا يملك شيئاً في الدنيا. حتى الوقت، أجزاء حياته المتساقطة مثل أوراق شجرة ذابلة ليس ملكه الخاص أيضاً. الساعة السابعة والنصف الآن. بله ديخ! أيها الحصان المستأجر عند الحكومة حان وقت انطلاقك إلى موقعك من الطاحونة. يا ثريا، هل اشتريت له بيضة ورغيف خبز. هاتي ليمارس الأكل. وشرح قدح الشاي على عجل. ثم رفع ساقه المتوترة وأولجها في بنطلونه، وترك سترته تلبسه. وخرج. كان صباحاً مترباً. ذرات الغبار عالقة في الهواء. وفي الشارع رأى أحصنة مستأجرة كثيرة تركض لاهثة لتصل إلى مرابطها قبل الساعة الثامنة. وكان الباص مزدحماً على عادته. دخل فيه مجازفاً محمولاً بموجة خلفية. وشم رائحة بنزين قوية من بدلة رجل وجد أنفه مغروزاً في ظهره. وكادت

بيضة الصباح أن تقفز من معدته. نزل في باب المعظم مسحوقاً متقززاً. هذه انطباعة الصباح الأولى. ضريبة نفسية يدفعها إلى الحكومة. سار بدبدبة بمحاذاة قاعة الملك فيصل، ووزارة الدفاع. هاجمته رائحة طعام آسن منبعثة من مطعم قذر تخلص منها بالسير وسط الشارع، متلفتاً باحثاً بعينيه عن شيء لا يعرفه. شيء يهزه ويحوله من حركة القصور الذاتي إلى قوة بذاتها. ولكن، لا شيء. ردد طابوق مديرية البلديات وقع أقدامه مثل قهقهة ساخرة. واندمج من قطيع الخيول المستأجرة. وفي تلك اللحظة تذكر من أين جاء هذا التشبيه الذي كان يتردد في نفسه، إذ خطر بباله قول بلزاك: هذا الرجل من أولئك الحمير التي تدير طاحونتنا الاجتماعية.

اشترى جريدة "الناس" من عنق سوق السراي وخيل إليه، وهو يمد الفلوس إلى البائع، بأنه يشتري هذه الجريدة للمرة الثانية في هذا اليوم. ولكن البائع قال له: لم تعطني فلوس الجريدة يوم أمس. عند ذلك تذكر أن أفعاله في بعض الأحيان تبدو بلا تاريخ. إنه يشتري الجريدة من هذا البائع كل يوم، فتبدو الأيام متقاربة حتى ليحس بأنه يكرر عملية واحدة في يوم واحد طويل. أعطاه أربعة وعشرين فلساً، وانصرف. دخل الدائرة، وصعد الدرج، وانهدّ على مقعده في غرفة صغيرة مربعة الشكل تطل نافذتها الوحيدة على ممر تتصاعد من أقدام المارين فيه سحابة مستديمة من الغبار. كانت هذه النافذة بلا ستارة تجعله يرى كل شيء يجري في الفناء، وتتيح للمارة أن يروا كل شيء في الغرفة. فهي مثل رقيب دائم عليه.

دخل الفراش دون استئذان، وسلم باقتضاب، وأخذ ينظف أثاث الغرفة، وكأنه غير موجود. صرخ به:

_ عزيز، أهذا وقت التنظيف؟ لماذا لم تنظف في الصباح؟

_ في الصباح نظفت غرفة المدير.
وواصل عمله. صاح به بصوت أعلى:
_ لا تنظف! طلع! لا أريد تنظيفك.
نظر الفراش إليه والخرقة متدلية من يده، وخرج مذعناً. وأحس عبد الخالق بأن الذي أخرجه هو صوت الملاحظ الذي يمثله. وهم أن يستدعيه، ويجلسه على مكتبه، ويرتاح هو على الأريكة القديمة. ولكن هذه النافذة الرقيبة ستوبخه على نزوله عن خشبة المسرح. وسيرفض الفراش أيضاً. وربما يقول: هذا يحتاج إلى أمر من المدير.
استقبل عبد الخالق زواراً أكثر من المراجعين. كان الزائر يدخل فجأة، ويسلم من الباب، ويجلس على الأريكة. فيقول عبد الخالق: شاي، لبن، قهوة؟ ومن النادر أن يرفض الزائر. ويدق الجرس، ويطلب من الفراش أن يجلب له ما يريد. وأحياناً كان الزائر يقدم طلبه إلى الفراش دون أن يدخل، ويعفيه من عناء السؤال. وكان سعيد الزائر الخامس اليوم.
دخل بقامته الهزيلة، وكتفه اليمنى أوطأ من اليسرى. فقال غبد الخالق في سره: هذه من كثرة العرائض التي يلخصها في الجريدة، مثل القلم إذا استعمل كثيراً انبرى، ومال إلى جانب. وجعله ذلك يشفق عليه، ويستقبله بما يستقبل به زائراً آخر.
_ سعيد، ماذا تشرب؟ شاي، قهوة، لبن؟
_ أشكرك. كنت الآن عند عماد وشربت.
_ لا، لازم تشرب. شاي، قهوة، لبن؟
_ أشكرك. لا تلح.
ولم يلح. بدا سعيد في وضع مرتبك، فلم يرد أن يزيد ارتباكه. قال له مجاملة:
_ اشتريت الجريدة، ولكنني لم أفتحها حتى الآن.
قال سعيد بهدوء خجول:

_ فيها مقالة عن محنة المثقفين.
تناول الصحيفة، وفتحها، ورأى المقال بقلم سعيد:
_ هل استطعت تشخيص المحنة، أم تشدقت بألفاظك الرنانة؟
_ حاولت أن أعبر عن همومي.
_ وما هي همومك؟
_ هي أنني مهدد دائماً، وأعيش ثقافياً على ما يرسمه الآخرون لي، وأحاط بالممنوعات والمحذورات، والحكام ينظرون إلي كمشبوه.
قال عبد الخالق بحماس:
_ هذه أول كلمة صادقة أسمعها منك.
ورأى نظارة سعيد ينطفئ لمعانها حين أطرق سعيد ينظر إلى كعب حذائه المترب.
_ إذا كانت كلمة صادقة فهي تكفر عن مائة من أكاذيبي.
فأشفق عليه عبد الخالق، وقال مواسياً:
_ أكاذيبك صغيرة. هناك أشخاص حياتهم كلها أكذوبة.
فقال سعيد:
_ ويتصورون الناس لا يعرفون ذلك.
قال عبد الخالق:
_ هؤلاء مغفلون كبار.
رفع سعيد بصره وقال بحرارة:
_ صحيح، عبد الخالق، ما رأيك في حالة كهذه: صديق تكشف فجأة أنه يكذب عليه، وعلى نفسه، وعلى كل الناس؟
_ لا أستطيع أن أراه.
_ هل تصارحه بالحقيقة، وتقول له: أنت كذاب؟
_ بل أبصق في وجهه.

_ يعني تبصق على ذكرياتك معه، على كـل الكلمـات التي قلتها معه، وبنيتها على تلك الأكذوبة.
_ لا يهم. سأبصق ولو جف لعابي.
_ أما أنا فأحس بخجل شديد.
_ ولمـاذا تحمـل خجـل النـاس إذا كـانوا لا يخجلـون؟ أبصق، وأسير في طريقي.
_ أما أنا فلا أعرف. ربما لأنني أعتقد بأن كل واحد منا، إلـى هـذا المـدى أو ذاك، يعـيش حيـاتين: واحـدة لنفســه يحاول أن يخفيها على الناس، وأخرى للنـاس يخفيهـا علـى نفسه. أليس هذا نوعاً من الكذب؟
_ كذب.
_ إذن فنحن أيضاً كذابون فلماذا يعيّر أعور أعور؟
_ أنت تخلط في الأمـور. هنـاك أنـاس يشـعرون بكـذب حياتهم وزيفهـا. ولكـنهم مضـطرون إلـى الـدوران فـي دائـرة واحدة متحينين فرصـة الكشـف عـن أنفسـهم. ولكـن هنـاك أناساً كذابين حتى مع أنفسـهم. هـؤلاء الـذين وجهـت لهـم بصقتي. صديقك من أي نوع؟
تريث سعيد قبل أن يجيب:
_ لا أعـرف، ربمـا هـو مـن النـوع الـذي يكـذب علـى نفسه.
_ أبصق عليه، إذن.
_ ونحن؟ ألا نكذب على أنفسنا؟
_ نكذب في بعض الأحيان إنقاذاً لأنفسـنا مـن الانهيـار التام. ولكن الخوف أن يصبح الكذب نظام حياة.
صمت سعيد برهة، ثم قال:
_ الكذب كالخمرة تجعلك تـدمن عليهـا دون أن تـدري. في البداية تشتهي كأساً أو كأسين، ثـم تسـتعذبها ترفيهـاً عن النفس، وطلباً لنشوة طارئة. وشيئاً فشيئاً تجـد نفسـك أسيراً للخمرة حتى تدخل في نظام حياتك. وكذلك الكذب.

أحس عبد الخالق أن سعيداً يتألم من شيء ما فسأله الحقيقة. أجاب سعيد مسرعاً:

_ لا شيء، لا شيء. ثم صمت مفكراً وقال بنفس لهجته المتوجعة – من يدري؟ ربما أنا أيضاً أكذب على نفسي. أحياناً أضع لنفسي برنامجاً، وأعامل الكتب باحترام شديد، وأبني مشاريعي للمستقبل. وفجأة أجدني أقول لنفسي: عبثاً ما تحاول يا سعيد، فأنت إنسان بلا موهبة، أنت لا شيء، حتى ولا مجرد صحفي. أنت لا تعرف الحياة التي تريد أن تكتب عنها، ولا الناس الذين يجب أن يدبوا في صفحاتك.. أنت لا شيء. أنت تكذب على نفسك.

قال له عبد الخالق:

_ هذا ليس كذباً محضاً. هذا شك في النفس.

_ وأنت، ألا تشك في نفسك؟

_ لا أذكر أنني شككت في نفسي يوماً ما. رغم أنني أمر بأزمات نفسية صارمة. بل أنا أشك فيما حولي. أحس بأنني أعيش حياة مستعارة مزيفة، وأقوم بأعمال إجبارية مأجورة لا أجد لذة فيها، وأحس بالغربة في بيتي، ولا أملك ركني الخاص فيه، وأعيش أياماً بلا تاريخ. ومع ذلك لا أستسلم لليأس. وأتحسس شيئاً مهماً لابد أن يحدث.

سأل سعيد وكأنه يتطلع إلى شيء ينقذه من حيرته وشكوكه:

_ وما هذا هو الشيء المهم؟

_ لا أعرف بالضبط، ولكنني أتوقعه. إنه أشبه بهزة عنيفة. بميلاد جديد.

قال سعيد:

_ ربما هو ثروة ترثها؟ ألم يكن دوستويفسكي يحلم برأس مال جاهز يجعله ينصرف إلى الأدب؟

_ وهل تحسبني من عائلة غنية لأرثها؟

_ لست فقيراً على أية حال.

_ لو جردتني من وظيفتي لمت جوعاً. هـذا الكرسـي وحده يطعمني ويمتص حياتي. أنا أرضعه إياها أياماً متتالية. وإذا لم أجلس عليه يوماً اقتص لذلك.

_ إذن، فما هو ذلك الشـيء؟

_ قلك لك لا أعرف، ولكنه سيأتي.

الأول

كان متكئاً على الدرابزين حين رآه يخرج من مجاز الجريدة، ويتلفت، ويحاول أن يسأل المحاسب، ويسير خطوتين حائرتين متجهاً إلى غرفة فارغة في الطابق الأول، ولما رفع رأسه إلى فوق عرفه، هرول سعيد نازلاً الدرج محاولاً أن يلتقي به قبل أن يصعده. وغمغم سعيد وهو يصافحه في الدرجات الأولى:

_ أهلاً وسهلاً، هل جئت إلي؟

_ مرحباً، أستاذ سعيد... نعم، أي.

_ لننزل في الحوش أحسن.

وقعدا في الحجرة الفارغة على تخت مترب فيه أكوام من الجرائد القديمة. أهل سعيد به من جديد. فرد الرجل بالمثل، ثم قال:

_ جئت إليك لأنك لم تأتِ إلينا.

وصمت. نظر سعيد إلى وجه الرجل الشاحب المخدد، وانتظر أن يبدأ بكلامه. سأل الرجل:

_ تكلمت معه؟

هز سعيد رأسه بحرج:

_ لا، في الحقيقة.

_ كنا نتصور أنك تكلمت معه.

_ ذلك صعب في الحقيقة. ولماذا ظننت ذلك؟

_ لأنه قبل يومين جاء غاضباً جداً، وضربها في الليل.

شعر سعيد بانقباض في قلبه:

_ وهل من عادته أن يضربها؟

_ يحدث ذلك قليلاً في الواقع. ولكنه قبل يومين جاء سكران أكثر من عادته، ومتألماً، فصار يضربها كالثور.

تحدث الرجل بحرقة، وعكس وجهه معاناة صادقة فيها خنق وعجز مرير. ومرة أخرى قفز إلى ذهن سعيد السؤال

الذي لم يعرف جواباً له حتى الآن: ما علاقة هذا الرجل بنجاة؟ ووجد سعيد نفسه مدفوعاً إلى أن يقول:

_ اسمح لي... هل أنت قريبها، أم جارها؟

_ أنا أسكن في بيت بعيد عنها قليلاً. ولكنني أتردد عليها لأنها مسكينة لا يوجد لها قريب ولا حبيب.

ولم يكن في جوابه أي ايضاح لسعيد. فما أكثر المساكين في كل حي؟ فلماذا يهتم هذا الرجل بـ "مسكينة" متزوجة دون غيرها من المسكينات والمساكين؟ إلا أن سعيد لم يرد أن يسأل كثيراً مخافة أن تظهر ملامح لا يريدها من صورة لم يعرف منها الآن غير الجانب الذي يدعو الصغير إلى العمل. سأل سعيد:

_ هل كانت علاقتهما بهذا السوء منذ البداية؟

_ منذ البداية، منذ أن عرفتها قبل أكثر من خمسة أعوام. قبل ذلك كان حميد يخاف أباه، وكان ما يزال طالباً ومستقيماً نوعاً ما. عندما كان يشرب يأكل حفنة من الهيل حتى لا تخرج رائحة العرق من فمه. ولكن بعد وفاة أبيه صار عربيداً، وعندما سافرت أمه مع أخته إلى الكوت بعد زواجها باع بيتهم في القاطر خانه، واشترى الخم الذي رأيته، وعاش حياة السكيرين، ونسي أن له عائلة.

_ إذن، فأنت تعرف كل شيء؟

_ كل شيء... عرفته من الجيران ومنها. وهل تحسب الجيران لا يدرون شيئاً؟ على الأخص جيراننا. أنا أعمل موزع بريد. وبحكم عملي أتردد على بيوت المحلة، وكنت أسمع كلام الناس عنها. ورأيتها قبل خمس سنوات تبكي بكاء يكسر القلب. وطلبت أن أكتب لها رسالة إلى أهلها في كربلاء. ولما بدأت أكتب الرسالة عرفت أنه لا أهل لها، بل عمة نصف عمياء هي قريبة بعيدة للمرحوم رشيد والد حميد. وكان رشيد يملك حوشين في كربلاء وعرصة للسبابات. وتألمت كثيراً وكنت أترقب الجواب مثلها. ولما

جاء لم يكن فيه ما يفرح القلب. فالعمة عميت كلياً. تألمت كثيراً، وصرت أحن عليها أكثر، وأتردد عليها لعلها تحتاج إلى شيء. مسكينة.

كان الرجل يتكلم بلوعة. ولما سكت مد ذراعه على ركبته رخية. وأطرق برأسه إلى الأرض مكوراً جسمه. ردد سعيد: مع الأسف، مع الأسف!

_ وابنتها؟ ستموت – قال الرجل ورفع جسمه – هذا الرجل لا يحس بأية شفقة على أولاده. هناء مريضة جداً، ولو رأيتها الآن لأنعصر قلبك عليها. كانت مثل الوردة. لها ضفائر متينة مثل النساء، وخدان مثل التفاح العجمي، والآن ذبلت، ومن يوم إلى يوم تصير مثل العود. وهو لا يهمه ذلك، ولا يستأهل منه لفتة. وأنت يا أستاذ سعيد ألا يؤلمك الوضع؟ أنا أعرف أنك صديقه، وكل ليلة تسهرون سوية، ولا تريد أن تغثه. ولكن اشلون؟ تموت العائلة من أجل سهراته؟

وكان من الممكن أن يقول "من أجل سهراتكم؟". وخيل لسعيد أنه يسمع في الجمل الأخيرة سطوراً من رسالة نجاة. لم يصعب عليه أن يحدس أن هذا الرجل هو الذي حرر الرسالتين بخطه الرجولي. قال سعيد:

_ أعترف أنا مقصر. سآتي في الغد لآخذ الطفلة إلى طبيب صديق لي. وسأحاول أن أكلم حميداً.

_ متى ستأتي في الغد؟ حتى أكون في انتظارك.

_ قبل الحادية عشرة.

_ معقول.

استأذن الرجل، وانصرف.

صعد سعيد الدرج فرأى ابراهيم واقفاً عند الدرابزين، فقال له ابراهيم قبل أن يصل:

_ صرت تستقبل المعجبين؟

قال سعيد متأوهاً:

_ نعم، يا سيدي.

_ بالضبط، مثل أي مشهور يتأوه من أعباء الشهرة – ثم مد له ورقة قائلاً – هذه من رئيس التحرير.

تناولها سعيد صامتاً، وسار إلى الغرفة. كان ينوء بعبء ثقيل، ولكنه لا يعرف أهو عبء الشهرة أم عبء الصداقة؟ وهل سيفهم حميد دوافعه كصديق إذا قال له انني دخلت في بيتك دون علمك، ورأيت أنك متزوج؟ هل سيظلان صديقين؟ كان يشك في ذلك، مثلما يشك في أن يظل صديقين فتاة وفتى صارحها في حبه، فلم تستجب له. سيظل كلاهما متعذباً من شيء ما وخجلا ومكلوما.

جلس سعيد إلى مكتبه، ورفع ورقة رئيس التحرير بلا روحه، ونظر فيها وكأنما ينظر في مخطوط من أوراق البردى. كان يحس بضيق شديد، ويود لو يترك الجريدة، ويخلو إلى نفسه ليفكر في الامتحان الذي وضع فيه. ولكن العرائض لم تخلص بعد، شكاوى الناس المبتلى بها.. كل شكاوى الناس تمر به ليلخصها ملوناً أصابعه ببصمات الأصابع الموجودة فيها، وبالحبر الرخيص الذي كتبت فيه. كان يعاملها معاملة واحدة، مثل أبناء غير شرعيين لرجل شفيق يحمل وزر نفسه مثلما يتحمل وزر الآخرين. حتى الآن كان ينظر إلى آلام الناس من خلال الكلمات العرجاء التي كتبت فيها العرائض، الكلمات القلقة في أماكنها، والتعابير المستعارة المتداولة مثل قطع نقدية محيت من طول الاستعمال، والجمل المفككة التي لم يكن لها غير وظيفة الإشارات اللاسلكية المرسلة إلى الهلال الأحمر في ان كارثة توشك أن تقع أو وقعت بالفعل. كان عليه أن يكتب هذه الإشارات بلغة مقبولة، ويعرضها على الهلال الأحمر الذي هو الرأي العام ليحاول هذا انتزاع الاسعاف من أولئك الذين يملكون مفاتيح الخلاص – ولكن سعيداً، الآن في قضية حميد ونجاة، تجاوز حد الإشارات اللاسلكية، وصار أمام المأساة وجهاً لوجه، وعهدت إليه مهمة الهلال

الأحمر.. مهمة انتـزاع المفتـاح مـن شـخص يعرفـه.. صـديق له.. وهذا وجه الصعوبة.

كانت ورقة التحرير ما تـزال أمـام عينيـه، مثـل عريضـة أخرى مبهمة ليست له صلة وجدانية بها. قرأ فيها شيئاً عن الكبريت الأحمر، والسياسـيين الـذين يبـدون حكمـة وبصـيرة أنـدر مـن الكبريـت الأحمـر، ويتصـورون أنفسـهم أغنـى كنـز للحكمة. والشعب المبتلي بحكـام كالأحجـار، إذا عصـرتها لا تخرج منها قطرة مـاء، بلـه قطـرة حكمـة. ولـم تكـن لسـعيد رغبة في أن يقرأ كل ذلك، فكيف أن يصوغه بمقالـة؟ أحـس بأن هذه المعميات وحدها هي المسـؤولة عـن تلـك الحيـرة التي وقع فيها، وهو أمام مأسـاة حميـد ونجـاة. لأنهـا عودتـه على أن يجلس على الصعيد المكتبـي، ويهـاجم الحكومـات بمستمسكات عامة متداولة، ولكنها لم تعلمه الجـرأة علـى مواجهة حالة منفردة تخص فرداً واحداً. ألـم يعاتبـه الرجـل – ما اسمه؟ نسـي أن يسأله عـن اسـمه – بأنـه يسـتطيع أن يهز الحكومـات، ويخـاف أن يطـرق بـاب بيـت؟ يواجـه مأسـاة حية، وينفعل بها، ويسـاهم فـي إيجـاد حـل لهـا. تلـك هـي الصحافة – قـال سـعيد مـع نفسـه – حـالات عامـة شـاملة. والأديـب يهـتم بـالأفراد، بإنسـان واحـد، ومجموعـة أفـراد، بحالات منفـردة يتقصـاها، ويعـرف تفاصيلها ودقائقهـا، ويبـرز الشـيء المتميز فيها. فما أكثـر ابتعـاده عـن ذلـك؟ مـا أشـد فقره إلى الشجاعة "الأدبية، والمعرفـة، ومـادة الحيـاة. ومـع ذلك يريد أن يصير أديباً!

سمع ابراهيم يقول له:

_ يبدو أن موضوعك صعب – وكان يقصـد مقـال رئـيس التحرير بالطبع. – صعب، صـعب جـداً.. هـذه مسـألة حيـاة – ورأى في عيني ابراهيم دهشة متحيرة لم يستطع تحملها، فأطرق برأسه.

في ذلك المساء وصلا إلى بلقيس متأخرين قليلاً. كانت بلقيس، على عادتها، متخمة بالهاربين. رآهما الساقي فقال: عمي، جماعتكم هناك!". وسمع سعيد صوت شريف الغاضب، وهو على بعد خطوات منه. كان يحتج على شيء يبدو ماساً بالشرف. وكان حميد يضحك.

تقلص قلب سعيد، وبردت برودة في ظهره.

قال ابراهيم:

_ ماذا حدث؟ هل شك أحد في عبقريتك؟

أجاب حميد، وهو مسترسل في ضحكته التي بدت متكلفة.

_ إنه لا يعترف بي شاعراً.

_ وهل أصبحت تنظم الشعر؟

أجاب حميد بصوت عاطفي:

_ قلبي اكتوى فتفجر شعراً.

جلسا بعد أن وفق في العثور على كرسيين من موائد أخرى. قال حميد:

_ ابراهيم، أخوك مغرم.

كز سعيد على أسنانه، وتلفت باحثاً عن الساقي. قال ابراهيم باسماً:

_ لهذا أراك آخذاً بالسمنة.

_ لا، بالشرف. أنا أحب من كل قلبي، وكأنني مراهق.

_ ومن المحبوبة؟

_ موظفة عندنا في البنك.

صاح سعيد:

_ أين الحمار الساقي؟ جف حلقي.

قال ابراهيم مهتماً:

_ وهي؟ ألم تلاحظ؟

_ لا أعـرف. ولكنهـا قالــت لــي يــوم أمــس: عينــاك فضوليتان جداً، فما يعني هذا؟
تبرع شريف بالتفسير:
_ يعني أنك متطفـل. ألا تفهـم؟ متطفـل علـى الحـب والشعر.
قال سعيد في نفسه: شريف يستأهل قبلة.
وأصر حميد:
_ لا، إنها قرأت في كل عين حرفاً من كلمة "حب". أنا أعرف النساء، يظهرن عكس ما يخفين.
قال شريف بتراجع سخيف:
_ صحيح ذلك، ولكن...
جاء الساقي أخيراً، فطلب ابراهيم ربعية عرق، وطلب سعيد مثله. فقال ابراهيم محذراً:
_ أنا لا أتعهد بتوصيلك إلى البيت.
قال سعيد متحسراً:
_ لا تخف. عندي من الهم ما يمص كحول العالم كله.
قال شريف نائحاً:
_ وأنت أيضاً عاشق؟
_ لا، أتحمل وزر العشاق الآخرين؟
_ يكفيك أن تحمل أوزار نفسك.
سـكت سـعيد علـى مضض. وفكـر مـع نفسـه: ليـت حميداً يفهم ما عنيـت، ليتـه يريحنـي مـن التلميحـات، ليتـه يعرف لماذا لم أكلمه حتى الآن...
ولكنه كـان يتهـامس مـع ابـراهيم. وكـان وشوشـتهما مثل فقاعات صابون توش في أذني سعيد. تلفت في ضيق، وأحس بعزلة. لم يرد أن يتحـدث مـع شـريف الـذي لا يفـرق بـين الإهانـة والمـزاح، والـذي كـان يعـب الخمـرة بشـفتين ممطوطتين.

ارتفع صوت ابراهيم يفجر بعض الفقاعات في أذني سعيد:

_ إذن، لهذا السبب لا تريد أن تذهب إلى الديوانية.

_ لهذا السبب.

_ ماذا أقول لك؟ أنت أعرف.

فكر سعيد مع نفسه: هكذا ببساطة انطلت الكذبة على الآخرين؟ سأريه اليوم...

جاء الساقي بالعرق والمزة. وارتجفت يد سعيد وهي تصب الخمرة. هذه أول مرة يشرب فيها عرقاً. كانت كل مهرجاناته من قبل مع البيرة. والبيرة تترك في فمه طعماً صيفياً مشمساً، وتذكره بالقناطر الخيرية حيث شربها بأكواز فخارية ذات مرة مفترشاً مع زملائه الأرض، متيدماً بالذرة خبزاً وحباً. شربوا زبد البيرة الكثيف عميقاً حتى وصلوا إلى البيرة السائلة. وكانت في الأكواز رائحة طين. والآن يشم رائحة أخرى مصنوعة تذكره بعطار محلته حسين. رفعها إلى فمه، وشم رائحتها العطارية، وشعر بلذعها الحاد في آخر فمه وحنجرته، وأنفه.

سمع شريفاً يقول:

_ لماذا لم يأت عبد الخالق؟

أجاب حميد:

_ رأيته اليوم يحمل كتابه ذاهباً إلى غاردينيا.

قال شريف:

_ هذه خيانة.

فأكمل سعيد عفو الخاطر:

_ خيانة زوجية، تعالوا نشرب نخب الخيانة الزوجية.

وأحس أنه تسرع، وقال نكتة باردة كفخذ الدجاج الذي أكله شريف مع الفنانة. رفع كأسه قبل أن يرفعوا كؤوسهم، وشرب جرعة كبيرة كازاً على أسنانه حتى لا تخرج الخمرة من فمه ثانية. والتهم حفنة من الحمص. ثم رآهم يرفعون

كؤوسهم في غير انسجام، وكأنهم انقسموا فجأة إلى عوالم صغيرة تدور في أفلاك مختلفة. شعر سعيد بفعل الخمرة سريعاً في باطن قدميه حرارة خدرة واخزة، وأحسها تسري في جسده مثل دماء جديدة.

فحّ شريف وقال بصوت ممطوط:

_ الله! مرة أخرى أراه أمامي.

سأل حميد:

_ من؟

_ الضجر، تلك الأفعى السامة.

قال سعيد:

_ الضجر أخو الفراغ.

قال شريف:

_ الضجر من صفات العباقرة.

قال سعيد متضايقاً:

_ بدأت الخمرة تخلق عالماً كاذباً.

قال حميد وأمسك بيده معتبراً ما يقوله نكتة:

_ الكذب مفيد أحياناً.

قال سعيد بحدة ناظراً في وجه حميد:

_ الكذب مضر كالسم. حقراء أولئك الكذابون.

قال شريف:

_ سعيد عندما يسكر يصير شرساً.

قال حميد بهدوء:

_ الذين لا يكذبون لا يستطيعون أن يعيشوا.

استفز سعيد فقال بعناد:

_ والذين يكذبون يعيشون حياة حيوانية. حيوان من يكذب، ويتصور أن الناس لا تعرف أنه كاذب.

قال ابراهيم ببرود:

_ ولماذا أنت غضبان؟ هل أنت سادن العبقرية.

لابد أنه تصور المقصود في الجملة شريفاً. ومضى سعيد يقول:

_ لا، ولكنني أمقت الكذب.

_ ليسقط الكذب. اشرب واهدأ.

_ لا تدعه يشرب – قال شريف ذلك – سيفسد الجلسة.

ولكن سعيداً يشرب جرعة كبيرة عناداً. وأحس بطعم المستكي يغلف باطن فمه، وبالخمرة تسري في جسده، وكأنها لم تسقط في معدته، بل في أعصابه رأساً.

راقب مسراها بارتخاء. كانت تستل إرادته بخفة، وتضع مكانها إرادة أخرى. طافت في رأسه أفكار جديدة مثل نيازك صغيرة، كانت تمر في سماء نفسه بسرعة خاطفة ثم تختفي. خلقت الخمرة آلاف البوادر والأحلام بأشياء جديدة، ثم ماتت في الحال. طيوف لأشياء لذيذة تركضٍ في دروب شرايينه بسرعة لا يلحق بها عقله المتأتي المهوّم.

سعل ابراهيم إلى يمينه وقال:

_ نسيت شيئاً في الجريدة.

_ ما هو؟ - لا يعرف سعيد من سأل ذلك.

_ شيء شخصي أخاف أن يكنسه الفراش. سأذهب لأتلفن.

قال سعيد مخاطباً نفسه:

_ شيء شخصي معرض للكنس.

وحاول أن يستغل ذلك ليثير حميداً. ولكنه فشل في أن يجد المنفذ. كان يحس ببدايات غير موفقة تنهال على رأسه. كان يتردد متأرجحاً في فراغ الغيبوبة، يحاول أن يمسك بتلك البدايات الفالتة، الرجراجة كالزئبق. ولكنه وجد نفسه يفكر بنجاة، زوجة صديقه الجالس إلى يساره، الزوجة المهجورة التي يأتي زوجها كل يوم بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً، ويخرج منها قبل الثامنة صباحاً، الزوجة

التي تذبل، وتعيش في وحل الفقر والهجر والإذلال، زوجة المحب الواله الذي ينظم قصيدة في التغزل بأخرى، ولا يريد أن يذهب إلي الديوانية لأنه متيّم، الزوجة التي لا يعرف أي شيطان سوّل لها لترسل له رسالة، وتضعه في هذا الموضع العسير الذي لا يعرف كيف يخرج منه. كرع جرعة أخرى في يأس من أمره وكراهية وبدأت الأشياء تتضخم في خياله، وتكشف عن عدم احتمالها، وتزرع في نفسه النقمة اللاإرادية مثل فواق جاء غير مدعو، وصارت للأشياء ظلالها ومحمويتها، وتوهجها الأسود، وكأن دخاناً آخذ ينتشر في مآقيه، ويغلف كل المنظورات، ويجعل الليل ليلين.

طرأ على لسانه قول قاله كالنائح على نفسه:

_ مصلوب لا نجاة له.. أنا من المصلوبين.

قال شريف:

_ أنت من السكارى.

_ أنا ميبس على خشبتها.

وأشار إلى الكأس باصبعه. وفجأة لاح له الأمر حقيقياً. والدليل على ذلك نفسه. انه يحس بامتعاض مسموم لزج، وكأنه يسير في أرض مستنقعية رخوة تغوص فيها قدماه، وتلتف عليهما أعشاب كالأفاعي. وازدادت نقمته على نفسه، وأراد أن يفعل شيئاً ضدها. رفع كأسه وجرعها كلها تاركاً باطن كفه يحترق ويتقلص، ويتلوى. وكانوا ينظرون إليه صادقين. رأى وجوههم في ظلمة الليل والخمرة. وبدت ابتساماتهم مثل فتوق في كرات قدم مستهلكة. وكان الذي في محلة المصلوب ما يزال ناكراً بيته وأهله. وكان هذا يفيضه جداً. بدأ شريف يهذى عن فهمه للمرأة، وعلاقته بملهى الجواهري، والشوفرليت، والزنجيات، ثم سمعه بوضوح:

_ عندها جسم يخبل.

فتح عينيه، ورآه يرفع كأسه بكف بدت وكأنها لحمة مشوية، فأسرع سعيد يريد أن يرفع كأسه، فارتطمت يده بالزجاجة، وانقلبت. أسرع ابراهيم يرفعها قائلاً:

_ هذا شيء طيب فأنت لا تستطيع أن تتحمل الربع.

قال سعيد:

_ كنت أريد أن أشرب نخب عبقري كاذب له رأس حصان.

قال شريف:

_ أيها الفأر لا تتحرش بي.

_ أريد أن أتحرش بكل الكذابين الذين ينسون واقعهم. أنا حتفهم الج البيوت عليهم.

قال شريف:

_ متى شربت المصاصة لآخر مرة؟

_ قبل ستة وعشرين عاماً.

_ لو قلت قبل يوم لكان أصدق.

_ سيد عبقري يعجبني منك فراغك. من عنده مخيط لأفشه؟

قال ابراهيم ضاحكاً:

_ سعيد تعلم نكات المصريين.

قال حميد:

_ أنا لا أحب النكات المصرية.

_ المصريون أساتذتي في جسدهم وهزلهم – وشعر في داخله بحماس عاطفي – نكاتهم لها مغزى عميق. ولكن يبدو أنك لا تفهم، يا حميد. ربما أنت مصلوب على خشبتها أيضاً.. ليس سكان محلة المصلوب وحدهم مصلوبين، بل رواد الحانات أيضاً.

واستطاع أن يرفع بصره إلى وجه حميد، فرآه مزدحماً بأشياء كثيرة: أنف وعينين وشفتين وشارب حتى لا مجال لقراءة عاطفية فيه. وكانت في ذهن سعيد آلاف المشاريع

العجلى المبتورة. وأحسّ بنفسه مثل قواس يريد أن يرمي سهماً فيصيب مقتلا. كزّ على أسنانه، ووتر قوسه، وأراد أن يرمي شيئاً لم يكن مهياً في دماغه. ولكنه أحس بمعدته تتلوى وتنقلب. نهض محدثاً ضجة في المائدة. واتجه إلى أقصى القاعة، ودخل المغسلة وأفرغ ما في معدته. أفرغ كل شيء فيها، ولكنه ما يزال فيها شيء يثير غثيانه. حاول أن يخرجه منها، ولكنها أبت إلا جؤاراً. فذهب إلى المغسلة، وغسل وجهه بالماء البارد. ثم مسحه بمنديله، وشعر بقليل من الارتياح. وخرج من المغسلة، ورآه هناك.

يبدو أنه كان في انتظاره. رأى عينيه الواسعتين، وكان يبتسم ابتسامة لا ود فيها. سأل:

_ هل استرحت؟

_ قليلاً.

وأمسكه من يده بحركة قاسية، ودفع به يساراً إلى الحائط تحت الدرج. وقال في ضيق ظاهر:

_ لماذا تهذر اليوم، ولا أحد يفهمك؟

_ لم أهذر. أنا لا أحب الكذابين في الحقيقة. هل أنت تحبهم؟

_ وما دخل الكذب في الموضوع؟

_ كان أحدنا يكذب.

_ وما دخل محلة المصلوب؟

_ مجرد أنني عرفت أنك من سكانها، وأنك..

_ ماذا؟

_ شيء لا يناسب التغزل بأخرى، لا يناسب ادعاءك بأنك أعزب.

وخاف سعيد أن ينظر إلى وجه حميد. كان هو نفسه متوقعاً كل شيء. ولكن حميداً صمت صمتاً طويلاً جعل المسألة كلها باردة. وندم سعيد على انفعاله.

_ ومن أين عرفت؟ - سأل حميد ببرود.

_ كل حقيقة تعرف. لي أقارب قرب الجامع.
_ ولماذا هذه التلميحات السخيفة أمام الناس؟
_ لأنني متألم جداً.
_ متألم لأنني متزوج، وأنت لا تعرف؟ تفضل تزوج.
_ متألم لأن كل أهل المحلة يعرفون حالة زوجتك السيئة، تعيش هي وأولادها في فقر وإهمال. وأنت تسهر هنا حتى الساعة الثانية عشرة.
_ كفاية. لا تكن إنسانياً على حساب الآخرين.
_ أنا...
ولكن حميداً جره من يده، وقال له وكأنه يسحب طفلاً:
_ شش! لنذهب. إنهما ينتظراننا. إياك أن تفتح الموضوع.
وعندما عاد سأل ابراهيم:
_ هل فرغت؟
_ ليس كل شيء.
_ لا تشرب بعد.
_ سأشرب لأتخدر.
كان حميد ينظر عبر الشباك العادي إلى الشارع المبلط بمستطيلات ضوئية. ود سعيد لو يعرف ماذا يدور في ذهنه. كان الصمت يسمه. طلب كأس عرق، وانشغل بها يهيؤها ويشربها، ويغيب فيها. ولما عاد من رحلة مظلمة، لم يكن حميد موجوداً.
_ أين حميد؟
_ ذهب. إنها الساعة الثانية عشرة تقريباً. هل أنت سكران؟
_ لا، الكأس الأخيرة صحّتني.
_ هذا يحدث معي أيضاً. لنذهب الآن.

وعندما خلا سعيد إلى نفسه فكر بها. ماذا سيحدث لها اليوم؟ سيأتي سكران ويضربها. ومن أين تعرفين سعيداً؟ ويضربها في ظلمة الليل الكئيب، في البيت الموحش، وهي وحدها. لا أحد يحميها من ضربات كفه الغليظة. وسيهب الطفل مذعوراً ويبكي. أوه. ماذا أفعل الآن؟ أنا أتحمل جزءاً من مسؤولية ضربها.

وضعت العصا بيد حميد. ليتني أذهب إلى هناك. طاف بدروب مثل دروبها، موحشة، قليلة الضوء كثيرة القطط والقمامات. صار يتلفت وكأنما يطارده شبح.

الثاني

دخل إلى بيت عمه مثلما يدخل مؤمن إلى جامع. واجف القلب، ملتزم الوقار، شاعراً بشيء من الرهبة. ولما عبر المجاز، ورأى وجه أمه، أحس باطمئنان طفولي. كانت تقف وملء وجهها ابتسامة، وكأنها تقول: انتصرت أخيراً! ودخل حجرة الجلوس في خشوع منتظراً أن يخفف وجيب قلبه قبل أن يدخلن عليه. حاول أن يتلهى بالنظر في أرجاء الغرفة. كانت مستطيلة، فيها شباكان مطلان على زقاق، مبرقعان بستارتين حال لونهما. وكانت تبدو عارية. تذكر أنه عندما دخل الحجرة لأول مرة كان فيها بساط يمتد حتى تلك الأريكة التي جلس عليها صغيراً، وهو في الرمادي، ثم انتقلت إلى بيت عمه هدية. وكانت الحجرة حارة فيها أنفاس تصورها نسائية. إن لهذا البيت رجلاً واحداً أصغر منه تضيع أنفاسه بين أنفاس نسائه. سمع وشوشتين عبر الجدار في الغرفة المجاورة. وفكر مع نفسه: غريب.. ماذا يفعل الرجل في البيت، ولو أن هذا الرجل غير غريب. لابد من أنهن يتهيأن ليدخلن عليه. وهو نفسه قد أبدل قميصه وربطة عنقه، ولو كانت له بدلة أحسن للبسها أيضاً.

دخلت أمه وزوجة عمه، وجلستا إلى جانبه. قالت أمه:

_ جيت؟

قال "جئت" بصوت ضعيف جاف، وسعل ذلك السعال التبغي الذي يأتي دائماً وكأنه إنقاذ له. خاطبها في سره "جئت لأنني أردت أن آتي، فلا تحسبيني جئت صاغراً. المرء أحياناً يحتاج إلى أنفاس عائلته حين يحس بالوحدة". وقد أحس بها مساء البارحة عندما كان سعيد في نوبة من نوباته السوداوية..

"أنا لا أعتبر نفسـي أعـيش مـع عائلـة. طـوال حيـاتي أعيش فـي غرفـة خاليـة إلا مـن أنفاسـي، وسـتظل المـرأة عندي جسـداً يؤجر، وقلباً لا يعترف بوجودي.." وأشعرته تلـك النوبة بالوحشـة، وبثقـل الثلاثـين، وقـرر أن يـذهب، لاسـيما وأن أباه وأمه كفّا عن الإلحاح عليه.

دخلن وسلمن ما بين الهمس والإشـارة. ثـلاث فتيـات كبراهن مخطوبة له. وتناثرن على المقاعد قبالته، مثل طيور ملونة. ثلاث قلوب نسائية تعترب بوجوده حتماً. رأى ذلك من نظـراتهن، ومـن زينـتهن، وثيـابهن الملونـة. راح يفـرك راحتـه اليسرى بإبهام يمناه ويقول بصوت غير صاف:

_ كيف الصحة؟

لمجـرد أن يقـول شـيئاً، ويقـدح زنـاد الحـديث. أجـبن بصوت واحد. وهمسـت الصغرى بشـيء لخطيبتـه، فرفعـت هذه صوتها قليلاً، ولكنه لم يسمعها. قالت زوجة عمـه إلـى جانبه:

_ جاءت.. ألم تريها؟

قالت الصغرى بلهفة:

_ أين؟

_ في غرفتك.

وركضـت عليـاء صـغيرة، ورف ثوبهـا البنـي. وضـحكت الخطيبة ضحكة عذبة، وقالت:

_ كالمجنونة.

_ ليش؟

والتقت عيناه بعينيها المستديرتين الحـزينتين. أجابـت زوجة العم:

_ إذا لم تقرأ الجريدة في الصباح قبـل أن تـذهب إلـى المدرسة كانت وكأنها تخرج إلى المدرسة بلا فطـور. واليـوم تأخر وصول الجريدة حتـى العاشـرة. وفكـر مـع نفسـه: إنهـا

تذكرت الجريدة بحضوري. أنا ذكرتها بالجريدة. يعني أنا والجريدة شيء واحد عندها. أهذا أحسن أم سيء.

_ هذا شيء لطيف، ولو كانت هذه جريدتنا. ألا تحب آمنة قراءة الجريدة هكذا؟

آمنة خطيبته. ردت:

_ أريد، ولكن ليس بهذا الشكل.

قال ابراهيم:

_ الإرادة يجب أن تكون قوية.

ونظر إليها عمداً، وبجرأة استغرب هو نفسه منها. دخلت علياء والجريدة في يدها. ولما جلست سألها:

_ هل "الناس" تعجبك؟

هزّت رأسها بالإيجاب. ثم استدركت:

_ شيء واحد لا يعجبني منها.

_ ما هو؟

نظرت إلى أختيها قبل أن تجيب:

_ كثرة العرائض.

ضحك ابراهيم وقال:

_ نحن نخصص لها عمودين فقط.

_ غير مشوقة.

_ القراء يقرؤونها بعد الافتتاحية.

قالت الخطيبة تؤيده:

_ إذا لم ينشروها فأين يرفع الناس شكاواهم؟

ولكن علياء أصرت، وبعث إصرارها في الجلسة حياة. شمّرت بيدها متحمسة، واضعة الجريدة في حضنها، ولمعت عيناها الشهلاوان. وقال ابراهيم في سره: ليت سعيداً يرى أي شفتين رقيقتين تتحدثان عما صنعت يده. ولو قلت له فسيفرح حتماً.

صدر نداء من مدخل البيت، وصوت نسائي قبيح، فنهضت زوجة العم، وغادرت الغرفة. وخرت أم ابراهيم أيضاً.

وبعد خروجها ساد صمت فاتر. أطبقت آمنة ذراعيها على صدرها، وصمتت، واكتسى وجهها رصانة محببة تعجبه منها، مع ابتسامة طفولية خفيفة. كان يستهويه فيها هذا الهدوء الأموي، هذا الفم المضموم المحروس بأنف يميل إلى الطول، والعينان السوداوان الحزينتان، وكأنما تدركان أن القلب ليس دائماً الطرف الوحيد في عقد الزواج. فهل تعرف تلك الأيدي التي تدفعهما إلى اللقاء مستعجلة؟ وهل هي مثله تريد أن تسير بحركة داخلية، لا بدافع خارجي؟

قالت علياء بعد أن فرغت من تقليب الجريدة:

_ على أية حال، ليست جريدتكم لكل الناس.

_ لأي طبقة إذن؟ - سألها ابراهيم منتظراً أن تحرج.

_ لنصف المجتمع.

قالت بحتمية صارمة، وفتح ابراهيم عينيه وفمه. كانت تبدو رصينة وكأنها تؤدي امتحاناً في الاجتماعات.

_ إذا كنت تقصدين عدد المتعلمين فهي والجرائد الأخرى لأقل من عشر المجتمع.

_ لا، أقصد المرأة. المرأة نصف المجتمع فأين ركن المرأة فيها؟

ضحكت آمنة ولمع بياض عينيها، وهي تنظر إلى أختها من طرف عينيها وقالت:

_ ستكون علياء باحثة اجتماعية.

قال ابراهيم:

_ أعترف لك أننا لم نفكر بذلك.

قالت علياء:

_ المرأة دائماً لا يفكر بها أحد.

_ أتظنين ذلك؟ سألها بخفوت، ولعله خجل هو أكثر منها.

_ نعم.

قالت متأججة. ثم أضافت:

_ المرأة العراقية مظلومة وبلا صوت.
قال ابراهيم:
_ والرجل العراقي أيضاً. أتحسبينه يملك صوته دائماً؟
_ أهون على أية حال.
وأدرك أنه غير قادر على إقناعها. ربما هي تشعر بوحدتها أكثر. قال يشجعها:
_ هل تقبلين بتحرير باب المرأة في جريدتنا؟
_ أقبل بكل تأكيد.
أجابت بلهفة فاعترضت الخطيبة.
_ إنها لا تعرف الإملاء.
_ سأصلح كتاباتها. المهم أن تعرف عمّ تكتب.
_ لا تصدقها – قالت علياء – درجاتي بالقواعد عالية دائماً. وفي رأسي أفكار كثيرة. أعطني مجالاً وسترى ماذا أفعل. المرأة تحتاج إلى صوت.
قال ابراهيم بلهجة صميمية:
_ الرجل يفتقر إليه بعض الأحيان. لا تتصوري كل الرجال لهم أصواتهم. هناك من يسلبه منهم. ولطيف من الرجل والمرأة أن يصرا على أن يكون لهما صوت، أن يمتلكا حياتهما ومستقبلهما، وينظرا بعيونهما إلى الأشياء. وفي كثير من الأحيان يحتاج الرجل والمرأة إلى أن يقوما بعملية مشتركة ضد سالبي الأصوات، أو ضد الأصوات القديمة. وهذا يحتاج إلى شجاعة. والشجاعة سجية نبيلة في الرجل أو في المرأة.
وقطع عليه دخول زوجة عمه تدفق أفكاره. دخلت وتحدثت رأساً:
_ هذه مظلومة الساكنة في بيتنا. تريد تأخير الإيجار مرة أخرى، تقول زوجها مريض. وكأننا نستطيع أن نستغني عن الفلوس.

ودخلن في محادثة جانبية أمامه كان على سطحها كالقشة. وعندما عاد الصمت من جديد كان الحماس الذي تحدث به حديثاً صميمياً قد فتر. فانجذب معهن إلى أحاديث لقضاء الوقت.

الأول

استيقظ سعيد في وقت مبكر من الصباح، وبشكل مفاجئ، وكأنه وخز بمخرز. وفي الحال شعر بالصداع الخبيث يطوق رأسه، ويجوف عينه. كان جسده ثقيلاً على الفراش، وكأن خمرة البارحة تحولت في دمه إلى مادة صلبة. تقلب على فراشه ضيقاً. ثم أحس بخواء معدته، وكأنها قد بقرت، وامتلأت بالهواء. رفع رأسه لمجرد أن يثبت لنفسه أنه حي. أحال بصره في الغرفة الصغيرة نصف المظلمة الشبيهة بزنزانة بقضبان نافذتها القاتمة التي تغربل ضوء الليوان، وترسله شاحباً رمادياً حتى في هذه الساعة من الصباح. وشعر بأنه حي كأي جرذ من جرذانها الوقحة، كأية خنفساء مترِبة تدب في أرجائها. ولكي ينطق مرتفعاً عنها مرتبة ودّ لو تدخل أمه ويتحدث إليها. كان مشوقاً إليها في صباح الخمرة الحزين، المقرب وراء الشباك، ولكنها لا تدخل. جلس على سريره، واهتز العرق الذي يطوق صدغيه كسلك محمى. ورأى القاموس العصري، والترجمة الإنكليزية لمدام بوفاري، ودفتر الكلمات الصغير موضوعة على مقعد قديم كانت توضع عليه جرار الماء في السطح. وبغتة سمع صوت أمه من الجانب الآخر: "بيبية ما تجوز إلا تشعل نفسها بالنفط" فكان صوتها مثل نغمة ماء على رقعة جلد سمط بماء حار. حنّ إليها وناداها بذلك النداء المستغيث النابع من الطفولة "يمه.. يوم!" عدة مرات حتى فتح الباب، ودخل غبار ضوئي، ودفؤها، وصوتها الحنون.

_ سعيد، صحت عليّ؟

_ إي، تعالي هنا.

جلست على سريره.

_ اش بيك؟

_ رأسي يوجعني.
تأوهت، ومست جبينه بكفها العريضة الباردة، وقالت:
_ رأسك حار. ليش عيني؟
_ ما أدري. البارحة شربت.
قالت متفجعة:
_ ستشرب؟ عرق؟
صمت، ولعلها عرفت ماذا يعني صمته، إذ قالت:
_ ليش ابني تقتل نفسك؟
وولدت بجملتها نقمة على نفسه، وعليها، وعلى العالم كله. خامره نفس الإحساس الذي كان يخامره وهو طفل، أن يعذبها، ومن خلال عذابها يتعذب هو عذابها وعذابه. قال:
_ متضايق. أية حياة هذه؟
_ ليش، عيني، شيعوزك؟
_ أوف، يمه!
وتهرب مما يعوزه.
_ ماشاء الله انت بالجريدة و...
_ جدار ما له أساس.
_ وعندك شهادة.
_ والشهادة الأخرى الأهم..
وساد صمت امتلأ فيه قلب سعيد بالمرارة. الآن انتقل الألم إلى نفسه. وكانت هي أكثر تفاؤلاً:
_ ابق بلا شغل، والله كريم.
_ وهل سيقدر أبي المريض بعرق النسا على إعالة البيت؟
_ يقدر.. البارحة شافه طبيب، ووعده بشهرين يشفيه من عرق النسا. وعندك أخوك مختار.
_ ما يزال صغيراً.
_ أوه، لو تشوفه وهو واقف أمام المراية بطوله.

وأراد أن يقول لها: وهل أنا من الضعة لآكل لقمة مقتطعة من عافية أبي؟ ولكنه فضل الصمت. فقد رأى جفنيها برقان، وتلك علامة على قرب بكائها. ثم انّى لها أن تفهم همومه الأخرى. همومه الثقافية مثلاً وهي التي جاءت ذات يوم فرأته ينظر في قاموس إنكليزي فبكت. ولما سألها عن السبب قالت "أويلي عليك.. هذا الكتاب الجبير اشلون راح تحفظه؟". وكان سعيد يعرف أنها على عداوة مستحكمة مع الكتاب والقلم. والكتاب عندها لا يستأهل نور العين، ولا السهر إلى ساعة متأخرة. فقط ارتبط الكتاب في ذهنها بالشر منذ أن اعتقل في عهد نوري الدين محمود، وأودع معسكر أبي غريب.

حادثة مازالت طرية في ذاكرته. اقتحموا الباب في وضع النهار وقالوا "أين سعيد؟" وكان على رأس الحملة أحد زملائه في مدرسة الرصافة. ولم يكن سعيد موجوداً، فذكر أنه سيعود مساء، ولكنه عاد في الثالثة ليلاً. وكان سعيد متهيئاً، إلا أن أمه أصرت على أن تذهب هي أولاً. وكانت قد هيأت له في السر فراشاً ومخدة وبطانية. وحملتها بخفة إلى المجاز. فصاحوا بها "أنت مجنونة، تحسبين المعتقل فندقاً؟" وكان آخر ما رأى سعيد منها أنها كانت تبكي.

وهي تبكي الآن أيضاً. رأى دموعها تلمع في ضوء الغرفة الشاحب، وتشنج داخله. ويرد شعور النقمة في نفسه. فراح يهدّئها:

_ اسكتي، ربما لا يحدث شيء؟

نشقت من أنفها، وقالت:

_ البارحة – ثم نشيج.

_ ماذا؟

_ البارحة جاءت أم طالب عليك تريد أن تحكي لك عن ابنها. أنت تعرف وين هو؟

كان طالب ابن مدرسته أيضاً، إلا أنه اختار طريقاً آخر. وهو الآن في الصحراء. قبل سعيد أمه من وجنتها المبلل ماسحاً الدمع بشفتيه وأطراف أصابعه. وجعل يسريها. لن يحدث شيء. وسيكون دائماً معها. وخرجا إلى الليوان معاً وقال سعيد الجملة التي تسرها لأنها تصور ارتباطه بها "هل حضرت الطعام؟" كان يقولها بالفصحى المفهومة حتى يضحكها. وابتسمت مسرورة.

إلا أن سعيد لم يسر سرورها. تذكر أن عليه الذهاب إلى نجاة ليأخذ ابنتها إلى الطبيب.

فكر وهو يستقبل شارع الرشيد هل يذهب إليها رأساً، أم يتأكد من خروج حميد من البيت. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة. ودخل إلى المقهى البرازيلية، وتلفن من هناك إلى البنك. ولما رفع حميد الساعة، وقال "نعم" المعتادة أعاد سعيد السماعة. إلا أنه شعر في الحال بتوهج محموم في رأسه، وكأنه ارتكب خيانة، غادر المقهى عجولاً وكأنما يهرب من باب طرقه خطأ. وعاتب نفسه وهو يسير سير العجول المطارد: من العار عليك من العار. وكأنك ذاهب إلى موعد غرامي، وتريد أن تتأكد من أن الزوج خارج البيت. يجب أن تتلفن له، وتعتذر، وتحتج بأي عذر.

ودخل مخبز بيكاديللي ليتلفن إلى حميد. ولكنه نظر إلى التلفون في ضيق. وأيقن أنه سيرتبك ولا يكون طبيعياً إذا تلفن. جلس إلى طاولة، وطلب قهوة. وكان الصداع ما يزال يطوق رأسه. وكانت رائحة القهوة منعشة. راح يشربها ببطء لاذعاً لسانه بحرارتها، متلذذاً بمضغ حبيباتها الصغيرة. جعل سعيد يفكر بصديق صباه طالب. آخر مرة رآه فيها كانت قبل ثمانية أعوام. وهو يتخيله الآن بالصورة القديمة، فتى طويلاً نحيلاً شبيهاً بالممثل الأمريكي غريغوري بيك. كان سعيد يغبطه على فراهته، وحبه الشديد لقراءة الكتب، وجمعها. وكان بعض الأحيان يسلك طريقاً "حراماً" في

شرائها، إذ يختلس من أبيه درهمين أو ثلاثة، ويؤمنها عند سعيد ليذهب إلى سوق السراي عصراً، ويشتري كتاباً يبدأ بقراءته وهو عائد عبر سوق التجار فشارع المنتصر متعثراً بالناس، غير خائف من السيارات.

وكان طالب يجيد اللغة نحوها وصرفها والكثير من مفرداتها العويصة، ويجد متعة كبيرة في قراءة ذي الرمة، والكميت الأسدي. ولكنه لم يحاول أن يقلد نثر الزيات أو يحاكي خيالات خليل جبران، كما كان يفعل بعض زملائه. كان زاهداً في كل شيء حتى نيل الشهادة المدرسية مستشهداً بالعقاد. كان يجري في طريق خطتها له قراءة الكتب. فهل خطت له الطريق الذي سلكه وألقاه في الصحراء.

كان مخبز بيكاديللي حاراً وهواؤه مشبعاً برائحة خبز يخبز، رائحة بيتية حلوة. وكانت صاحبة المخبز، وهي ممتلئة الجسم قليلاً، تقدم الكيك بأناقة بين كماشتين خشبيتين، وبابتسامة حلوة من فمها الصغير. وكان المعرض الزجاجي المضاء بمصباح أنيقاً لامعاً مزيناً بألوان القشدة المفروشة على الكيك. وإلى يساره مزهرية زرقاء فيها نبات شد بخيوط إلى العمود الخشبي الممتد إلى السقف. وكل ذلك يريح الأعصاب، ويجعل الدنيا أجمل، وأغلى من أن تُقضى في سجن، أو تُعاش على انفراد في غرفة لا يشاركك أحد في سريرها.

دفع سعيد الحساب وخرج. واستنشق هواء فيه دفء أوائل آذار. وانعطف إلى شارع الملك فيصل حيث قابلته شمس ساطعة انعكست على نظارته مثل نصل ذهبي، فاستجار منها إلى الجانب الآخر من الشارع. ثم عاد فعبره مرة أخرى في نهايته. ودخل في أحبولة الأزقة، ورأى النجار في أقصى الدكان، وأعلنت المصبغة عن نفسها برائحة نيل باردة. وعند الباب لم يدر أيطرق الباب، أم يناديها باسمها.

ثم فعل الشيئين معاً بيد رخوة، وصوت متهدج. وبعد لحظات دمدمت أقدام. وكانت أمامه.

_ مرحبا.

وهزت رأسها. يبدو أنها قالت "أهلاً وسهلاً". كانت ترتدي عباءتها ولم تكن تحمل الطفل، فرأى سعيد في إطار العباءة والشعر الأسود ووجهها الشاحب الخالي من الدم، ورقبتها الطويلة، وذلك المثلث الصاعد الهابط الذي يكشفه الثوب الأخضر من صدرها. قال سعيد:

_ جئت على الطفلة لآخذها إلى الطبيب.

_ تفضل. هناء ممددة على فراشها.

أجلسته على كرسي قديم غير الذي أجلسته عليه في المرة الماضية. وقالت:

_ ستّار وعد أن يجي في الساعة 13.. الساعة بيش؟

_ 11 إلا عشرة.

_ بعد شويه، تشرب عيني جاي؟

_ أشكرك، شربت الآن قهوة. راح حميد للشغل؟

_ طلع من الصبح.

_ وهل يأتي بعد الدوام؟

_ أبداً، أبداً لنص الليل.

قال لها بلهجة أخرى:

_ تكلمت معه البارحة.

_ إيه – قالتها ببساطة فبدت قريبة إليه – أي عيني.

_ قلت له من العيب أن تترك زوجتك وحيدة من العيب..

وكتم تتمة الجملة. كانت نجاة تنظر إليه بعينين واسعتين. ولما رأت تردده قالت:

_ عيني، وبعد؟

_ حادثته طويلاً. ذكرته بواجباته على بيته، وكلمته عن الطفلة. كان متأثراً جداً. ربما هذه أول مرة يجابه فيها بهذا الكلام. هل عاد متأثراً؟

قالت بلهجة فاترة، وكأنما خاب ظنها:

_ ما أدري. البارحة لازم كان سكران كلش حتى عثر بالماء، وراح يشتم. وانهبد على فراشه، ونام إلى الصبح، وطلع.

_ يعني متأثر.

ولم تجب. أحس بأنها تشك في كلامه، أو أنها كانت تتوقع نتيجة أخرى. قال:

_ سأكلمه مرة أخرى.

قالت:

_ وما فايدة الكلام مع إنسان لا يحب غير العرق؟

_ كيف لا فائدة؟

خفضت صوتها وعمقته حين قالت:

_ غسلت أيدي منه من زمان!

سكت سعيد خجولاً متذمراً من نفسه. ماذا تريده أن يفعل؟ يخلق حميداً من جديد؟ لو استطاع لخلق نفسه، وترك بلقيس. ليتها تعرف كيف عامله يوم أمس كالطفل، وكم تعذب البارحة من ذلك.

نظر سعيد في ساعته، وتململ، وقال غير منزل معصمه:

_ هناك ساعة من الوقت أستطيع أن أذهب فيها إلى الجريدة لأقضي بعض الأشغال. يمكن أن أنتظركم في باب المعظم قرب المكتبة العامة.

وشرح لها موقع المقهى بالتفصيل وانصرف.

بعد ساعة رآهم ينزلون من الباص، فغادر المقهى للقائهم. كان ستّار يقود طفلة تسير وكأنها تتلمس مواضع أقدامها، وبدت في ضوء الشمس شمسية هزيلة الرقبة،

كبيرة الرأس. ولما اقترب منها رأى عينيها الجزعتين وفمها الكبير المتفرج قليلاً، وكأنما عن امتعاض. كانت كل ملامحها قاسية سوداوية مرعوبة.

ساروا إلى المستشفى صامتين. وكان لسعيد طبيب صديق في المستشفى أخذ إليه جدته ذات مرة فقال "هذا مرض الشيخوخة الذي لا ينفع معه إلا الانتظار حتى تحل الساعة" وانتظرت الجدة حتى حلت ساعتها في المستشفى. فماذا سيقول الآن.. هذا مرض الطفولة؟"

دخلوا الردهة بمشقة. وكانت الطفلة لا تريد أن تفارق أمها، مما عقّد الموقف. ثم جاء الطبيب وأدخلهم إلى غرفته. ونظر إلى الطفلة بإمعان ودراية، وكأنما يقرأ ما كتب المرض على وجهها. أمسك يدها وسأل أمها: ماذا تشكو، فأجابت:

_ خفقان قلب وتعب. النهار كله مطروحة على الفراش.. إذا مشت خطوتين تعبت.

بدأ الطبيب يفحصها بالسماعة. ونظر في عينيها، وفي ضوء مصباحه رأى سعيد اربداد بياض عينيها، وخشونة نظراتها. كانت لا تشبه حميد المعافى إلا بارتفاع وجنتيها، وتفلطح أنفها قليلاً. سأل الطبيب:

_ هل هي على هذه الحال من زمان؟

_ سنة، والله يعلم.

_ ومتى صارت قدماها منتفختين؟

بعد أن أتم الطبيب فحص الطفلة، وأخرجها مع أمها وستار نظر سعيد إلى الطبيب مستفسراً، فقال هذا:

_ يبدو أنه روماتيزم القلب.

_ روماتيزم القلب في طفلة؟

_ نعم، يا سيدي، هذا يحدث ولاسيما بين أطفال من وسط معين. أهذا الرجل أبوها؟

_ لا.

كان ستار يحادث نجاة في الخارج. كتب الطبيب وصفة، ونادى أمها، وحدثها مع ستار عن ضرورة العناية بالطفلة. وعند الباب همس الطبيب في أذن سعيد:

_ أنت تكتب عن مستشفى العزل. تعال هنا وسترى أشياء لا تختلف كثيراً.

قال سعيد متخلصاً:

_ سآتي يوماً ما.

في باب المعظم أركب ستّار الطفلة وأمها قائلاً أنه يريد أن يتحدث مع سعيد قليلاً. وكان سعيد جزعاً مملوءاً بروائح المستشفى التي يكرهها. وكان ستار يتصرف وكأن سعيداً ملك له. لم يسأله حتى عما إذا كان لا يجد اعتراضاً في قضاء وقت آخر معه.

جلسا في المقهى الذي انتظرهم فيه سعيد. بدأ ستار الحديث بقوله:

_ سمعت من حليمة أنك كلمت حميداً.

_ أية حليمة؟

_ زوجة حميد.

_ حليمة أم نجاة؟

ابتسم ستار وقال:

_ لم نراسلك باسمها الحقيقي خوفاً من أن تضيع رسالتنا من غير فائدة. الآن أصبحت من العائلة.

_ شكراً، نعم، حدثته.

_ وماذا قال؟

حدثه سعيد بصدق. وتمنى أن يعدل حميد موقفه. هزّ ستار رأسه وقال:

_ لن يعدله.

_ وأنت أيضاً تعتقد ذلك؟

_ نعم. هو إنسان سيء لا ترجى منه فائدة.

تألم سعيد. كان موقناً مـن أن حميـد لـن يغيـر موقفـه حقاً. إذا كان قد اعتاد هذه الحياة سنوات طوالاً فمن الصعب أو المستحيل صرفه عنها. ولكنهـا مشـكلة عويصـة وموجعـة ولا يريد أن يوغل فيها أكثر فقال:

_ ربما. ولكن ماذا تريدني أن أفعـل؟ حاولـت أن أحـرك ضميره.

_ وإذا كان بلا ضمير؟

_ ماذا تريدني أن أفعل؟ أعاد سعيد الجملة في قنـوط تام، وكان يريد تحيير ستار أيضاً.

وضـع سـتار قـدح الشـاي علـى الحصـير إلـى جانبـه، ومسح شاربه بجانب كفه، وقال بصرامة:

_ إذا كان لا يريدها، ويعتبر نفسه مثقفاً، وهي جاهلة فليتركها.

_ كيف يتركها؟

_ يطلقها.

ذهل سعيد. كان هذا الحل أبعد ما يكون عن ذهنه.

_ وهل هذا حل للمشكلة؟

_ وأي حــل تقترحــه إذا كــان مــن المســتحيل تغييــر سلوكه؟

_ وأولادها؟

_ ستأخذ نفقة، وتعيش أهدأ بالاً.

ضاق سعيد بستار وما يريده فقال كاظماً غيظه:

_ أنت تضع علـى عـاتقي قضـية صـعبة أخشـى أن لا أقدر عليها. صحيح أن حميداً صـديقي، ولكـن هنـاك أمـوراً لا يتحدث بها الأصدقاء. كيف أقول له: طلق زوجتك؟

_ ولكـن ألا يؤلمـك مـا رأيتـه بعينـك؟ الطفلـة مريضـة، وهي وحدها مع طفلها الرضيع. والأفنـدي يـأتي آخـر الليـل، ويطلع من الصبح. أهذه حياة يا أستاذ، وأنـت تفهـم، وتكتـب في الصحف عن ظلم الناس والحكام.

جمع سعيد بقية صبره وقال كطريقة للخلاص.

_ دعنـي أفكـر. الحقيقـة أنـك فاجـأتني.. ثـم مـا رأي نجاة، أقصد حليمة في الموضوع؟

_ رأيها نفس رأيي. هـي لا تحبـه. وكيـف تحـب امـرأة رجلاً سكيراً عذبها طوال حياتها؟ كيف تحبه وهي لا تـراه إلا سكران. قل لي من فضلك. أنت تفهم؟

_ دعني أفكر. – ونظر سعيد إلى ساعته. – حان وقت الذهاب إلى الجريدة.

الثالث

لم يعد يتحمل فصرخ:

_ أتريد الحقيقة؟ الحارس لفق هذه الحكاية، لأنني جئت البارحة بعد الساعة الواحدة، ولم أعطه درهماً.

سأل ابراهيم:

_ وهل يأخذ منك درهماً للمبيت؟

قال:

_ لا، ولكن اتفقنا على أن أدفع له درهماً كلما تأخرت بعد الثانية عشرة. ولكن البارحة لم يكن في جيبي غير عشرة فلوس – وطفت عليه موجة عارمة من الخنق – والآن قاربت الساعة الثانية عشرة، ولم آكل لقمة. هات درهماً!

ضحك ابراهيم ضحكة عظيمة كجبينه. ولو تأخر في مد يده في جيبه لقال شريف رأيه فيه بصراحة. تناول شريف الدرهم نادماً على أنه لم يطلب درهمين. ولكنه لم يرد أن يفوه بكلمة. كان مشمئزاً من العالم كله. لا بأس. سيذهب إلى الصعلوك حميد بعد الظهر، ويستدين ربع دينار. وهمّ شريف بالانصراف. إلا أن الحارس دخل قميئاً متكدراً قذر اللحية، مقلوب الوجه.. صورة مجسمة للشؤم، وفتح الموضوع بسماجة. فصرخ شريف في وجهه:

_ هل رأيتني بعينك؟

_ لم أرك، ولكن الجارة تقول.

_ ماذا تقول؟

_ تنظر إليها من وراء الطوفة. وهي متزوجة ولها طفلان.

_ أنت مخرف يا محمود. خذ درهمك، وأغلق فمك، ولا تتفوه بالأكاذيب. بودي أن أترك البيت في سطح الجريدة، ولكنني قضيت الشتاء بزمهريره حالماً بالنوم في السطح

صيفاً، وعندما يكون الصيف على الأبواب أغادره. أوه! سآخذ بطانيتي ومخدتي وأغادر الجريدة.. لا أريد.. خذ درهمك!

وقدّم له درهم ابراهيم. إلا أن الحارس دفع يده، وقال:

_ ليست الجريدة ملكي حتى تزعل. أنا حارس!

_ ولكن لماذا تكذب؟

_ لا أكذب.

_ ولماذا تنقل أكاذيب الناس؟ لست مجبراً على أن أقدم لك تقريراً عن أعمالي. ولكنني أقول لك إنني لم أفعل ما تقوله. وسأقول ذلك لصاحب الجريدة أيضاً، وأنا مستعد أن أواجه زوج المرأة.

_ زوجها متوفى.

وفتر غيظ شريف لسبب غريب. وفي الطريق فكر بسلوك النساء الخبيث قائلاً لهن في سره: يا نساء الأرض. اكففن عني، بدأت أحب امرأة واحدة جمعت أجمل صفاتكن. وكان خاوي المعدة، متوتر الأعصاب. دخل سوق الهرج عند قهوة البلدية مؤملاً أن يتناول "فشافيش" عند جلوب. إلا أنه لم ير جلوبا في مكانه، والستون فلساً لا تكفي لماعون كباب، وقدح شاي عند حسن العجمي. فقرر الذهاب إلى باب المعظم. فهناك بائع فشافيش ممتاز يتساهل بالطرشى على نحو مثالي. وبالقرب منه بائع شاي يمكنك أن تجلس على تنكاته مرتاحاً. جرّ شريف جسمه التعب. إنه في بعض الأحيان يحس به ثقيلاً زائداً عن الحاجة، هذا الكرش الممتلئ بفضلات ثمانية وعشرين عاماً من الأطعمة الرخيصة. وقبل أن تعبر الشارع عند قاعة الملك فيصل رآها عند محطة الباص.

ارتخت مفاصله وكأنه سيصاب بالشلل في اللحظة الثانية. وشعر بتوهج أحمق في وجهه. ومن حسن الحظ أن تيار السيارات أعاقه عن العبور، فوقف يلتقط أنفاسه وصفا عقله قليلاً. أدرك أن الستين فلساً قد ضاعت، فقال

لنفسه: يا لهذا الضعف الخرائي إزاء النساء! صعدت حبيبته الباص فصعد، وجلست فجلس على بعد مقعد وراءها. إن عينيه تتأذيان من وهج الشمس فكيف يجلس بالقرب منها. كانت العباءة وحدها سوداء مثل ثوب شحاذ تتخفى فيه ملكة حسن. ولولا شمعدان يدها المتوهج الذي يعبث في ليل شعرها الحندسي لظن أنه عمِي في لحظة سوء. تأمل الشمعدان ذا الشناديخ الخمسة الطرية المنتهية بأحمر اللهب. وقال لنفسه: لو مستني هذه الأصابع لأثارت اللهب في كل مامات من جوارحي، وكل ما تبلد من حواسي. وأخذ يحلم بلمساتها على جسده المتفطر كأرض عطشى. وقطع حلمه وصول الباص إلى ساحة الأمين. نزلت فنزل، وركبت فركب، وقعدت فقعد على بعد مقعد وراءها. وكان الوجه الأبيض قد استدار نحوه فقال في سره "إنما دائماً لا تثق بي. دائماً تنظر هل أنا في أثرها أم لا. يا حبيبتي، أيتها الخنفساء البيضاء من الداخل، أنا مشدود إليك بحبل غير مرئي، فيالنخاسة الحب!" وبعد أن دفع الأربعة عشر فلساً وخزته معدته، وكأن القطعتين المعدنيتين سقطتا على قرحتها فتوجع. وعبر أحد المغفلين الشارع عند حسون اخوان وفرملت السيارة، وأحس بارتجاجها يتلاشى في معدته. واعتراه غثيان. تذكر أنه جائع. ولكن ما العمل أمام جبروت القلب. ظلت معدته تعوي. ظهر شمعدان يدها من جديد فعصرته معدته عصراً شديداً، وكأنها كلبة لُوّحت لها بعظمة دسمة عليها قطعة لحم هشة، والعظمة مملوءة نخاعاً. وتذكر كيف أكل ذات مرة ثريداً في اللبن الخائر واللحم في أحد بساتين ويلتاوه صيفاً. وكان هناك ثوم كاللوز، وقطع لحم زلقة، تملأ الكف، وثريد مدهون ومروّب ولذيذ كلحم القوزي. وبعد الأكل شعر بجسمه ثقيلاً على الأرض.. ثقيلاً.. ثقيلاً.. ثقيلاً كالحجارة. وطاف النعاس في عينيه، نعاس شهي كخدر الجرعة الأول

من خمرة السكك. وفجأة رأى الحبيبة واقفة عند باب الباص تهم بالخروج. وتنزل. جر شريف جسمه الثقيل بين الكرسيين مسرعاً، وتخبط وراءها كالأعمى. يا غزالة إلى أين ذاهبة؟ سأطاردك حتماً! وأحس بأنه يطير في الهواء، ويسقط في خواء عميق. تلقى الأرض الصلبة بركبتيه ومرفقيه، فقدحت ناراً. وشعر بملوحة التراب على شفته، وأصوات. رفع بصره فرأى الجابي بالقرب منه، والحبيبة على بعد خطوات. حين رأته ينظر إليها أدارت له ليل عباءتها. وانصرفت. تعاون الجابي وشخص آخر على إنهاضه. شعر بألم حاد في إحدى ركبتيه، ولهب لاذع في مرفقه. سار يعرج عبر الرصيف. بعد دقائق من الذهول وجد نفسه جالساً على مصطبة مسربلاً بالتراب، لزج الركبة دبق المرفق. حاول أن يمدد ساقه اليمنى فرآها متخشبة. كانت بعض العيون مصوبة إليه. في بعضها رثاء، وفي البعض الآخر اشمئزاز. وحاول أن يتذكر ماذا كان في عيني حبيبته، وهي تطل عليه منكباً على الأرض. لم ير عينيها. رأى رقبتها، واستدارة عباءتها العمياء. ماذا يدل ذلك؟ وبشعور النقمة ضغط على أعلى ركبته، وسار باتجاه ساحة النصر يجرجر جروحه المعفرة. مر ببيوت مسورة ومدفونة في حدائقها، صامتة حتى لتبدو غير مسكونة. لابد من أن فيها أرائك وثيرة وفارغة الآن يمكن أن يتمدد عليها حاضناً جروحه. ود لو يرفع بنطلونه ويرى ركبته. إلا أنه خجل، وكأنه بحاجة إلى أن يتمدد ساعة بعد أن يغسل جروحه بماء دافئ. مد يده في جيبه، وعدّ فلوسه. اثنان وثلاثون فلساً. أين يذهب بها؟ تذكر قهوته في عنق سوق الهرج. إنها مريحة، وشايها يسكت المعدة لمدة ساعتين على الأقل. وفي الباص عنت له فكرة. أو مرّ في ذهنه خيال امرأة سقيمة كالفروج عرضت خدماتها عليه ذات مرة. فلماذا لا تذهب إليها؟

انحدر من الزقاق، واستقبلته رائحة البول المزمنة. ورأى الباب غير المصبوغ المبقع عند الوسط ببصمات زائريه العديدين. عندما كان أمامه أحس بأنه لا يجدها. فهو عندما يصاب بخيبة في أول النهار تظل تلازمه طوال النهار. ولكنها كانت هناك.

على نفس التخت تمشط شعرها. لم يعلق في ذهنه أن لها مثل هذا الحندس الكافوري على رأسها الصغير. نظرت إليه من خلال فرعيها الأسودين، فرأى المشط الخشبي مغروزاً في شعرها. نظرت إليه نظرة طويلة ذاهلة، وكأنه أبوها أو أخوها جاء يصفي الحساب معها. اقترب منها وسألها:

_ هل تذكرينني؟

هزّت رأسها وهي تسرع في تخليص عينيها من شعرها، وتحشره وراء أذنيها:

_ تذكرتك، تذكرتك.

ملأت الابتسامة وجهها الصغير الذي لم تكن المساحيق تطوف عليه.

_ جئت إليك أخيراً. أرجو أن لا تكوني مشغولة.

_ وأين الشغل لأكون مشغولة؟ النهار كله أمشط شعري.

أضحكته فجلس بالقرب منها. كانت تضع ساقاً على ساق، وقد ارتفع ثوبها فوق ركبتها فبرزت ساقها النحيلة السمراء. ورأى انطباق الساق على الساق قوياً ملتحماً. كانت تبدو مثل فروج حقاً. وكان يطل عليها، فيرى كتفها النحيل، وصدرها مثل صفحة باب عليه نتوءان صغيران مثل مطارق الأبواب القديمة قبل أن يخلق الجرس الكهربائي. كانت في مجموعها مثل آلة يدوية تنتظر من يحركها. طلب إليها أن تغلق الباب، فنهضت مطيعة، ولما عادت أفلَتَ هذا السؤال من فمه:

_ هل أنت مومس؟
لم تغضب بل أجابت:
_ لا، أنا صبرية.
فضحك مرة أخرى، ولمس كتفها العظمي، وسحبها إليه.
_ أنا في ضيافتك اليوم، يا صبرية.
_ أهلاً وسهلاً، عندك فلوس؟
_ عشرون فلساً.
ضحكت وقالت:
_ اشتر بها دوا حمام.
_ لا تكوني بذيئة. جئت لأتحدث معك قليلاً وأنصرف إذا لم تقبلي خرجت.
_ تفضل تكلم.
فتش في ذهنه عن كلام. فوجد هذا السؤال قريباً منه:
_ هل تعرفين بودلير؟
أجابته بلهفة وقناعة:
_ أعرفه. يمثل في سينما الحمراء. سمين مثلك.
_ كفرت، يا خنساء.
_ والله العظيم شفته في السينما. أخذتني عمتي قبل سنتين.
_ لا، يا قوراء.
_ ومن هو؟
_ شاعر عظيم.
_ يعني ممثل.
_ خسئت يا لكعاء!
_ لماذا تسمينني بهذه الأسماء؟ قلت لك اسمي صبرية.
لم يرد أن تغضب فقال لها:

_ كان رجلاً عبقرياً يحب النساء حباً شيطانياً، ولاسيما السوداوات منهن.
قالت في خيبة:
_ الرجال يحبون كل شيء حتى الفحم.
_ هم يحبون الدفء حتى في الصيف. هل أنت دافئة؟
_ أحس بالحرارة كل وقت، وأحب شرب الماء بالثلج في الصيف. وأنت بارد؟
_ أغلي من الغيظ. انظري إلى ركبتي.
كشف لها عن ركبته الجريحة. وشعر بحركتها إلى جانبه مثل قطة. صاحت:
_ وي! تعاركت؟
_ تعاركت مع القدر.
_ أجيب لك ماء، واغسل..
ذهبت، ونظر إلى ركبته لأول مرة. كانت حمراء سوداوية متربة قبيحة. وكانت قطعة من الجلد تتدلى مثل ورقة خائسة. ودهش لأن البنطلون لم ينشق، وحمد الرب على ذلك.
جاءت صبرية بخرقة وابريق فصرخ غاضباً:
_ أبعدي الابريق الداعر عني.
ضحكت صبرية وقالت:
_ ليش؟
_ ابعديه. اكرهه. هاتي قدراً، هل عندك قدر؟
_ عندي، ولكن هذا أحسن.
_ لا. اجلبي طاسة، قدراً، طشتا. إلا هذا الابريق اللعين.
ذهبت مطيعة وجاءت بطاسة من النحاس مملوءة بالماء. وركعت على الأرض أمامه. وأخذت تغسل ركبته في عناية، وكأنها تطرز. وبعد اللذعات الأولى أصبحت لمساتها

مثـل تـدليك خفيـف. شـعر بارتيـاح هـادئ يدغـدغ جسـمه المتعب. وكان ينظر إليها، لا إلى ركبته. قال لها:

_ هناك قطعة جلد متدلية اقطعيها.

_ أخاف.

_ لا تخافي. اقطعيها بسرعة، اقطعيها.

وأغمض عينيه، وأحس بأصابعها ترتجـف علـى ركبتـه. ثم اهتز جلده كله، وتقلص، وسمعها تقول:

_ هذه هي!

فـتح عينيـه، ورآهـا تمسـك بالقطعـة مثـل حشـرة مهروسة. قال مغتاظ:

_ ألقيها، أبعديها!

ألقت بها عبـر الحـوش، وراحـت تنظـف أسـفل ركبتـه، وكأنها تمسد عليها. قال لها مرتاحاً:

_ أنت إحدى عرائس البحر، يا صبرية.

_ ما شفت البحر طول عمري.

_ أمامك ترتجف أجيال بكاملها.

_ تخاف مني؟

كانت تنكب علـى ركبتـه تمسـحها دون أن ترفـع إليـه عينيها. ولما فرغـت عـرض عليهـا مرفقـه المقـروح فتأوهـت أيضاً وأخذت تغسله ضاحكة منغمرة فـي عملهـا. وبعـد ذلـك أجلسـها إلـى جانبـه وشـكرها. وقـرّب ذلـك المسـافة بينـه وبينها. فسألها:

_ هل تطبخين في البيت، يا صبرية؟

_ لا. اشتري من المطعم.

_ هذا ما ظننته.

_ جوعان؟

_ تقريباً.

نظرت في وجهه عميقاً، وكأنها تستغرب صراحته، أو تشك في أن لا يكون في طيات هذه الجثة كلها ثمن ما يسد رمق معدته.

_ ما عندك فلوس؟

_ لا، قلت لك – ثم تدارك – في الوقت الحاضر فقط.

استغرقت في شيء ما وهي إلى جانبه. ثم وضعت كفها على كفه وضحكت ضحكة امرأة لم تدنس بعد.

الخامس

لم تجدِ إلحاحاتهم نفعاً. لم يرفض بهزة من رأسه، ولا بأداة نفي قاطعة، وغير لائقة بموظف يخضع القوانين، بل كان يبتسم في الجواب ابتسامة لا تجرح نفساً، ولا تخرق قانوناً، ابتسامة كان يعرف سحرها ومفعولها منذ أن وضع سنه الذهبية في السنة الثالثة من كلية التجارة. كانت الابتسامة تعبر عما لا تعبر عنه الكلمات، ولا تحرجه في موقف.

أطل الفراش من الباب وقال "المدير العام". رفع حميد رأسه وغمره فرح عفوي. هل سيعيد العملية نفسها؟ لا بأس. كل هذه اللقاءات تقربه من المدير العام، وتوثق صلته به. خرج من وراء مكتبه، ووقف أمام خزانته يحاول أن يجد نفسه على زجاجتها. لمعت السن الذهبية كاشفة عن ابتسامة أطلت من تلقاء نفسها. وكان يرى وجهه البيضوي، بجبينه العالي، وعظمى الوجنتين المرتفعتين. وكأن العينين الواسعتين تركزان عليهما. لولا تباعد منخري الأنف، وشفته الغليظة التي وصفها شريف ذات مرة بأنها "شهوانية مثل شفاه الزنجيات اللواتي أحبهن بودلير" لكان نموذجاً للجمال الشرقي ذي السمرة الخمرية، والشعر الأجعد، والقامة الممتلئة المعتدلة. ورضي حميد عن نفسه، وعدل أسفل سترته. أدار جسمه يميناً وشمالاً، وتمنى لو كانت سلمى هي التي دعته إلى المدير.

خرج من غرفته وفتح باب غرفة مجاورة وقال "آنسة سلمى! أنا ذاهب إلى المدير العام" ورأى وجهها الأملد مأخوذاً بالمفاجأة. برقت عيناها واتسعتا، فقال في سره "كل عين عليها حرف من كلمة حب" وانصرف.

فتح له فراش المدير العام الباب، وردّ المدير على تحيته بـ:

_ أهلاً حميداً! لا تخف. تركنا أمر سفرك إلى الديوانية. أنتم شباب اليوم يسحركم العناد، من ذلك النوع الذي يضرب عن الطعام وهو في السجن، تصور في السجن وهم يضربون عن الطعام.

_ لا، أستاذ..

_ طيب انتهى الموضوع. نحن نريد للفرع من يذهب بكل روحه. هل أنت متزوج يا حميد؟

ارتبك حميد. ولكن المدير اقتنع بابتسامته المرتبكة:

_ أنا حزرت ذلك. لو كنت متزوجاً لجمعت أولادك وذهبت. ولكنك شاب أعزب تعتقد أن كل نساء العراق الجميلات مجتمعات في بغداد، وتتحين الفرصة. أنا كنت مثلك. أنا أعرف – وابتسم المدير في رضى متذكراً شبابه، وقال: - لا بأس. من تظنه صالحاً لهذا المنصب؟

_ الأمر راجع لكم.

_ لا، أنت تعرف الموظفين أيضاً. مهدي اسماعيل يصلح؟

_ حسب رأيكم.

_ أنت تعرفه أحسن.

_ هو موظف مخلص، ولكن ماذا أقول؟ بطيء الحركة قليلاً.

_ هذا رأيي أيضاً.. وهاشم محسن؟

_ أعرفه جيداً مدقق وحريص، ولكنه يخاف البت في الأمور. وهذا المنصب يحتاج إلى من يبت بنفسه.

_ بالضبط، لا يحتاج إلى خائف.

_ هاشم صديقي.. مثال للموظف.. التنفيذي.

_ يمكن أن يكون من ضمن موظفي الفرع.

_ رأيكم صحيح.

_ وهو يليق إذن؟ ربما سعدون محمد؟

_ هو أليق الموظفين.. نشيط وحرك – وابتسم حميد – ولو ان له ولعاً..

_ ما هو؟

_ ابتسم حميد أكثر:

_ يحب الموسيقى.

_ أية موسيقى؟ الغربية؟

_ لا، المقامات. في كل يوم يلتقي بأحد مغني المقامات الغزالي.. ويوسف عمر. ويظل يستمع لهم طوال المساء. هواية!

ضحك المدير وقال:

_ الهوايات مرض الشباب أيضاً – وهزّ رأسه وتذكر شبابه – في زماني كانت لي هواية جمع الطوابع، ثم قراءة الشعر. كنت أحفظ قصائد طويلة لشوقي ولابن الفارض وابن زيدون، ولا تعذليه فإن العذل يوجعه.. تصور! – وضحك المدير ثانية وهزّ رأسه – ولكن هوايات الشباب مثل حبّ الشباب لا ينفع معها إلا العمر. عندما يكبر الإنسان يزول حبّ الشباب، وهوايات الشباب. أليس كذلك؟

_ كلامكم صحيح – وابتسم.

تابع المدير راضياً عن كلامه:

_ لا بأس بالهوايات على أن لا تشغل الإنسان عن عمله الأصلي. بل تكون مندمجة معه. أنا الآن أهوى جمع ربطات العنق. تعال إلى البيت وسترى خزانة مملوءة بها. كل مرة أسافر فيها إلى لندن أو بيروت أجلب عشرين ربطة ولكن هذا لا يعيق عملي. أرجو أن لا تكون لك هوية مثلها.

شجعته ضحكة المدير العام وملاطفته على أن يقول:

_ عندي هواية واحدة.. شرب البيرة.

_ ها ها ها! هذه أيضاً مثل ربطة عنق إذا بالغت في شدها خنقتك. أنت تعجبني. صريح كالطفل.

وعدّل المدير نظارته الخضراء، ونظر إلى الأمام، وكفّ عن الضحك، وقال بلهجة "مدير عام" وكأنما يكفر عن ملاطفته:

لا يجوز أن تأسرك العادة. فانها تئلم القريحة كما يقولون. وأنت ما تزال شاباً، والمستقبل أمامك. ومن يدري؟ فقد تجلس على مكتب كهذا أو غيره. والآن فكز فيمن نبعث إلى الديوانية.

عرف حميد أنها نهاية المقابلة، فانتصب قائماً وسلّم برفع ذراعه. وانصرف.

في غرفته ألقى رأسه على حافة الكرسي، ونظر إلى السقف الأبيض ذي المصباح الكبير بظليلته البيضاء المتماوجة. وأعاد إلى ذهنه ما قاله المدير العام. عنده خزانة كاملة من الأربطة. تعال إلى البيت وترى. أليست هذه دعوة صريحة إلى البيت؟ ثم سأل هل أنت متزوج. لعل له بنتاً يريد أن يزفها له. ورنّت في رأسه ضحكته. لا، لا تعجبه غير سلمى. رائحتها الأنثوية تدير رأسه. ليتها كانت معه عند المدير لتعرف كيف عامله بلطف، وضحك معه. أوه، يبدو أنه أحبها عن صدق. فجأة احتلت فراغ قلبه، وأصبحت هي والخمرة زينة حياته. عيناها زيتونتان خرجتا من الزيت تواً، وبشرتها حرير تفوح دفئاً ورائحة شهية جذابة. سيفوز بها حتماً. المستقبل أمامه كما قال المدير العام. ولكنه سيحتفظ بهوايته على أية حال. الآن وفي المستقبل، حتى ولو زال حب الشباب من وجه آخر شاب على وجه البسيطة. وغمره فرح منتصر، ووجد يده تمتد إلى التلفون. وأدار الرقم. في لحظة انتصاره يجب أن لا يبقى وحده. هو لا يحب الوحدة مطلقاً.

_ هالو، من يتكلم؟

_ ...

_ مرحبا سعيد. كيف حالك أيها المؤذي؟ لي حديث طويل معك... وأنا أيضاً... لماذا تحب نشر الملابس القديمة، آه يا خبيث... اتفقنا... ولكن لا تثرثر كثيراً. مفهوم؟.. شكراً، مؤدب. والآن أعطني ابراهيم.

حتى سعيد عامله بلطف في لحظة انتصاره. الملعون ينبش الدفاتر القديمة. سيجلس معه ويحدث بصرامة.

_ هالو ابراهيم. مرحبا يا أسد. ما رأيك في غداء فاخر في شريف وحداد؟.. لماذا مشغول دائماً؟.. الدنيا حلوة، وأنا أخاف الوحدة. سعادتي يجب أن تكون للآخرين أيضاً. أرجوك تعال. لا أحب الغداء وحدي. حياتي مثل حكايات ألف ليلة وليلة. لا تنتهي أبداً... ابراهيم، قبل ما أنسى، أرجوك أن ترفع اسمي من العريضة. مالنا وحرب البوير؟.. يعني مصر على الرفض؟.. وبودلير العصر موجود؟ سيفوته غداء فاخر؟ أين يذهب؟ عجيب أمره... إذن مع السلامة.

ووضع السماعة. وزفر. سيأكل وحده إذن! كم يود لو يحدث الآخرين بما أحس به. وفجأة طرق الباب طرقاً خفيفاً. ودخلت سلمى تحمل أوراقاً.

_ ظننتك ما تزال عند المدير.

_ رجعت الآن. انتهت المسألة. لن أسافر. سأظل معك..

_ بغداد جميلة. أرجو أن تراجع هذه الأوراق. فاليوم خميس.

_ اليوم خميس؟ لم أكن أعرف.

نظر في عينيها السوداوين الشبيهتين بزيتونتين. كانتا تبتسمان له.

_ هذا شيء لطيف. فأنا جائع جداً – وغمر وجهها ببصره – ما رأيك يا آنسة سلمى لو دعوتك إلى غداء في مطعم؟

رأى شفتيها ترتجفان قليلا، وكأنهما تتدربان على إجابات مختلفة قبل أن تقول:

_ هل نحن في أوروبا يا أستاذ حميد؟

ابتسم حميد مرتبكاً:

_ وهل من العيب أن نكون في أوروبا؟

_ عيب أن نكون وحدنا.

كان في صوتها ليونة، وتقريع ربة بيت لرجل يريد أن يتناول طعامه خارج البيت.

_ لا تظني أن الناس سينتقلون إلى أوروبا دفعة واحدة. لابد من رواد.

_ ليكن الآخرون روادها.

راقب يديها تعملان على مكتبه بالقرب من صدره، يدان وديعتان أليفتان تكذبان ما قالته شفتاها. ساد صمت قضاه في مراقبة حركاتهما. وحين ارتفعتا إلى فوق، شعر حميد بوحشة، وكأنه فارق شيئاً ألفه. قال في حزن:

_ إذن، سأتغدى وحدي؟

ردت بهدوء:

_ بالعافية.

وخرجت محركة في الغرفة تياراً عطرياً خفيفاً.

الرابع

ملّ "المتطفل على التراب" فأطبق الكتاب. وزفر متأففاً. كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة، والنهار في أوله، وليس عنده مراجعات. عنّ له أن يدعو فراشه، ويجري معه حديثاً صميمياً. ناداه، وسمع من وراء الباب "نعم، أستاذ" غليظة. ودخل عزيز، وأدى تحية عسكرية (كان نائب عريف في الجيش قبل ثلاثة أعوام) وقال "نعم" مرة أخرى.

_ اجلس، يا عزيز.

_ نعم، أستاذ؟

_ أقول لك اجلس. ألا تسمع؟ اجلس على هذه الأريكة ولنتحادث فقد مللت فولكنر وألاعيبه.

_ وإذا جاء المدير؟

_ ليقف عند الباب.

ضحك عزيز منتشياً، وجلس شابكاً يديه في وضع غير مريح. فسأله عبد الخالق:

_ كيف أحوالك يا عزيز؟

_ أحوالي مثل ما تشوفها.

_ حدثني عن نفسك بالتفصيل. كيف تعيش؟

خطر بباله فجأة أن يعرف سر هذه الشخصية التي ترافقه ست ساعات في اليوم منذ ثلاث سنوات. إلا أن الفراش اختزل القضية:

_ أعيش مثل ما يعيش الناس.

_ لا تكن خبيثاً. حدثني عن كل شيء. وكم ولداً عندك؟

_ ثلاثة، وفي الطريق واحد.

_ وأين تقضي أوقاتك؟

_ في قهوة الطرف أو في الحمام. وبعض الأوقات أعبر شارع غازي. وأقعد في دكان أزمير.

_ وزوجتك، ألا تجلس معها؟
_ أرجوك، أستاذ. شواربي ثخينة.
_ وماذا تعتبره أنت؟
_ متعة! أحسن من جلوسك في دكان تمزمز.
تشنج عزيز في ضحكة. ولوى رأسه، وعكف ذراعه، وبدأ مثل طائر يريد أن يحك رقبته بمنقاره. وانتظر عبد الخالق واضعاً يديه على المكتب، مرتقباً شيئاً يفوه به. قال عزيز فجأة:
_ الناس أذواق.
_ إنها زوجتك، أم أولادك. قل لي بالمناسبة يا عزيز كيف تزوجت؟ هل كانت المسألة طويلة؟
_ بطول المدة التي جمعت فيها ثلاثين ديناراً.
_ وهل كنت تعرفها؟
_ ولماذا أعرفها؟ النساء إذا عرفتهن بطل سحرهن. أم العباءة عندي أحسن من الموجودات في المجلات المصرية سافرات. لأنك لا تعرف ما تحت العباءة. والإنسان مجنون بحب الطلاسم، وجوعان لما تحت السلة.
ونظر عزيز ليعرف تأثير كلامه. لم يجد عبد الخالق ما يعترض به. فالإنسان حقاً مجنون بحب المجهول، وفضولي بدرجة قبيحة. ألم يرد هو أن يعرف سن هذه الشخصية الغريبة؟ قال عبد الخالق:
_ استمر. بدأت تعجبني.
_ صحيح يا أستاذ. كنت أعرف بنات كثيرات من محلتنا. بعضهن جميلات مثل "فص الماز". وكلهن شفتهن بلا عباية. يعني بلا سحر. والزواج، يا أستاذ، مثل الرهان في الريسز. مثل اللعب باليانصيب. مرة قلت لأمي: أم عزيز، ابنك يريد له عروسه. وبعد ما كو صبر. قالت من تعجبك من محلتنا؟ قلت لها: أريد تخطبين لي وحدة من محلة بعيدة. كانت كل يوم تخرج وتبحث وتحكي لي بنهاية

الأسـبوع لمـا ارجـع مـن المعسـكر. ولكـن مـا كنـت أصـدق بأوصافها. ولم تغشني "العين مثل الساعة" و"الخشـم قلـم طراش" و"الخد تفاح عجمي". ومرة جاءت لي، ووصف وحدة "ضـفايرها بطولهـا". ومـا وصـفت وجههـا. فقبلـت. وعقـدنا المهر، وانتظرت حتى جمعت ثلاثين ديناراً. وفـي يـوم أسـود دخلت عليها.

قهقه عبد الخالق وسأله:

_ وهل كانت ضفائرها بطولها؟

_ ولا حتى لنص ظهرها. أنت مثل أخويه. ولكـن عليهـا عيون.. أويلي! وخـدود. يـا عيـوني!.. ولكـن العـرض عزيـز يـا أسـتاذ، اش أوصف لك؟

_ أنا لا أريد أن تصـف، ولكـن لمـاذا لا تقضـي سـهرتك معها؟

_ مع من، مع الفراش؟

_ مع زوجتك.

_ أنت اليوم يا أسـتاذ حاكم تحقيـق أصـلي. بـس أريـد أسألك سؤال.

_ تفضل.

_ إذا عندك في البيت مراية، تظل طول وقتـك مقابلهـا وقاعد؟

_ أنت نائب عريف ملعون.

_ والكعبـة لا أكـذب. المـرأة مرايـة. مـن تخـش البيـت تصبح من غراض البيت. بس ضرورية جداً. لا غرام ولا انتقـام ولكن أطفال وطعام.

همّ عبد الخالق أن يجادله. غيـر أن عزيـزاً نهـض رافعـاً جسـمه على ذراعه المستندة علـى ذراع الأريكـة، وانطـوى جسمه الطويل مثل حرف اثنـين كتبـه تلميـذ مبتـدئ. وأدى التحية العسـكرية، وانصرف تاركاً عبد الخالق في بحـران مـن الأفكار. هذه إذن نظراته إلى المرأة – فكـر عبـد الخـالق مـع

نفسه – مرآة، من أغراض البيت. سرير، حلية، سوار ذهبي، ماءة ألف روبل كما أراد روغوتشين أن يشتريها في "الأبله" مليون دولار على حد تعبير الأمريكيين. فمتى ستكون المرأة امرأة فقط، قيمة بحد ذاتها؟ فتح عبد الخالق كتابه هارباً من أفكاره المقلقة، مرسلاً زفرة طويلة. وقبل أن يقرأ ثلاثة أسطر دخل عليه حميد. كان يبتسم على عادته، تلك الابتسامة السخيفة، وكأنما خرج لتوه من لقاء جميل.

_ أهلا. هل خرجت من سيرك يا حميد؟

أجاب حميد ضاحكاً:

_ خرجت من البنك. قلت لهم أنا ذاهب إلى وزارة المالية، وفي الطريق تلفنت إلى فؤاد، وقلت له: احسبني عندك الآن... ها ها ها..

انزعج عبد الخالق وقال بلهجة صارمة:

_ أنت، يا حميد، ترى الدنيا مهزلة.

كفّ حميد عن ضحكه وقال:

_ وماذا تراها أنت؟ مأساة؟

_ عندما أراك أعتقد أنها مهزلة. ولكنها لا هذا ولا ذاك. يجب أن تعرفها على حقيقتها، تعيش في أعماقها، وتعرف موضعك منها.

قال بسفاهة:

_ ولماذا أعيش في الأعماق؟ أنا أحياناً على السطح وأكاد أختنق.

_ ستتنفس في الأعماق هواء أنظف، لأن الذين يحاولون النفاذ إلى الأعماق قليلون.

_ ستبدو الدنيا موحشة إذا كان فيها قليلون.

_ وأنت تريدها سوقا للنعاج.

_ أريدها دنيا.

غضب عبد الخالق ورد عليه:

تريدها سطحية. لا تفكير فيها ولا هم. تريدها رتيبة مثل دوران ثور في طاحونة. هذه الدنيا لك وحدك. تفو عليها!

لم يظهر التأثر على حميد، وقال ببرود:

_ طيب، إذا كانت هذه دنياي. فما هي دنياك؟

صمت عبد الخالق على مضض، ثم اعترف حزيناً:

_ ليست لي دنيا. أنا غريب بينكم.

_ وتعيش بيننا؟

_ لا أحسب نفسي أعيش، ولو كنت أمارس عادات الحياة اليومية. ولكنني أترقب اللحظة التي سأعيش فيها حقاً.

_ ومتى ستأتي؟

_ لا أعرف، ولكنها ستأتي لا محالة.

_ راكبة بغلة عرجاء.

_ سخيف! – خنق عبد الخالق وضرب مكتبه، وتحدى حميداً – ستأتي على متن عاصفة.

_ مشبعة بغبار الصحراء.

فكر عبد الخالق مع نفسه: هذا الرجل لا يحتاج لغير الهزء والإهانة. فقال له:

_ لا تخف. ليس لك عينان لتخاف عليهما من العمى.

_ وأين ذهبت عيناي؟

_ لا تحسب هاتين الزجاجتين الملونتين بالأسود والأبيض عينين تملكان نعمة البصر. أنت تسير في الحياة أعمى. أهملت حاسة البصر منذ زمان. والحاسة إن لم تستعمل ضمرت وزالت.

_ عندي حاسة بصر قوية حتى لأرى قطرات العرق على جبينك.

_ ولكنك لا ترى ماذا في أعماقي. والعين التي لا تنفذ إلى الأعماق لا تُسّمى عيناً.

_ أعرف أعماقك أيضاً. أعرف أنك تتأثر بما تقرأ. تريد أن تجعل محتويات الكتاب واقعاً.

_ أما أنت فأمي. لا تقرأ ولا تعرف شيئاً. أنت عربة مؤجرة عند الحكومة تشحن عليها بضائعها. ستقول أنا أيضاً. ربما أنا في هذه اللحظة، وأنا جالس على الكرسي، ولكني أعي واقعي، وأترقب لحظة الميلاد الجديدة أنفذ ما وراء الأشياء لأرى علامات الميلاد.

قال حميد متراجعاً:

_ لطيف إذا كانت لك هذه القدرة.

قال عبد الخالق متشجعاً:

_ أنا في بعض الأحيان كالمجنون أنظر في وجوه الناس قائلاً لنفسي: هذه ليست وجوهاً بل أقنعة تخفي وراءها الوجوه الأصلية. وأنا ككاتب يجب أن أنفذ وراء الأقنعة، وأعرف ماذا يعتمل في الوجه. أحياناً أراقب حركات الناس وإشاراتهم وكلامهم، وأقول لنفسي: هذه ليست حركات أناس أحياء. هؤلاء دمى مكوّكة يدفعها تيار الحياة غير المرئي، ولا تجد لحظة هدوء لتنظر ماذا هي فاعلة. لقد تعلمت قراءة الناس من طول تأملي فيهم.

سأل حميد في لهفة امرأة عانس اكتشفت فجأة أن أمامها قارئ كف:

_ طيب، اقرأ ماذا ترى فيّ.

اضطر عبد الخالق أن يقول رأيه:

_ أنت شخص تضحك على مأساتك محاولا إخفاءها وراء سنك الذهبية.

تأوه حميد، وكأنه فوجئ بحكم لم يخطر على باله. وتنصل:

_ ليست لي مأساة! أية مأساة لي؟

_ أنا أعرف كل شيء – قال عبد الخالق مدفوعاً بقوة داخلية – أعرف كل إنسان من طريقة ممارسته لعاداته

اليومية، من الكلمات التي يستعملها، من نظراته وقسمات وجهه.

هتف حميد:

_ يا ساتر، يا رب! هل ستتخلى عن الكتابة لتمارس الفأل؟

مرة أخرى اضطر عبد الخالق إلى الاعتراف:

_ من يدري! فقد يكون ذلك أجدى. ما نفع الكتابة في مجتمع تسعون بالمائة منه أميون، والآخرون أنصاف أو أرباع متعلمين لا تدخل في عقولهم أبسط المفاهيم. قراء الفأل يحظون بشعبية أكثر من أي كاتب.

تكلم عبد الخالق بإحساس مفجوع مقطعاً أعصابه ليقدم حالة نفسية يعانيها. ولكنه لم يجد على وجه حميد إمارة على التأثر. ما زال خده أملس منتفخاً لامعاً، وحتى الصمت الذي غرق فيه بدا وكأنه لحسابه الخاص، يفكر في شيء خاص به. انصرف عبد الخالق عنه متضايقاً، ونظر خلال الشباب إلى يمينه، فرأى المنظر المألوف له كل يوم. رأى جانباً كبيراً من الممر في الجهة المقابلة له، ورجالاً متكئين على الدرابزين الكالح. وكان بين الرجال نساء يلحن في عباءاتهن مثل لحظات سود أفلتت من يد فنان مهمل. كن واقفات على بعد من الرجال في خوف ومسكنة، جالسات تحت أقدامهن ملفوفات في عباءاتهن مثل صرر لمتاع قديم. لا إنسانية في منظرهن، ولا حياة. توجع وراح يفكر في ظلم المجتمع لهن. وجد وجوه شبه كثيرة بين حالتهن وحالة الكاتب في المجتمع العراقي. كلاهما يتحمل أقسى ظلم في المجتمع، كلاهما في عين المجتمع حلية وتسلية، كلاهما، كلاهما... وربما لهذا السبب يشعر بالتعاطف مع المرأة، أكثر من شعوره بالتعاطف مع أي إنسان، ولهذا السبب أحس بالإهانة حين سمع عزيزاً يصف امرأته بالمرآة. وهناك وراء الدرابزين سحب رجل امرأة من

يدها كانت تقرفص على الأرض. فانخرطت عليها مسافة. كان الرجل يتحدث إلى شخص خرج من الغرفة دون أن يلتفت إليها. كانت بعباءتها السوداء تبدو مثل نعجة تساق إلى الذبح. وكان القصاب من القسوة بحيث جذب باليد الأخرى شعرها ليحملها على الدخول إلى المسلخ. خنق عبد الخالق وصرخ: أيا قواد! وأدار وجهه إلى الغرفة. رأى حميد ينظر إليه بغرابة. سأله بعد تحديقة طويلة:

_ من القواد؟

_ هناك رجل يجر امرأة كالنعجة. أليس هو قواداً؟

وقف حميد، ونظر من الشباك، وكأنه يريد أن يتأكد من كلام عبد الخالق. كان الرجل قد أفلح في سحب المرأة إلى عتبة الغرفة. قال حميد ببرود:

_ من يدري ماذا فعلت له؟

_ أها، أنت أيضاً؟

_ ماذا تقصد؟

_ دعني أسألك هذا السؤال: لو كانت لي زوجة، هل ستعتبرها مرآة، قطعة من أثاث البيت؟

_ ولماذا هذا السؤال؟

_ هناك أناس يعتبرون زوجاتهم قطعة أثاث.

زفر حميد من خدين منتفخين وقال:

_ قد يكونون على حق. ماذا تعرف أنت عن المرأة؟

_ أقصد أنك تراها في الشارع والسينما بكامل فتنتها. بينما في البيت شيء آخر.

_ إذن فأنت أيضاً مثل فراشي عزيز. عندك هذه الفكرة قبل أن تتزوج.

_ شوف عبد الخالق. أنا واقعي، لا أحلق في أحلام الحرمان.

_ اسكت، لا تتكلم. لا أحب أن أتحدث إلى رجل يزعم أنه متعلم، ويحمل هذه الفكرة عن المرأة.

ولما لم يجد مجالاً للثرثرة خرج.

الخامس

بعد ذلك سأل:
_ المهم أن أعرف من أين عرفت.
_ عرفت. لا يمكن أن تُخفى الحقيقة إلى الأبد.
_ لا. قل لي أولا.
_ قلت لك عندي أقارب في محلة المصلوب.
_ لا أظن.
_ أنت تريد أن تغير الموضوع فتهرع إلى قضية جانبية.
كانا جالسين في مقهى ياسين تحت حائط بلقيس الأسمر، والشمس تقطع مثلثا كبيراً منه. وكان سعيد جالساً قبالته منفعلاً يرطب شفتيه بين الحين والآخر بلسان أحمر مدبب، وينظر صوب النهر مراراً مدارياً شيئاً في نفسه، ويبدو مرتبكاً، ولا يليق بالتدخل في حياة الآخرين، ولا يجيده. حتى لعجب حميد من أين جاءت له هذه الجرأة، والكلمات النارية، والحمية التي لا تنسجم مع قسمات وجهه الصغير. كانت عيناه ترفان من وراء النظارتين، وكأنما سُلّط عليهما ضوء قوي، وكان أنفه عرقاً يمسحه بين الفينة والأخرى. وهذا ما قربه من حميد، ومسح من قلبه شيئاً من الإساءة. تبسم وشمل وجه سعيد بنظرة متفحصة، وقال بلهجة جادة لم تصبغ كلامه طوال نصف الساعة الذي قضياه في المقهى يتحدثان.
_ سعيد، ماذا تريدني أن أفعل؟ تورطت. ورطوني.
تمتم سعيد بحزن:
_ وددت لو تصلح سوكك نحوها.
كانت لهجته بائسة، وتعبة. وزاد ذلك من إشفاق حميد عليه. فقال بلهجة حاول أن تعيد إليه موقفه السابق في بداية الحديث:

_ تريدني أن أصوغ نفسي من جديد، وقد سمعتك تقول إن الإنسان لا يصوغ نفسه مرتين

ورأى حميد على وجه محدثه التماعة، وسمعه يقول بصوت أكثر ثباتاً:

_ لا أريد ذلك. بل أن تعود إلى واقعك الذي يبدو أنك نسيته. نسيت أنك متزوج، واستمرأت الكذب على نفسك. والآن عليك أن تتخلى عن حياتك المنتحلة.

_ أها! أحس حميد بأنه أعاد الثقة إلى محدثه، والآن يجب أن يتحمل نتائجها.

_ وكيف ذلك؟

_ أن تتخلى عن بعض عاداتك.

_ وهل تحسب ذلك سهلاً؟

سأل سعيد بحدة:

_ لماذا تزوجت إذن

_ وهل أنا الذي تزوجت؟

مسحة من الغرابة على وجه سعيد الهزيل و:

_ من زوجك إذن؟

_ لست أدري. فتحت عيني فوجدت نفسي متزوجاً.

ورأى الحيرة تلوح على وجه سعيد.

_ أنت لا تأخذ المسألة مأخذاً جدياً.

_ حقاً يا سعيد. ألم تسمع بأناس ولدوا متزوجين؟

وأعجب حميد بالتعبير المبتكر الذي يصور خفايا زواجه. إلا أن سعيداً قال:

_ لا، سمعت بأناس ولدوا عزاباً.

_ هؤلاء سعداء، ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

_ وأنت تحب نفسك مستعبداً. تسهر إلى الساعة الثانية عشرة وتحسب نفسك مستعبداً.

حدق حميد بسعيد مستغرباً حميته، وتأثره اللامعقول. فقال له في تصميم:

_ من أين جئت لي بهذه الحكاية المزعجة يا سعيد؟ عشت ما يقرب من عشر سنين مرتاحاً. كانت حياتي سراً وملكي الخاص، ولا أحد من أصدقائي يعرف أنني متزوج. وفجأة تأتيني بهذا الخبر، وتذكرني بأشياء نسيتها.

_ لا تفلسف. كيف يستطيع الإنسان أن ينسى زواجه؟

_ مثلما ينسى الإنسان هدية قدمت له. لماذا تريد أن أطلعك على حياتي؟

_ لأنك تخجل منها.

_ لا. إنها حياتي الخاصة. فلماذا أطلع الآخرين عليها؟

_ لأنها تخجل منها في قرارة نفسك. تخجل أن يسمع الناس أن امرأتك تعيش في بيت خراب، وترتدي رث الثياب.

ضرب حميد حافة الطاولة بسبابته ووسطاه، وزفر من خدين منتفخين وقال:

_ لننتقل إلى مقهى آخر.

_ أنا ذاهب إلى الجريدة.

_ ابق معي.

_ أمامي عرائض الناس.

_ الناس، الناس. متى أصبحت موكلاً بهم؟

_ ارتبطت بهم من حيث لا أدري.

_ مثلما تزوجت أنا من حيث لا أدري.

_ أنت تخلق لك مأساة وهمية.

_ أليست مأساة حقيقية أن يولد الإنسان متزوجاً، مثلما يولد الحمار وعلى ظهره حمل؟ ألا تفهمني؟

_ لا أفهمك.

_ يؤسفني أنك لا تفهمني. أنا مظلوم يا سعيد. أنا ضحية.

ولم يقتنع سعيد. وبدا جامد الوجه. قال سعيد وهو واقف:

_ على كل حال، لم أتم حديثي معك. ما يـزال عنـدي كلام كثير لفرصة أخرى.

وانصــرف. وعنــدما اختفــى وراء الحــائط قــال حميــد لنفسـه: ها أنذا وحيد مرة أخرى. اللعنة على هـذه الوحـدة. لو كانت وحشاً لقتلته، وأصبحت قديسـاً عنـد جمهـور غفيـر مــن البشــر. وخــرج مــن مقهــى ياســين، ودخــل الكــازينو المجاورة.

الأول

نظر إلى مدام بوفاري بحزن، وهي مطروحة على فراشه جامدة. اليوم ماتت منتحرة بسم، وزوجها الطبيب جارلس راكع إلى جانب سريرها، ماداً إليها ذراعيه. ماتت بعد ثمانية أعوام من زواجها، وقد تمزق قلبها بقوارير أحلامها المهشمة. ماتت الفتاة الرومانتيكية المسحورة بالكتب التي قرأتها، الباحثة لنفسها عن مكان في عالم ملون. سأل سعيد نفسه "إلى أين تشير إصبع فلوبير؟" وفكر طويلاً ولم يجد جواباً معقولاً، فقال لنفسه في نوعى من العزاء: ربما لا يشير إلى أحد. ربما يريد أن يقول أن هذا المزيج يولد هذه المأساة، مثلما يولد المسحوق الذي انتحرت بعد موتاً.

اعتدل سعيد في مطرحه على السرير، وخاطب نفسه: أليس فينا شبه بمدام بوفاري؟ رأت الواقع من خلال عدسة أحلامها، ولما ألح عليها حاولت أن تخففه بإلقاء نفسها في أحضان رودولف. تماماً مثلما نلقي أنفسنا في أحضان الخمرة لنرى العالم من خلال نقابها، أو نداوي بها جروحنا لحظات. والجروح تتعمق في أنفسنا يوماً بعد يوم.

_ سعيد، راح تأكل اليوم؟

جاء النداء من خلف الباب الموصد. وكان في داخل سعيد مسمار حار، امتعاض يخربش مزاجه، ويسد شهيته. كان يريد أن يفكر. أشخاص فلوبير أحياء يطرقون الأرض بأقدامهم، وفي المقدمة إشارة إلى أنهم عاشوا فعلاً. كانوا أصدقاء ومعارف الكاتب. فصاغ قصتهم.

_ رايحه للسوق.

ولكن هناك "الإدراك العماري" للعمل. يعني فن الصياغة. أو الموهبة. فأين هذه الموهبة يا سعيد؟ من أين يشتريها؟ وعاد سعيد يتمنى: لو أعرف من أنا؟ مهما تكن النتيجة قاسية لزال جزء كبير من شفائي. فليس كل الناس

قصاصين أو أصحاب مواهب. ومع ذلك يعيشون حياة مطمئنة. لو أعرف إلى أي صنف من الناس "أبوّب" لوطنت نفسي على ذلك، وعشت مرتاح البال. ولكنني لا أعرف من أنا، لا أعرف...

_ سعيد، الكتاب راح يبرد، وعندك رسالة.

_ جئت.

بدأ يسمع لغطاً خلف الباب طغى على أفكاره. دفع ساقيه خارج السرير، وتناول مدام بوفاري، والقاموس العصري، ووضعهما على الطاولة القرمزية، وفتح الباب، وخرج مقلصاً عينيه من ضوء المصباح القوي. ولما فتحهما رأى أمه تحمل سلتها الخوص عند الباب.

_ إني رايحه للسوق، وأكلك على النار، والرسالة على الخبز.

_ انتظري. تعالي نتكلم شوية.

_ أنت تتكلم مع الكتب. نسيت أمك من زمان.

وخرجت. جلس سعيد على الأرض قرب الموقد، ورأى الرسالة. كانت مثل قطعة ورق قذرة قرب الموقد. تناولها من فوق رغيف الخبز وتمعن فيها. كان المظروف مترباً مدعوكاً لا يحمل أي طابع أو عنوان، أو اسم. قلّب سعيد الرسالة بيده في دهشة. وفي الحال تبادر إلى ذهنه أنها من حليمة زوجة حميد. لعلها عرفت عنوانه لترسل رسائلها إلى بيته، وليكون ذلك آمن. ربما حدث بينهما شيء يوم أمس، فاستعجلت وجاءت – هي أو ستار – بالرسالة إلى البيت. مزق حافة المظروف بإصبعين عصبيتين. وأخرج من الداخل ورقة سمراء فتحها فرآها مملوءة إلى الحافة بسطور متلاصقة مكتوبة بقلم رصاص، وبخط صغير ممسوح. واستطاع أن يعثر على بداية الرسالة "عزيزي"، وثلاث نقاط...".

اهتـزت السـطور أمـام عينيـه الكليلتـين وشـعر بأنهـا تبهت في ضوء الليـوان النـاعم فخـرج إلـى الحـوش، وقرأهـا واقفاً:

"عزيزي...

"لعل رسالتي هذه مفاجأة لك. أنا متأكد من ذلك. بعد سـنوات طويلـة مـن الفـراق تأتيـك هـذه الرسـالة لتحيـي ذكريات قديمة، أو الأصح، لتجدد الـذكرى. لأن ذكريـات صـبانا لـم تمـت. ذكريـات همومنـا الأولـى منـذ أن أخـذنا نعشـق الكتب. ثم هل تـذكر كيـف أصـدرنا مجلـة "الرسـالة" خطيـة، وبأقلامنا لا بأقلام الزيات والعقاد وزكي مبارك؟ والآن أصبحت أنت كاتبـاً. ومقالاتـك فـي جريـدة "النـاس" تعجبنـي. ويـثلج قلبي أنك تطورت هذا التطور المدهش، وأصبحت تنظـر إلـى الأدب لا كصناعة ألفاظ، بل وسيلة لخدمة الشـعب. ولسـت أبالغ إذا قلت أنني تساءلت في الأيام الأولـى: أهـذا سـعيد الذي كان يقلد نهج البلاغة، وأسلوب الرافعـي غيـره بـنفس الاسم. ولكن أمي تأتيني بالأخبار. هذا برهان آخـر علـى أن الأفكـار التقدميـة تلقـي تربـة فـي وطننـا وتزدهـر. سـر فـي طريقك يا سعيد، وتطور أكثر. ماذا تقـرأ يـا سـعيد؟ هـل تقـرأ كتباً ثورية؟ هل تستطيع الحصول عليها؟ إنها تبني أسـاسـك الفكري. وبعد ذلك تستطيع أن تحلل كل الظواهر التي تراها في حياتـك. وحتـى مستشـفى العـزل يصـبح لـك ذا معنـى آخر، وصورة لنظامنا الاجتماعي الظالم القـائم علـى سـحق الناس وتهشيم صدورهم. المهم أن تقوي أسـاسـك الفكري. من جهتي أنا أستطيع أن أزودك من هنا بنسخ خطية لكتب قيمـة. استنسـخ لـك كتـاب "الأدب والمجتمـع" لبليخـانوف و"مقدمة في الفلسفة" لجـدانوف، وقضـايا اللغـة لسـتالين، وكتباً أخرى أخطها لك خطاً جمـيلاً، وأرسـلها لـك بيـد أمـي. فهـل تتقبـل هـذه الهديـة المتواضـعة مـن صـديق صـباك المسجون الآن في نقرة السلمان؟

"سمعت أنك تشرف على العرائض. هذا لطيف. لأنك من أبناء الطبقة العاملة، وتحس بآلامها أ:ثر، ولا تبخل بزيادة سطرين أو ثلاثة حين تلخص العرائض المعبرة عن مطالبيها. وكذلك عرائضنا نحن السجناء السياسيين الذين تعرضنا للقتل مرتين، ويريدون أن نموت في هذا الكهف الحجري النائي. ليتك تزورنا مثلما زرت مستشفى العزل لترى أي أوضاع سيئة تفرض علينا، لتثبيط عزائمنا. ولكن هيهات سنبقى أبناء مخلصين لشعبنا. فاهتم بعرائضنا يا سعيد. لا أريد أن أطيل عليك فالورقة قد انتهت. أرجو أن تكون رسالتي بداية مراسلات، وتمكنك أن تقول لأمي ما تريده شفاهاً".

وانتهت الرسالة دون التوقيع. وما الحاجة إلى توقيع؟ كان كل شيء واضحاً وضوحاً يحول الكلمات إلى همسات آدمية، وضوحاً يجعلك لا تقرأ، بل تسمع صوتاً واضح النبرة، دافئ الأنفاس، قريباً من أذنيك حتى لتحس بحركة الشفتين ودوران اللسان، وتهم بالنطق مثله، وكأنه يسألك بعد كل جملة "نعم أم لا؟ نعم أم لا؟.." وعليك أن ترد عليه، أن تتخذ منه موقفاً. وقد أحس سعيد بكل هذا. عرف منذ السطور الأولى صاحب الرسالة. ومن يعرف هذا القدر من الرسالة غير طالب عبد المجيد؟ كانوا يصدرون مجلة "الرسالة" مخطوطة حقاً. سعيد يخطها، ويكتب افتتاحيتها بأسلوب الزيات، وطالب بجمع "نقل الأديب" واستشهادات من نهج البلاغة، وشخص آخر – سافر إلى باريس – كان يكتب التعليقات اللغوية. وكان الكميت شاعرهم المفضل، لأنه شاعر صاحب مبدأ، ويحب حباً نابعاً من القلب، ويفنى بمن يحبهم. وقد رغبهم ذلك فيه، ودفعهم إلى أن يختاروا، أن يكونوا أصحاب عقيدة دينية أو فكرية. فالإنسان لا يمكن أن يعيش بلا مبدأ، بلا عقيدة. وكأن طالباً في رسالته يذكره بعهدهم القديم.

تعب سعيد من الوقوف فسار إلى الأريكة الخشبية، وجلس مرخياً ساقيه. وبدأ يحلل في ذهنه محتوى الرسالة في توجس غامض، قائلاً لنفسه "إنه يحثني على السير في طريقي، وأن أتطور. وهذا شيء صحيح. وأي إنسان لا يريد ذلك؟ ثم يعرض عليّ كتباً. لا بأس ليرسلها. أما العرائض فأنا مستعد للعناية بها أكثر. وسأهتم كثيراً بالرسائل الآتية من الصحراء. كان ذلك واضح ومستقيم، وممكن التنفيذ. ولكن سعيداً أحس برهبة سقيمة تجوف قلبه. رهبة غير مفهومة على الإطلاق. ألعلها من تلك النسخ الخطية تأتي من سجن. ألعلها من تلك العلاقة الجديدة بين طليق وسجين، ولو كان الأخير صديق الصبا؟ إلا أن هذه الرهبة لم تستطع أن تمحو الطعم الحلو الذي أحس سعيد به منذ البداية، وكأن الرسالة مصافحة صميمية. والآن كانت تنمو في نفسه رغبة جديدة قوية في أن يفعل شيئاً على مستوى هذه الرسالة، أن يمتلك شيئاً. ما هو؟ غير محدد تماماً. ربما هو كتاب مثل مدام بوفاري، ربما هو معرفة، ربما هو عوالم جديدة لم يكتشفها بعد، ربما هو مغامرة لإثبات الجدارة في الحياة. وكان يحس بتفتح نفسه، وفراغها المستجدي امتلاء. وتحرك، وتناول قطعة كباب من المقلاة السوداء الموضوعة على الموقد قرب إبريق الشاي. مضغها وأحس بها قوية مالحة. دفع بقية القطعة في فمه ليحرر يرده ويصب لنفسه قدح الشاي، مفكراً "كباب ثلاثة أرباعه طحين، ولا تهضمه المعدة إلا مع الشاي!". وخطر بباله أنه تناول ذات مرة مثل هذا الكباب في مكان ما، ربما على مقربة من مقبرة الغزالي. وحاول أن يتذكر لماذا كان هذا هناك ولم يتذكر. ولكنه تذكر المقبرة. كانت تمتد حتى ساحة الطيران تقريباً بمحاذاة شارع مبلط رصيفاه متربان، وعلى جانبيه دكاكين مصلحي السيارات والحدادين. وكانت عند باب المقبرة سوق مكشوفة تباع

فيها المواشي، وتعرض الأطعمة والملابس القديمة على عربات يدوية، ويصطف الحلاقون صفاً واحداً يجلسون زبائنهم على صفائح، ويحلقون لهم في الهواء الطلق، والذباب حول رأسهم هالات سوداء. وفي السوق رائحة أعشاب طيبة جافة، وخضرات فخرتها الشمس، ورائحة أصواف أغنام وبعرها، وقذارة أجسام بشرية، ودم في طريقه إلى التخثر. وبعد السوق يمتد شارع إلى اليمين حتى المسلخ وشيخ عمر، بينما يصعد شارع آخر إلى محطة قطار صغيرة قربها بيوت طينية. أية محطة تلك؟ لا يتذكر أيضاً. إلا أنه كان هناك ذات مرة، وسار في أزقة تسننت أرضها الطينية بعجلات السيارات، وجفت، وأصبح المشي عليها عسيراً، وستبقى آثار السيارات حتى موسم الأمطار التالي حيث تغسلها، وتعد الطين لعجلات جديدة. أحس سعيد بلذة وهو يتذكر هذه الأشياء، وبحزن وأسف لأنه لم يتذكر لماذا كان هناك، وفي أي وقت. كان عالماً غريباً بعيداً متصلاً بشيء جميل وطليق. ربما هو الطفولة. كانت عربات السكك تقف متفرقة مهملة، على قضبان صدئة إلى جانب المحطة. وتذكر أنه كان يصعد إلى العربات مع أولاد آخرين... نعم... تذكر.. كان ذلك عندما كان تلميذاً في المدرسة الحسينية. وكان مدير المدرسة يلح عليه في تسديد أجور الدراسة، وكان أبوه خارجاً في سفر. فكان يهرب من المدرسة خجلاً من تلاميذ سدد آباؤهم أجور دراستهم، وكانوا ينظرون إليه بترفع لأنه تلميذ فقير. وكان المعلمون يشجعون ذلك حتى يدفعون إلى دفع الأجور بسرعة. وظل أبوه مدة طويلة في سفره. وذلك اضطره إلى الهروب من المدرسة. وقضاء الوقت بعيداً عن الأنظار حتى يحين وقت الغداء فيعود إلى البيت مثل التلاميذ الآخرين.

الآن استطاع أن يشمل كل منطقة الهروب بخياله. كان إلى جانب الطريق المؤدي إلى محطة القطار منحدر

تجمع فيه ماء أخضر. وكانت على حافة الماء الأخضر هياكـل سـيارات قديمـة مهملـة باركـة علـى الأرض بـلا رفـراف، ولا أبواب. وكان يتخذها بعض الناس مـأوى حينـا ومرحاضـاً حينـاً آخر. وكان جمع كبير من الرفارف المهشمة المأكولة بالصـدأ تتناثر في الساحة مثل آثار معركة قديمة. هـذا عـالم غريـب كم اشتاق له. وحين نهض شاعراً بالخدر يتسلل إلى رجليه عقد العزم على أن يذهب إلى هناك.. اليوم.

الثالث

في السوق الصغيرة البريد المركزي مقهى حقير كان في وقت ما دكاناً لبيع الجنفاص المستورد من الهند ما تزال رائحته تقبع في أعماق المقهى مثل فروة حيوان ميت. هذا المقهى الصغير العائد إلى إنسان هزيل مصاب بالربو والتهاب المثانة لا يمكنك أن تجلس في داخله أكثر من عشر دقائق، إلا أنك تستطيع أن تجلس، في أغلب الأوقات، على مقعد وثير أو أريكة ناعمة بالقرب منه. ذلك لأن هذا المقهى المتقيح الأمعاء يقع مقابل مخزن كبير للموبيليات عائد إلى رجل مزواج عيناه دائماً تبحثان عن عروس جديدة أصغر منه بعشرين عاماً. كان ينشر موبيلياته خارج مخزنه، وعلى الجانب الآخر من السوق قرب المقهى.

كان شريف سئماً جداً. كان السأم، هذا الحيوان الخرافي ذو الألف والسبعمائة ذراع. يطوقه بقوة حتى يكاد يخنقه، ويؤثر حتى في مشيته، فيسير وكأنه شارب خمرة رخيصة. سلم على صاحب المقهى، فردّ عليه وسعل، وبصق في أحشاء مقهاه، ودعاه إلى الجلوس على التخت الوحيد في المقهى فقال:

_ لا، سأجلس هنا.

كانت إلى يسار المقهى أريكة ذات قماش مخملي أخضر كأوراق شجر التفاح، وحاشية مذهبة يتوسط أعلى متكأها تخت مثل تاج الملك. جلس شريف عليها مرتاحاً، ونظر يميناً ويساراً. كان جلوب غير موجود:

_ أين جلوب أبو الفشافيش؟

_ سافر ليدفن أمه في النجف.

_ تصور! يبيع فشافيش، وعنده فلوس ليدفن أمه في النجف لا في الشيخ معروف.

_ الناس عندها فلوس. أنت وحدك المفلس.

جرع الحقيقة وسكت مقلباً الشاي بين يديه. رشف رشفة صغيرة منه لذعت لسانه. ثم أخرى وثالثة. وحين انتصف الشاي في القدح استرخى شريف على الأريكة شارعاً بملمسها الحريري تحته، ووراء ظهره وقال لنفسه: ما أروح الجلوس عليها! سعداء أولئك الذين يملكون بيوتاً فيها مثل هذه الآرائك. وسأل نفسه: ترى، من سيشتري هذه الأريكة الجالس عليها؟ عروسان؟ تاجر حدايد أو مصارين؟ موظف أصلع أو أعمش؟ راقصة أو بيت سري للدعارة؟ أم عائلة محترمة عندها سبع بنات ينتظرن الزواج؟ من سيشتريها؟ وفكر بتلك الآرائك التي جلس عليها هذه الجلسة خلال الأشهر التي عرف فيها محسن الجايجي. أرائك كثيرة ذات ألوان شتى، وملامس متعددة بيعت كلها، فأين هي الآن؟ في أي بيت؟ ربما تتمدد على إحداها الآن فتاة جميلة في قميصها البيتي الرقيق حالمة بفارس أحلامها، أم امرأة ورجل يتطارحان الغرام، أو زوج مهموم من خيانة زوجته يدخن السيكارة بعد الأخرى. كل شيء جائز. والموجع أنهم لا يعرفون أن شاعراً عبقرياً مطوياً الآن في تلافيف الحياة جلس عليها قبلهم. لا تعرف تلك الفتاة الحالمة الملتصق جسدها الغض بمخمل الأريكة أنها لو شمت القماش لشمت رائحة جسده أيضاً، وستمتزج رائحتها برائحته في حرية غريبة على البشر. وسرّ شريف بهذه النتيجة، وضغط بثقله كله على الأريكة ليترك أثرها عليه. بل راودته فكرة أخرى.

شرب الشاي، ووضع القدح على الأرض، وقال لمحسن:

_ أرجوك أن توصي لي على نصف ماعون كباب.

بعد دقيقة سمعه يصيح، وهو في منتصف السوق "نص ماعون كباب!" وجاء الكباب بسرعة. وضعه الغلام على كرسي أمامه، وشمر شريف ذراعه للأكل. وقبل أن يمضغ

اللقمة الأولى أقبل عليه صاحب الموبيليات مهرولا بقامته الطويلة، ووجهه المثقل بلحية شائبة، وقال بقلة أدب:

_ أنا لم أفتح مطعماً.

_ سآكل بسرعة، دعني مستريحاً.

_ لا، يا عيني.. وإذا وقعت نقطة دهن على القماش؟

وكأنه حزر ما أراد شريف أن يفعل. نقطة دهن صغيرة لا تكاد تبين في هذه السوق شبه المظلمة تترك أثره على الأريكة، فيدخل بيوتاً مجهولة، وتهم به نساء مجهولات يقفن أمامه متحيرات، فيبقى طلسماً في عيونهن، أثراً من آثاره التي لا تمحى.

أصر صاحب الموبيليات فاضطر شريف إلى النهوض، ولما رآه يحمل الصينية قال وراء ظهره:

_ وأرجوك لا تقعد على القنفات مرة أخرى. كل شيء جائز.. يمكن تفسي! حرك شريف لسانه بكلام صارم لم يسمعه إلا محسن الجايجي الذي كان مسروراً جداً، وكأنما من انتصاره أخيراً في حمله على الجلوس داخل مقهاه.

إلا أنه لم يصطبر. مسح شفتيه بيده، وحمل اخطبوط السأم، وغادر المقهى عبر السوق باتجاه السراى. في تلك اللحظة بدت السوق الفواحة بالرطوبة والأنفاس المحبوسة والخشب القديم المبلل مثل أنبوبة هائلة مظلمة ثقبت من أعلاها ثقوباً كبيرة ألقت الشمس منها فراء حيواناتها الشقر، فاستقرت ناعمة تحت الأقدام عاكسة ألقها على الركبتين حين يقترب منها شخص أو يطأها. ثم توهجت الشمس على يمينه في الفسحة إلى جانب البريد المركزي فاستدار نحوها. كانت في الفسحة سيرتان تفرغان أكياس البريد الجنفاصية الخشنة، وعلى الأرض تتناثر أكياس مثلها وصناديق. كانت تحمل رسائل. واقترب منها بفضول صبي، ووقف أمامها متأملاً سائلاً نفسه: من أين جاءت كل هذه الرسائل؟ من بلاد بعيدة أو من مدن

العراق الجنوبية؟ ومن كتبها؟ فتى عاشق أم فتاة مخدوعة، أم شاعر يحتج على جريدة لم تنشر عصماءه، أم عريضة من تلك العرائض التي يلخصها سعيد بكثرة أم "بقينا متشوشتين والعجوز ما تنام الليل" كما يكتب أبوه. وفكر شريف مستغرباً: عجيبون هؤلاء البشر، كم لهم من مشاكل، وكم لهم من قصص ومن أحزان تبدو للآخرين تافهة وغير مفهومة، وشكاوى بعدد النجوم والحصى والتراب. كم لهم من مسرات وأحلام نادرة ومبتذلة. وقال شريف لنفسه: إن الخالق على أية حال عبقري. خلق كل هذه الأمزجة والطباع والناس والحيوانات، والملائكة والشياطين، والعباقرة والسفهاء، والوسماء والمشوهين، والنمل والفيلة، وأودعهم تلك الحديقة الوحشية المسماة بالحياة. وعلى كل مخلوق أن يمر بدوربها المدغلة متحصناً ضد المخلوقات الأخرى. إلا أن الشاعر والمفكر والنبي لا يكتفي بالمرور، بل يحاول تشذيب الحديقة، وتحسين دروبها، فتثور عليها الحياة بغباء جاهل متوحش حاولتَ أن تضع النعل في قدمه المفطورة. وتذكر شريف أنه لم ينظم قصيدة منذ وقت طويل. أنفق عملة أحلامه في سوق صبرية والحورية الساكنة وراء القصر الأبيض، والجوع، وتفاهات ابراهيم الذي كان يريد أن يتزوج قبل أن يصلع تماماً. وقرر شريف أن يفكر بقصيدة تحمل هذه المعاني. فكر فيها طويلاً حتى وجد نفسه قرب المتصرفية. سار كل هذه المسافة وهو كالنائم. فماذا لو صدمته سيارة؟ قال لنفسه في غيظ منها: أنا أعرف أنني سأموت ميتة فاجعة، وسيغتالني الموت غدراً. أنا أعرف أن حبل عمري قصير ستقطعه جسامة أحلامي. وعبر الشارع متوجساً، شاعراً بيد الموت على بعد شبرين فوق رأسه. ستخرج سيارة من هذا الزقاق وتسحقه. حث خطاه مستجيراً بمقهى، أي

مقهى. ولكن ما أن هم بالدخول في مقهى نهاية شارع المتنبي حتى رأى أباه أمامه. هتف:

_ هاي! أي عفريت ألقاك هنا؟

قال الوالد:

_ بحثت عنك في كل مكان.

أمطره شريف بالأسئلة:

_ متى جئت؟ لماذا جئت؟ كم ستبقى؟ أين نازل؟

وسمعه يرد وراءه دون أن يلتفت إلى رده. وجلسا في زاوية قصية من المقهى قرب حباب الماء. وقبل أن يأتي الساقي سأله:

_ جوعان؟

_ أتحمل إلى الظهر.

سأله شريف عن أمه، قال:

_ زينه! بس ظهرها يوجعها، وسنونها خايسة، وقلبها غايص في بئر.

قال شريف:

_ هذه علائم الكبر.

هزّ الأب رأسه مؤكداً. وقال:

_ كبرت. إذ ابنها ما شاء الله!

ونظر إلى شريف ملياً، فسأل شريف صارفاً تمعنه فيه، عارفاً ماذا سيكون بعد هذه النظرة.

_ كيف بعقوبه؟

_ مثل ما تركتها.

_ وبيت صادق أفندي؟

_ نقلوه لشهريان.

وصمت شريف يفكر. لو نقلوا صادق أفندي قبل سنتين لما جاء إلى بغداد.

_ والسيد أحمد؟ كم يغلق دكانه في اليوم؟

ضحك الأب ضحكة جعجاعة، وقال:

_ فات الحساب.
السيد أحمد، عطار محلتهم مصاب بإسهال دائم. ولما كان لا يثق بالناس كان يغلق دكانه بين ساعة وأخرى ليقضي حاجته في الجامع. ومن المناظر المألوفة أن تراه راكضاً في الشارع باتجاه الجامع متوتراً لا يلتفت إلى أحد، أو عائداً منه واهن الخطى، رخي القسمات.
سأل شريف:
_ ماذا تغيّر من بعقوبة؟
_ على حطة يدك.
_ و...
_ كافي، كافي – صاح الأب مقاطعاً – أخذتني بالسؤالات. أنا أريد أسألك.
قال شريف قاطعاً عليه الطريق:
_ ليس عندي شيء جديد.
_ أين تعيش؟ وكيف تعيش؟
_ أعيش على سطح جريدة وأبحث... أبحث.
_ تبحث عن شغل؟ ما اشتغلت بعد؟
_ لا.
_ لو باقي في بعقوبة ما كان أحسن؟
_ ماذا كنت أعمل هناك؟
_ في المحطة. ياسر كان يريدك تشتغل.
_ لا. اشتغل مسجلا، وكل النهار يدي ملطخة بالحبر.
_ كان تدرجت. وكل يوم في بغداد.
هزّ شريف رأسه. متى فهمه أبوه ليفهمه اليوم. قال له في غضب:
_ تريدني أطلع شرطياً مثلك؟
_ ما أريدك. أنا أعرف أنك صاحب دماغ وتفتهم. ولكن الدماغ وحده ما ينفع.
_ اصطبر عليّ.

_ إلى متى؟ بعد أن أموت؟
قال شريف صارخاً:
_ كم سنة قضيت أنت في الشرطة؟
_ هذي السنة العاشرة.
_ ومتى أصبحت نائب عريف؟
_ قبل ثلاث سنوات.
_ بعد سبع سنوات من الخدمة الممتازة، بينما ابنك شاعر ثائر ليس من أولئك الشعراء الذين يقدمون للقراء أطباقاً جاهزة منقولة وصفاتها من أي كتاب. ابنك ثائر.
_ على من ثائر؟ على الحكومة؟ لا تورطني.
_ أنا ثائر على جيل كامل.
سأله الأب:
_ منو جيل كامل هذا؟ متصرف وزير؟
_ أهوه – هز شريف ذراعه – جيل. جيل! يعني ناساً، خلقاً.. يعني مفاهيم، يعني تصورات خاطئة، صيغاً بالية، عموداً شعرياً.
_ وتنطح رأسك بالعمود؟ قبلك ملك اصطدم بالعمود ومات.
_ اهوه. لا يمكن الكلام معك.
وضجر منه. وأدار له وجهه. وطلب من ساقي المقهى طاسة ماء. وساد صمت مخنوق. أطرق شريف برأسه، وسمع أباه يقول بيأس:
_ كنت أتصور راح أشوف ابني موظفاً.
_ ابنك لا يتوظف بعد مائة سنة.
_ وأمك تحسبك صاحب فلوس الآن. وصتني أن تشتري لها لصقات لظهرها وصبغاً لشعرها. وأسنانها خايسة وتريد سنونها تلمع. كنت أتصور..
_ لا تتصور – قاطعه شريف – هل جعت كثيراً لتتصور؟ الإنسان حين يجوع يتصور تصورات غير مفهومة. قم نتغدى.

في أول الشارع مطعم وجبة الأكل فيه تجعلك شبعان لمدة يومين.

الخمسة

وقف ابراهيم في زقاق في الحيدرخانة يتأمل هذا الجانب من شارع الرشيد. كان الناس يسيرون بعجالة في اغبرار ازرق تثيره حركة سيارات مجنونة تهز الهواء بزعيق منبهاتها. هذا هو اليوم الثالث. الوجوه مجهدة خط عليها تاريخ اليومين الماضيين، والعيون جوارح جائعة إلى النوم، بؤر حادة مثل تلك الرؤوس الماسية في آلات قطع الزجاج. كانت تنفذ. تشق نقاب الغبار المزرق بحركات قلقة باحثة عن شيء ما. وكانت تتوقف أحياناً عند نقطة ما. وتتابع حركتها. مرّ قرب مقهى الزهاوي رتل من السيارات المعبأة أحواضها بالناس، فتعلقت العيون بها، وراقب سيرها. وصاح رجل في أثرها: "الاعتماد عليكم يا شباب!" كان مفهوماً له مفهوماً لكل الناس إلى أين ذاهبة هذه السيارات. في اليومين الماضيين كانت تنطلق في الشوارع ذاهبة إلى هناك. وعلى الأرصفة نوع من البشر يسير سيراً كالهرولة. أناس متشابهون تقريباً، يحملون على رؤوسهم كل ما يملكونه في الدنيا، ويفرون من شيء مفزع. حفاة في الغالب، مسربلون بالسواد، ذوو أجسام نحيلة، ووجوه ضامرة، وأذرع نحيلة معكوفة. كانوا علامة شؤم حتى صار الناس يفزعون من كل حمولة موضوعة فوق سيارة أو رأس آدمية. ويعتبرونها علامة على دنو الساعة المهلكة التي ظلوا يترقبونها طوال اليومين الماضيين، ويسهرون الليل معها أو ينامون نوماً كابوسياً. وفي النهار يتطلع بعضهم إلى بعض سابحين في بحر من الهواجس والشائعات، ملتقطين كل كلمة عابرة، محاولين مع ذلك أن يروا بأعينهم الشيء المخيف الذي ينمو بإصرار لا مراد له، مثل شمس صيف تزحف ببطء مجتاحة كل شيء تحتها. وكانوا يأتون إلى شواطئ النهر ليروا كيف يتضخم ويزحف. وابراهيم مثلهم.

كان يستقبل النهر قبل أن يذهب إلى الجريدة، ويضع علاماته الخاصة. وقرب مديرية الشرطة شمّ رائحة النهر الطينية الباردة، ورأى لوريات كدرة اللون تحمل أكياساً.

وقف عبد الخالق يحدق بها وهو ذاهب إلى دائرته. وفكر مع نفسه: هذه السيارات ستنطلق إلى إحدى السداد. سيضعون الأرفاش فوق الأكياس وينطلقون. بينما أبقى أنا حبيس الدائرة. فلماذا لا أذهب وأكافح على إحدى السداد؟ سأتلفن من الدائرة إلى سعيد، وآخذه معي. سيده غوركي عمل حمالاً على بواخر الفولغا، فلماذا لا يحمل كيس رمل ليحصن بغداد المهددة بالغرق؟ سأتلفن له حتماً. وسنذهب سوية، ونحرك مفاصلنا. في الأيام الماضية رأى عبد الخالق آثار الكارثة على وجوه الناس. الوجوه الحية توترت، والشمعية تخددت. شكراً للكارثة. ليس في العالم أصدق منها في اختيار قوى الإنسان. ربما هذه آلام الولادة الجديدة التي يتوقعها. آلام المخاض الجسدي والروحي. وتملكت عبد الخالق خفة نشوى، وكأن جزءاً من القيود التي كانت تشده في الماضي قد قطع، كان يسير طليقاً في هذا الشارع، أرفع قليلاً من تلك الحمير التي تجر طاحونتنا الاجتماعية. فهو ذاهب لغاية، ووراءه عمل مدفوع إلى تأديته بقوة داخلية. سيرفع التليفون ويكلم سعيداً.

ودق الجرس في غرفة التحرير. سمع شريف دقاته المتتابعة الملحاحة، ولم تثر في نفسه رغبة في النزول. لا يريد أن يبدأ صاحبه بصوت قبيح يسأل عن مناسيب الماء. كان يترقب خروج الحارس محمد ليطلب منه سيكارة. كانت نسمة خفيفة تنفذ إلى جسمه من خلال البطانية، وتحمل إلى أنفه رائحة النهر الطينية التي كان يشمها في الليل، ويحس بها ترفرف فوقه مثل روح شريرة. في الليل كان يتصور النهر قد طفح، وهو الآن يدب نحو البناية مثل أفعى مسمومة، فيخرج من الغرفة مذعوراً ملتفاً بالبطانية. وينظر

إلى النهر. ومرة غفا وحلم بأنه يقود زورقاً في باب المعظم وقد تحول إلى جدول، زورقاً بين الجندول والشادوف. وفجأة سمع صوتاً ناعماً يناديه في محطة الباص. التفت ورأى حوريته الساكنة وراء القصر الأبيض تلوح له طالبة أن تركب الزورق معه. جذف نحوها بثقل ومشقة. واقترب من حوريته بعد عناء شديد. ولما مدّ لها يده أشاحت عنه وجهها. وفي النوم لم يسمع ماذا قالت. ولكنها كانت تشير إلى الجندول وراءه. والتفت ورأى صبرية جالسة في الجندول. لم يعرف من أين جاءت. لم يذكر أنها كانت راكبة معه. صرخ بها غاضباً. ورآها تقف مربدة الوجه وتلقى نفسها في الماء، وتتحول إلى سمكة سوداء الرأس. فزع واستيقظ من النوم. وظل متيقظاً وقتاً طويلاً حتى رأى شقوق الباب تشف عن زرقة زجاج غير صاف، ثم تتحول إلى لون رمادي. ونهض، ومد ذراعه إلى الأرض، وتناول علبة السيكاير منها. ودخن آخر سيكارة في العلبة، سيكارة على الريق لتنظيف الصدر، وأدار فريضة السعال الصباحية. ولم يرم السيكارة حتى أحرقت إصبعه. نهض. والتف بالبطانية ثانية، وخرج ورأى ألق الشمس يطرز السماء الشرقية. واتجه إلى اليسار بعيداً عن حائط الأرملة التي اشتكت منه. ورفع جسمه على بلاطات ليرى النهر. رأى رؤوس الحدائد قرب نادي الضباط الشبيهة برؤوس سمك الجرى. وتذكر رأس السمكة التي رآها في الحلم. وقال وهو ينزل البلاطات: إن الحلم لخّص حياتي كلها، وانه صادق حتماً. وإذا ذهب إلى باب المعظم رأى حبيبته بانتظاره عند محطة الباص. وعزم على الذهاب. وتذكر أنه لطخ بنطلونه بلطخة كبيرة. نزل إلى الحوش ملتفاً بالبطانية، وغسل اللطخة تحت الحنفية، وصعد إلى السطح ثانية، ونشر البنطلون على الحبل، واتكأ على الدرابزين. ودق الجرس في غرفة التجرير. سمع شريف دقاته المتتابعة الملحاحة، ولم تثر في نفسه رغبة في النزول.

كان يترقب خروج الحارس محمد ليطلب منه سـيكارة. وبعـد فترة خرج ابراهيم من المجاز.

سـمع فوقه صوتاً يناديه:

_ ابراهيم، عندك سيكارة.

رفع ابراهيم رأسـه إلى فوق فرأى شـريفاً متكئـاً علـى الدرابزين ملفوفاً ببطانية سوداء، وسـاقاه عاريتان.

_ عندي، ولكن لا تنزل بهذه الهيئـة. أنـت فـي جريـدة عامة.

_ إذن تعال أنت. لا أسـتطيع النزول لسـبب وجيه.

_ انتظر إذن.

وسـمع ابـراهيم جـرس التلفـون فـركض إليـه ورفـع السماعة، وسـمع عبد الخالق يسـأل عن سعيد:

_ سعيد في المطار الآن.

_ تـوتر صـوت عبـد الخـالق بسـؤال غاضـب، فأجـاب ابراهيم:

_ دعاه الجيش الأمريكي لمشاهدة بغداد الغريقة مـن الجو.

_ وسـمع ابراهيم سباباً. فردّ ابراهيم:

_ أو النقطة الرابعـة بـالأحرى. وعلـى العمـوم سـأبلغه رأيك فيه إذا عاد سالماً.

وفي السطح سأل شـريف ابراهيم:

_ من هذا الثقيل الذي يتلفن في الصباح عدة مرات؟

_ عبـد الخـالق يريـد أن يـذهب مـع سـعيد لمكافحـة الفيضان. ألا تريد أن تذهب أنت؟

_ سأذهب حين يصل الماء قرب القصر الأبيض.

خمن ابراهيم ماذا يقصد فتساءل:

_ ولكن صاحبتك الفنانة ساكنة في شارع أبي نؤاس.

_ هناك متاع الجسـد، أما الروح..

وأشار بذراعه صوب الشرق، فبدأ مثل هندوسي يشير إلى النهر الذي ذرا فيه رفات أجداده. كان شريف منتفخ الوجه محتقن العينين، وكأنه لم ينم ليله. وكان شعر صدره الخشن يبدو مثل شعاف البطانية السوداء. رأى ابراهيم في وضح الصباح تحبب الجلد على صدر الشاعر وكتفيه، والخطوط السوداء التي تحز الرقبة الغليظة البادية على مستوى واحد مع صفحة الخد المنتفخ. فوجد نفسه يقول:

_ لا تفرط في غذاء الجسد فيسمن ويتشوه على حساب الروح. عليك أن تتجه نحو روحك.

قال شريف؟

_ لا تضحك. أنا ذاهب الآن إليها. فقط أن يجف بنطلوني. في الليل حلمت بها.

_ حلمت بروحك؟

_ سمعتها تستغيث طالبة أن أنقذها.

_ ألم أقل روحك في خطر؟

_ وضحك ابراهيم ثانية. تجمع كل ما في وجهه حول أنفه. تركه شريف وانجه نحو بنطلونه، ولمسه. جفّ تقريباً. إلا أن اللطخة لم تختف كلياً. سأل شريف:

_ أين سعيد إذن؟ وعدني بمائة فلس لأول مرة في حياته.

_ هو الآن في السماء. ستمر طائرته الهيلوكوبتر فوقنا.

كانت طائرتا هيلو كوبتر مقرفصتين على أرض المطار. تقدم رجل من سعيد وقال بالإنكليزية وهو يقدم له ورقة:

وقّع؟

_ على ماذا؟

_ على أن الجيش الأمريكي غير مسؤول إذا حصلت حادثة في الجو.

التفت سعيد إلى زملائه فرآهم يوقعون على أوراق مماثلة. ولكن ذلك لم يطمئنه. تناول الورقة وهو يحاول أن يكون جملة إنكليزية تعني: أهذا لابد منه؟

إلا أن فكره انشغل في محادثة كانت تجري وراءه:

_ إذا سقطت الطائرة واكتشف الناس جثثنا لا يندهشون، لأننا كنا في طائرة أصدقائنا. ولكن ماذا سيقولون إذا وجدوا جثة مندوب "الناس" المعارضة؟

_ ستجد "الناس" تبريراً لوجوده مع الكفرة والعملاء في طائرة واحدة.

_ لا. ستتبرأ منه وتكتب: طار بصفته الشخصية.

_ لا. ستقول هذه مؤامرة.

قال سعيد:

_ وهذا هو الصحيح. ولهذا سأركب مع أخلص أصدقاء النقطة الرابعة تأميناً لسلامي.

ووقع سعيد. وصعد.

وجلس عزيز على الأريكة. وراح يثرثر. قصّ عبد الخالق أنباء محلته كلها. وأضاف إليها أن فلاحاً من الزعفرانية نجا من الغرق بأعجوبة، واحتمى بتل، منتظراً من ينقذه. واغسق الليل، ولم يأت أحد. كان جائعاً تعباً تخفق ريح باردة على ردائه. ثم لمح في الضوء المحتضر شيئاً يدب على سطح الماء. استبشر. حسب ذلك قارباً غريقاً. ولما اقترب تبين أنه "فدان" خشبي غطس وسطه الثقيل في الماء، وطلعت نهايتاه الخفيفتان فوق سطح الماء، وعلى أحدهما ديك، وعلى الأخرى أفعى.

عندما انصرف عزيز تذكر عبد الخالق وصف فولكنر لمناظر الفيضان في "النخيل البري"، وجولة السجين الهارب على قارب دنيا مجهولة مظلمة صافحة في الماء، بين البيوت الغرقى، والحيوانات النافقة، والفضلات العائمة، والتقاءه بحبلى فوق سطح منزل، وتطوافه معها بلا هدى.

وفكر عبد الخالق لئن ذهب إلى السـدة، وركـب قاربـاً لـرأى نفس المناظر والمآسـي، والمـوت راقـداً قـرب حيـاة تحتضـر. ولكن أين الكاتب الشعبي الآن ليأخذه معه؟ يطير في طائرة استعمارية، أو ربما يعد حزمة الدولارات التي أعطيت له في مظروف كتب عليه "مع تمنيات النقطة الرابعة بخدمة أفضل" أو يتشـنج بكأس من الويسـكي قدمت له لتبدو بغداد لعينيـه من الجو مشـمولة برعايـة العـون الأمريكـي. هـوه.. تفـو! لـم يكتف عزيز بالثرثرة عنده فراح يثرثر عند الباب:

_ عزيز.

_ نعم، أستاذ.

_ كفى ثرثرة. رأسـي سـيتمزق.

ومن الفناء كانت تتصاعد ضجة أخرى ملتاثة. كـرة مـن الأصوات المتشـابكة لها رؤوس مدببة حـادة أحـس بهـا عبـد الخـالق تتـدحرج علـى أعصـابه. هـؤلاء النـاس لـم ينسـوا مشـاكلهم اليومية حتى في هـذه اللحظـة. جـاؤوا يصـرخون بها. وإذا لم يجدوا حلاً وجدوا متنفساً في الصراخ والشـتائم، وكأنهم لا يدرون أنهم رهائن معركة تجـري هنـاك. سـيذهب الآن إلى السـدة حتماً. لا يطيق البقاء مع تلك المغازل التـي تغـزل الأقـدار عليهـا أكفـان الآخـرين. سـيتلفن إلـى حميـد التافه.

كان حميد مسترخياً علـى كرسـيه. انطفـأت الرغبـات فـي نفسـه هـذا اليـوم الواحـدة تلـو الأخـرى، وتركتـه مثـل عجينة هشـة. لم ينم في الليلة الماضية. كانت هنـاء تلـوب. وكانت أمها تناغيها مناغاة كئيبة مثل تلقـين محتضـر. وخـرج من الغرفة ليشرب ماء بارداً مـن الحنفيـة لأن صـدره يحتـرق مـن خمـرة البارحـة. ولمـا عـاد إلـى الليـوان سـمع الأنـين الجماعي عبر جدار الغرفة الرقيـق يشـف مـن شـباكه ضـوء مصباح خافت فتخيل أنه أمام ضـريح، وهـذا الضـوء هـو ضـوء شـمعة هزيلة من تلك الشـموع التـي توقـد فـوق قبـور أئمـة

مهجورين. وقال لنفسه: هذا ضريح حياتي! وتضخم شعور النقمة في نفسه حتى اعترته رغبة جامحة في التدمير لا تنفسها غير كأس من الخمرة يجرعها في الظلام، أمام ضريح حياته. وخرج في الصباح الباكر، وتناول فطوره عند بائع باجه كان غلامه يتحدث عن الأفاعي وتقليع أسنانها.

وفترت شهيته وفي البنك لم يصادفه حظ حسن أيضاً. عرف أن سلمى غائبة. غرق بيتها في بغداد الجديدة، وتغيبت لعذر مشروع. والبنك فارغ مفلس بدونها. والآلات الطابعة تنقر في الرأس إذا ضربتها أصابع غير أصابعها. والموظفون متهجيون يتحدثون عن مآسي الفيضان. وضاق ذرعه، وارتمى على كرسيه يائساً نكداً، وقال لنفسه "ليت الفيضان يحتاج الضريح الذي دفنت فيه حياً، ويطفئ تلك الشمعة التي تأكل قلبي، فأبدأ بداية جديدة.. آه"

دق جرس التلفون. واهتزت أعصابه:

_ سيء جداً، وأنت كيفك؟

أبعد حميد السماعة عن أذنه لأن صوت عبد الخالق كان منفعلاً جارحاً:

_ أصبحت إنساناً إذن؟.. بينما أنا.

وأعاد في سره أمنيته اليائسة تلك. تلقى دعوة لمكافحة الفيضان.

_ موافق. أين تنتظرني؟.. ليذهب سعيد الخروف إلى جهنم وبئس المصير.. حسناً تلفن لابراهين.. هناك سنلتقي.

خرج شريف لملاقاة "روحه" في باب المعظم. وجلس ابراهيم إلى مكتبه. الجريدة ساكنة. والشباك أمامه قضبان على خلفية ترابية ملساء. وعاد ابراهيم يفكر في الفيضان. كيف سيؤثر في حياة الناس. كيف سيسقط وزارة الجمالي من كراسيها. الفيضان مأساة، لأن الحكام متهرئون، ومشغولون بكراسيهم. وحين يفجأهم يهتمون بالحفاظ

على عاصمة ملكهم فقط، ويتلاعبون بمياه الفيضان كأداة للتخريب السياسي. يحفظون بساتين أصفيائهم، ويسوقون المياه إلى أراضي خصومهم في السياسة. يجب أن تفضح هذه اللعبة، أن تقوم الصحافة بدورها في مكافحة الفيضان، على طريقتها الخاصة. وعاد إلى ابراهيم تصوره القديم بأنه ربان سفينة ستبحر اليوم عبر القرى والبساتين التي غمرها الفيضان، وتكشف عن المآسي وتلتقط الحقائق المحجوبة عن الناس. ودق جرس التلفون:

_ أهلا عبد الخالق... لم يأت سعيد بعد... أنا؟ ولمن أترك الجريدة؟.. لا تخف، سأكافح الفيضان أيضاً بطريقتي الخاصة... اذهب أنت وفتش عن شريحة من الواقع لتصوغها قصة.

أطبق عبد الخالق السماعة على فم ابراهيم. لتتكسر أسنانه. يريد أن يعلمه كيف يكتب قصة. هؤلاء الناس تختزل الدنيا لديهم في الشيء الذين يمارسونه كل يوم، بنفس الرتابة والقوانين الجامدة. والفيضان عملية مراقبة من بعيد. الفيضان عندهم طفح غريزي للطبيعة كالمطر يفيض زمناً، ثم لا يلبث حتى تشربه الأرض الحنون دون أن تتشوه أو تتسمم أو تثور. بينما الفيضان هزة اجتماعية تضع الناس أمام الحد الفاصل بين الموت والحياة، تبصرهم بأنفسهم، تجعلهم يفكرون بها. تمزق كل الأقنعة التي غزلها لها مغزل الحياة فوق وجوههم، وجعلتهم يعيشون حياة مستعارة. وعبد الخالق يرى الأقنعة الآن تتساقط عن وجوههم، والموتى المتقنعون يقبرون، والأحياء يصمدون للمعركة. إنه يرى من خلال الكارثة وجه الحقيقة.

كانت السيارات تهز الشارع هزاً مدوياً، وكأن عجلاتها تغوص في أعماق الأرض. كان كل شيء يهتز، وكان الناس ينظر بعضهم إلى بعض، وكأنهم اكتشفوا لأول مرة أنهم على سفينة توشك على الغرق. يا مرحبا بالكارثة إذا كان

لها وجهها الإيجابي. مرحباً بالأرض تهتز وتتمخض عن شيء جديد. مرحباً باللهيب السائل يحرك الناس على ما تنطوي عليه أنفسهم.

جاء حميد والابتسامة متجمدة على وجهه. سأله عبد الخالق:

_ هيا لنذهب. أتعرف أين يعلون السدة؟

_ لا أعرف – ثم بعد قليل – ربما في بغداد الجديدة.

_ ملعون، في بغداد الجريدة لا توجد سدة.

وقال حميد لنفسه: ولكن توجد سلمى. أوه، ليته يذهب إلى هناك، ويساعدها على تحصين بيتها. ومع العمل المشترك ضد العدو تتوثق العلاقة وتزدهر. سيراها في لباسها البيتي، ويشم رائحة جسدها ممزوجة مع الطين الطازج.. وصحا من أفكاره على صوت عبد الخالق الجارح.

_ لنسأل.

وسألا وأشاروا عليهما بالذهاب وراء دار المعلمين العالية. وحزن حميد، وكأنما نفي إلى منطقة نائية. قال عبد الخالق بعصبية.

_ رفض ابراهيم أن يأتي. خاف أن تحك ذرات التراب صلعته. وسعيد الحقير، الكاتب الثوري، يثور الآن في طائرة أمريكية، وجيبه معبأ بالدولارات.

وجنحت الطائرة، وانتفض قلب سعيد. كان مشدوداً بحزام خاكي إلى جسم الطائرة. وعلى بعد ذراع منه باب عريض مفتوح. خاطب نفسه مرتجفاً: لماذا قبلت؟ لماذا وقعت على موني؟ إذا انقطع الحزام تدحرجت في تلك الهوة وتمزقت. وكانت تلك الهوة عالم الناس الثائرين باطمئنان على الأرض. كانوا صغاراً مضغوطين على الأرض. يدبون ويتداخلون، ويندمجون. وكانت السيارات تركض متسابقة وحين تقف تلتحم الواحدة بالأخرى في عناقيد

متعددة الألوان. وانكفأت الطائرة، ورأى سعيد الجسر رابضاً على صدر النهر المنتفخ الأحمر، المفلطح على الجانبين مستوعباً مجاله حتى النهاية، لصق البيوت والأشجار والشوارع. واستدارت الطائرة، ورأى سعيد جسر الكاظمية، واستدارة النهر، والبحر الذي يطبق على بغداد من الشرق. وبغداد كلها مثل جزيرة حوافيها ترابية هشة متخاذلة، وشوارعها بلا تخطيط، وبيوتها ترابية كالحة متكورة على نفسها، مفصولة بعضها عن بعض بخنادق متعرجة ضيقة هي الأزقة التي يسير فيها كل يوم. ولم يجد سعيد ما يسر العين في بغداد من الجو سوى بعض الشوارع العريضة التي تبدو بعيدة عن كتل البيوت، وساحات خضر مهجورة. وبعد ذلك تراب وخرائب. عدد كبير من الخرائب. وندم لأنه ركب الطائرة. وقال في نفسه: هذه الجولة ستترك في قلبي جرحاً.

وفجأة قال حميد:

_ أهذا شريف؟

_ أين؟

_ هناك، عند محطة الباص.

كان هو بعينه قرب العمود منتفخ الصدر كالطاووس يتلفت. ناداه عبد الخالق. حرّك شريف رأسه ببطء. وكانت على وجهه خيبة.

_ ماذا تعمل هنا؟.. تعال معنا.

_ لن أغادر هذا المكان. أنا في انتظار آنسة.

_ سخيف أهذا وقت مناسب لانتظار آنسة؟ تعال نكافح الفيضان.

_ كل عضو فيّ مشلول ينتظر.

_ لا تتفلسف – وجره عبد الخالق من يده – ألا تدري ماذا يجري حولك؟ انظر إلى الناس في محنتهم.

_ لماذا أنظر إليهم في محنتهم، وهم لم ينظروا قط في محنتي.

ترك عبد الخالق ذراعه ودفعه قائلاً:

_ تفو! سيغرق الناس إذا لم تساعدهم.. تعال، حميد، ودعه يموت انتظاراً.

ولكنها ستأتي – قال شريف في سره – هذا وقتها. في الليل حلمت بها واقفة هنا، قرب هذا العمود. وكنت هناك أتقدم نحوها. ستأتي لا محالة. لا أظن أنها ستذهب لمكافحة الفيضان مع الخناشير والخشورات، وتشوه أصابعها العنابية. لو رآها ذاهبة لتضرع إليها بأن تعود إلى كناسها، وسيقوم هو بنصيبها وزيادة. سيكلمها لأول مرة. لأنه لا يصطبر على حماقة. ليست هي ملكاً لنفسها فقط. له حصة منها.

خرجت جماعة من كلية الآداب ونادى حميد واحداً منهم. جرى تعارف. كلهم ذاهبون إلى هناك. هؤلاء وجه الحياة الحقيقي. وانحدروا في منحدر لطيف. وشعر عبد الخالق في نفسه خفيفاً على الأرض. يحرك ذراعه في الهواء بيسر، ويتصور التجربة التي تنتظره، تجربة لم تطل على حياته من قبل. كان يتوسطهم، وكأنه يقودهم إلى معركة المصير. سيسير بهم إلى هناك. وسيخلع سترته، ويفرك التراب في كفه، ويحمله على كتفه، ويرفعه إلى السدة الواقية من الموت.

وصلا إلى محطة بعقوبة. ورأى حميد على أرض فضاء خياماً لا ترتفع عن الأرض كثيراً من متر يتجمع حولها أناس يحبون اللون الأسود والتخفي. قال أحمد للطلاب:

_ هؤلاء سكان العاصمة.

وقال آخر:

_ نعم، وأكثرهم شجاعة لأن السدة قريبة من هنا. والخائفون ذهبوا إلى محلة الصرائف في الوشاش.

تمعن حميد فيهم. كانوا يتمتعون بحرية عجيبة، وهم يزحفون على الأرض الملساء. ويتمرغون في التراب، ويحرقون شيئاً في مواقد داخنة، ولا يحفلون بالمارين. لو نصبت مائدة صغيرة هناك، وجيء بالخمرة لزال تل الضجر العفن. وقال عبد الخالق بصوت مشؤوم: أين الكاتب الشعبي يرى شخصياته؟

حدس حميد من يعنى فامتعض وقال وكأنما صدمت أنفه جيفة:

_ أتحسب سعيد كاتباً؟

_ كاذب لا كاتب. يعظ بالصدق وهو أكبر كاذب.

_ احذر من الوعاظ. أنا لا أطيقهم.

_ أنت تبدو اليوم معقولاً، لأول مرة في حياتك.

ونظر عبد الخالق نظرة مرتابة، وكأنه يعرف سراً. هل قال له سعيد؟ اللعنة على سعيد، سيسبب له عقدة لم يسببها زواجه. حوّل حميد بصره إلى الخط الأخضر المنتهي إلى السدة الترابية. طاروا فوق منبسط مائي لا نهائي تستحم فيه النخيل والأشجار والبيوت وأكوار الطابوق، والمعامل.

وقال سعيد لنفسه: هل سيتخلون عني إذا سقطت في هذا المنبسط المائي؟ هل ستكتب الجريدة عني طار بصفته الشخصية؟ فيكون مصرعي بصفته الشخصية؟ آه، لكم أشعر بالضيق والوحدة في هذه الطائرة العنكبوتية. وفي الجريدة قال ابراهيم وهو ينتهي من كتابة مقال: سيكمل سعيد الصورة بالرؤية من فوق. كيف تبدو المأساة من الجو؟ وبدأ شريف يتعب من الوقوف، وييأس من مجيئها. لماذا يخادع نفسه؟ هي الآن في المختبر أو في صالونها. أو ربما على السدة حماقة. وركضوا. كانت الأرض تساعدهم على الركض، هشة ناعمة. عزم عبد الخالق على أن يندمج في عملية بناءة. تنادى الطلاب فيما بينهم. وخيل

إليه أنه يعرفهم جميعاً. وجوههم مألوفة لـه، متربـة وواثقـة. وتمنى حميد لو يشرب كأساً واحدة ترطب نفسه. وهبطت الطـائرة فـي المطـار، وفـك سـعيد حزامـه، ومـدّ رجليـه المتصلبتين. وظل حميد يتحدث طويلاً دون أن يرفع شـيئاً. وقال أحد الطلاب لعبد الخالق "يا أسـتاذ، جئت في بدلة السهرة" وتثاءب شريف وهو يبتعد من المحطة. لم ينم في الليلة البارحة إلا قليلاً. جر رجليه إلى أقرب مقهى. جوعان. وأحس ابراهيم بنضوب بهيج، وانتظر مجيء سعيد. تحاشى النظر إلى وجوه زملائه. خاف أن يقولوا له: ما رأيك بطائرات أصدقائنا؟ وفتش عبد الخالق عن حميد. اللعنة، أين ذهب؟ وتلمظ حميد وهو يبتعد عن السـدة واشـتاق إلى الخمرة اشتياقاً يعصر مصارينه. وبدأ التراب يتسرب خلال ياقة عبد الخالق. بدلة السهرة! من أين لي بدلة أخرى. هذه لكل شيء. ربما هذه "حوبة" صبرية – قال شريف لنفسه، وعزم على الذهاب إليها الآن. دق جرس التلفون وأمسك ابراهيم بالسماعة. كان صوت سـعيد تعباً وبعيداً، وكأنه قادم من العالم الآخر.

الثاني

لم يكن واثقاً من أنها ستفهمه بهذه السرعة. كانت جالسة أمامه، والباب بينهما، تنظر إليه بعينيها الرصينتي الشبيهتين بعيني أم. ولم يتحمل تحديقها. فأطرق برأسه مسنداً ذراعيه على ركبتيه، وراح يفرك بابهامه الأيمن عضلة راحته اليسرى.

_ أرجو أن تفهميني.

لم يسمع جوابا. خاف أن يرفع بصره ليقرأ ما في عينيها.

_ يريد كل شيء من صنع يده _ وسكت غاصاً بعاطفته الكظيمية، ثم أضاف بعد لحظة – حتى ولو كان هذا خاصاً بنا.

وجد نفسه قد صنع فتيلة من الوسخ على راحة يده. خجل منها، وكور كفه عليها، ومراها على البساط خلسة.

_ من جهتي لا مانع عندي – سمعها تقول فرفع بصره إليها بعد إطراقته الطويلة، ورأى في العينين السوداوين حركة جسوراً، ثم – ولكن يجب أن أقول لأمي.

هزّ رأسه استجابة لها، وإظهاراً بأنه يفهمها مثلما تفهمه. ونظر من خلال الباب المفتوح فرأى علياء تمر مسرعة. اعتدل يريد أن يظهر أن ليس هناك سر بينه وبين خطيبته. استطاع خلال خمس دقائق من غيابهن المتعمد أو غير المتعمد أن يقول لها ما يريد. والآن ادخلن جميعاً.

في الطريق إلى الباب الشرقي أحس بأنه حقق فوزاً كبيراً. خطا الخطوة التي يجب أن يخطوها نحو حياته الزوجية. سار منقطعاً عن الناس كأنه منصرف إلى التحدث مع شخص يسير بالقرب منه، يتمتع بلحظة من تلك اللحظات البهيجة التي يحس بأنه قادر على أن يفعل كل شيء، وله الشجاعة عن ذلك، ولا أحد من الناس يستطيع

تحديد الطريق الذي يسلكه. بعد الآن سيكون زواجه عقداً حراً لإنسانين حرين اختارا الطريق التي يريدانها. وخاطب أباه في سره: ليس ذلك ضدك يا أبي، ولكن من أجل العائلة الجديدة التي تريدها أن تولد، وأريد أنا أيضاً. الا أريد؟.. أريد حتماً... لأ، ربان السفينة الماخرة دائماً عباب البحر يجب أن تكون له شريكة حياة!

واستأنس لهذا الخاطر. إنها وثقت به سريعاً. كانت لينة ومطواعة. لم يجلس في حياته هذا المجلس مع امرأة. وعندما دخل ودخّن كانت السيكارة ترتجف بين يديه. ولكنها في اللحظة الثانية أحس بها قريبة منه جداً. شعر بوجودها بين كل أفراد العائلة. وقال لنفسه: هذه المرأة لي، وهي تراقب حركاتي، وتريد أن تسمع ما أقول، فلأقل لها ما يدور في خلدي. وعندما خرجن نظف حنجرته، ودفع صوته من داخل صدره. وقال ووافقت.

وجد نفسه بالقرب من مقهاه في أول شارع أبي نؤاس. سيجلس وينتظر سعيداً. ولكنه تذكر أنه مرّ بشاطئ النهر دون أن ينظر إلى مستوى الماء. عادة اكتسبها في أيام المحنة ونسيها في غمرة الفرحة. ألقى بصره من باب المقهى فرأى الاستحكامات في عنق الجسر مخلخلة الأعالي. كيس متهدل وآخر مبقور، وثالث سارح على جانب. كأنما ذلك من أثر معركة انقضت.

جلس ابراهيم إلى طاولة منزوية. أخرج علبة سكائره ودخن سيكارة، وترك العلبة على الطاولة. وتابع شريط أفكاره. سيخلف العزوبة لسعيد الذي لم يجد طريقه حتى الآن، ولبودلير العصر الذي لا يؤمن بالعقود الفردية، ولحميد الهائم المتدله بشبابه، ولعبد الخالق الذي لم يجد حتى الآن فتاة تجمع الفضيلتين: الجمال والثقافة. وسيتزوج هو. سيخرج من خط بلقيس، والسهر خارج البيت، ويستعيض عن دفء الخمرة المحموم بدفء جسد إنساني. وأية تجربة

جديدة في الزواج! ستكون له في بيته امرأة. زوجة. قرينة. كلمة جديدة تضاف إلى قاموس حياته، إلى الصفات التي يتمتع بها. وستكون هذه المرأة معه دائماً، في طريق حياته، في البيت، في انتظاره. وستهتم بحوائجه، ويستطيع مطمئناً أن يشكو لها ويبثها خوالج نفسه، ويبوح لها بما لا يستطيع أن يبوح به لأي إنسان آخر. وفي الليل ستنام إلى جانبه. وإذا جاء في ساعة متأخرة إلى البيت سيجدها قد أدفأت الفراش له، ولا تغمض عينها إلا حين يغمضها... أوه، أوه. ما أكثر ما في عالم الزوجية من مسرات!

وأفاق من أفكاره على منظر يد سمراء تضع قدح الشاي على طاولته. قلّبه. وشرب جرعات قصيرة منه. وقبل أن يتم شايه رأى سعيداً مقبلاً عليه، حاملاً بالقرب من صدره كتاباً صغيراً له حاشية حمراء يطوي أصابعه عليه.

_ هات الكتاب.

قال ذلك بعد التحية مباشرة. وتناول الكتاب الأنيق، وقلّب صفحاته، وشمّ رائحة الجدة الشبيهة برائحة قطن طبي ممزوج بمرهم أسود، وهتف:

_ يا للطباعة! قل لي متى ستكون لنا هذه الطباعة؟

_ عندما يلد الفأر فيلاً أو بالعكس.

كانت الحروف واضحة على الورق الناصع في اغبشاش الماء. مرّر عينيه عليها وخطر الصحائف في اصبعه، وهو يردد: متى، متى؟ متى ستكون لنا مثل هذه الطباعة في العراق؟

_ دعنا من الطباعة – وامتدت يد سعيد وجذبت الكتاب – واسمع ما يقول مارك توين.

قرب سعيد الكتاب من عينيه، وراح يقرأ بالعربية ببطء، وكأنما يترجم ارتجالاً. ولكن لابد أنه أدار الصيغة في ذهنه عدة مرات:

_ "حوض المسيسيبي هو جسم الأمة، وكل الأجزاء الأخرى أطراف له، مهمة في حد ذاتها، ولكن الأهم من ذلك علاقتها بذلك الجسم". ما رأيك في هذا القول؟
_ بديع.
_ ألا ينطبق هذا القول علينا أيضاً؟ دجلة والفرات جسم الأمة..
_ ساقاها الطويلان.. – وضحك ابراهيم في نشوة.
_ لا تضحك، أنا أتكلم جاداً.
_ وأنا أيضاً. ألا تحس بأن الأطراف الآن مصابة بداء الاستسقاء؟
قال سعيد بحزن:
_ رأيت ذلك من الجو.
_ عبد الخالق يتهمك بالخيانة.
_ نعم، خنت نفسي. أنا أقر بذلك.
_ يقول حشوا جيبك بالدولارات.
_ لا، حشوا راسي بالأفكار. أتعرف يا ابراهيم بماذا أفكر في هذه الأيام؟
_ بتعديل موقفك من المعاهدات الثنائية.
_ لا، أنا أفكر لماذا دعانا الجيش الأمريكي لرؤية بغداد الغريقة من الجو؟
_ لماذا؟
_ فكر أنت.
_ كسباً للصحفيين، وتحدثا عن أفضال النقطة الرابعة.
_ ربما هذا أيضاً، ربما ترويجاً للطريقة الأمريكية القائلة بأن كل شيء قابل للفرجة حتى مآسي الناس، والبيوت المغمورة بالماء، والناس المشردين. أو ربما لهذه الدعوة غاية أعمق. كانت بغداد من الجو تبدو هزيلة ترابية مغلوبة على أمرها حتى ساءلت نفسي: أهذه بغداد المآثر والتاريخ العريق؟ بيوت قديمة، وخرائب، وتراب. ربما قصد

الأمريكيون إلى أن يرونا ذلك، وكأنهم يقولون لنا: انظروا! هذه عاصمتكم، ما أوهنها وأقبحها منظراً من الجو.. بهذه الجبهة الواهية من التخلف والعجز تريدون أن تثوروا على الأحلاف، واتفاقية الأمن المتبادل؟ وتسخرون من النقطة الرابعة؟ وكم شعرت بالمهانة واحتقرت نفسي وأنا في الطائرة. وندمت على ركوبي. قبل أسبوعين تسلمت رسالة من سجين شيوعي تأثرت بها، واليوم اركب في طائرة أمريكية.

_ استعمارية، كما يقول عبد الخالق.

_ استعمارية تدب في سماء بغداد على ارتفاع واطئ. يعني لا يكلف الجيش الأمريكي إلا أن يطير في طائرة هيلكوبتر ليكتشف أسرار البغداديين كلها تقريباً. في بعض فترات التاريخ منع بعض القضاة المؤذنين من الآذان من فوق منارة خوفاً من أن يتفرج على ما يجري في أفنية البيوت. والآن بغداد كلها مباحة للأمريكيين. اركبوا يا مساترة، وتفرجوا مجاناً من ارتفاع طائرة هيلكوبتر على بغداد المكشوفة الغريقة المستباحة منذ أيام هولاكو.

ضحك ابراهيم من تدفق أفكار سعيد وكأنما أمام منصة خطابة. لم يرد أن يسترسل صديقه في تلك الأفكار التي بدت جاهز شائعة، الا أنه كان مرحاً ومستعداً لمسامحة الآخرين، والاستماع إليهم، وهم يبررون أنفسهم. لأن الإنسان، في بعض الأحيان، يجد نفسه مدفوعاً من الداخل إلى تبرير نفسه بصوت مسموع، وكأنه يريد أن يقنع نفسه والآخرين. وقد مرّ ابراهيم بنفس التجربة اليوم، وخرج منتصراً وخفيفاً كالزئبق متفتحاً لتقبل تبريرات الآخرين لأنفسهم، على الأخص إذا كان هؤلاء لا يملكون شخصاً يفضون إليه بمكنون ذواتهم، مثل سعيد الآن، ومثله قبل اليوم. والآن من الضروري أن يسري عن سعيد ثقل أفكاره، ويجعله مستبشراً بالمستقبل مثله.

_ لا يهم – قال ابراهيم وهو يمسح جبينه مالئاً صدره بهواء المساء – أنت مررت بتجربة جديدة عليك بصرتك بأشياء لولاها لما كانت. وستتحسن الأمور. ستستقيل وزارة الجمالي عن قريب. ولا مناص من أن يوافقوا على إجراء انتخابات جديدة، وعلى أسس جديدة. وستنتصر القوى الديموقراطية، وسيشرق عهد جديد. وسأستقر أنا (خجل أن يقول سأتزوج) وسنصدر مجلة أدبية ننشر فيها قصصك، وربما سنؤسس دار نشر. وسأحقق حلمك في الانحدار على دجلة من المنبع إلى المصب على حساب المجلة.

وفي تلك البرهة رأى شريفاً على بعد خطوتين فغيّر مجرى أفكاره، فقال:

_ وشريف آنذاك سيترك بودلير ويصبح شاعراً بنفسه.

إلا أن شريفاً كان مكفهر السحنة، لم يحتفل بما قيل عن مستقبله، وصاح بدلاً من التحية:

_ لم أر مثل هذا الرجل في حياتي كلها.

_ من هذا؟ - تساءل ابراهيم وخاف أن يكون هو المعنيّ. ولم يجب شريف. بل سحب كرسيا، وهو يردد:

_ دماغ، دماغ ناشف. هو الله لمن يعطي الفلوس؟ للرؤوس المتحجرة فقط. في حياتي لم أر رأساً يابساً مثل هذا الرأس.

_ قل لنا ماذا بك؟ - أعاد ابراهيم السؤال ناظراً إلى سعيد ليشركه في تساؤله. إلا أن وجه سعيد ظل عابساً.

_ هذا صاحب المقهى – قال شريف أخيراً مضخماً الهاء – يقول إني شربت شاياً يوم أمس ولم أدفع الفلوس. قلت له: أنا لم أكن يوم أمس في الباب الشرقي كله. يقول: لا. كنتُ أتحدث مع إنسان حين خرجت، وظننت أنك ستعود، ولكن لم تعد. بابا، والله العظيم أنا لم أكن في المقهى يوم أمس.. لا يصدق. دماغ ناشف.

ضحك ابراهيم بعد أن تبددت شكوكه، وقال مخاطباً سعيداً، متابعاً سرد مشاريعه:

_ ستأتي إلى مجلس النواب عناصر جديدة و..

إلا أن شريفاً قاطع ابراهيم متذمراً:

_ في السياسة أيضاً؟ يا أخي هذا شلون شعب؟ كل عمره في السياسة. جائع ومريض ويهتم بغواتيمالا؟

انفجر سعيد فجأة:

_ اسكت، يا شويعر.

التفت شريف إلى سعيد، وكأنما أحس بوجوده إلى جانبه لأول مرة. وحدّق في وجهه لحظات ظن ابراهيم أنها ستنتهي بمصيبة. وكان سعيد ينظر إلى أمام غير ملتفت إلى تحديقة شريف الذي قال ببرود غير متوقع:

_ انظر إلى هذا العصفور. قل لي ماذا أفعل به؟

_ اتركه، وشأنه. إنه مهموم.

_ ويصب همومه على رؤوس الآخرين؟

_ أين كنت يوم أمس؟ - سأل سعيد بهدوء المتيقن بأنه سيقول شيئاً ضخماً.

_ وهل أنا أشتغل عندك لأقدم لك حساباً عن أوقاتي؟

_ رأيتك تنحدر.

أدار سعيد رأسه قليلاً نحو شريف، ثم أعاده إلى اتجاهه السابق. بينما خلا وجه شريف من كل تساؤل. وبعد لحظات قال سعيد بشجاعة أكثر:

_ رأيتك تنحدر في زقاق مشبوه.

_ كذّاب – صاح شريف ثم أضاف – الأزقة المشبوهة لك.

_ رأيتك بعيني قبيل الظهر. خرجت من سوق الهرج ويممت إلى هناك.

_ كان عليك أن تمسح نظارتك.

_ نظارتي نظيفة. ثم ان جسمك الفيلي يرى دون حاجة إلى نظارات.

ظل سعيد على هدوئه، بينما تحرك وجه شريف مختلجاً، قبل أن يقول:

_ بابا. عندي فنانة تساوي نصف الدنيا، ومحبوبة حورية.

_ أنت تضحك على نفسك.

_ الماخور لك. أنت الذي ستموت ولا تجد امرأة تنظر إليك. من تنظر إلى هذه الخلقة الجرذية؟

_ لا، لا، سعيد وردة – قال ابراهيم، وكان يعرف مبلغ تأذي سعيد من هذه الكلمات – لو كانت لي أخت لزوجتها له.

مدّ سعيد يده إلى العلبة، وتناول سيكارة منها اضطربت بين أصابعه الهزيلة. وحين امتص منها نفساً، وأنزلها من فمه كان جزء من الورق ملتصقاً بشفته السفلى. قال ابراهيم متألماً عن جد:

_ يجب أن نعتذر له، يا شريف.

كان شريف ينظر إلى سعيد مستعداً للمصالحة، وقد زال الانتفاخ من وجهه وفجأة مال برأسه نحو سعيد، وطوقه بذراعه وقال بليونة.

_ كنت أمزح فقط. وجه سعيد لطيف. ولكن النساء سخيفات. لا يعرفن جمال الرجال. ولهذا يقعن بمآس.

الخامس

ارتفع الصراخ من وراء ذراعه الممتدة على أذنه، من مكان ما في الأسفل بدا له، بين النوم واليقظة، وكأنه صادر من بئر عميقة. تململ، وأحكم اطباق ذراعه على أذنه. إلا أن ذلك لم يجد شيئاً. تسرب النوم من خلال الثغرة التي فتحها الصراخ، وترك جسمه متوتر المفاصل. تلمض. في فمه مادة توشك أن تجف. بلع ريقه عدة مرات ليزيل تلك المادة الغرائية. فبلع مرارة. انقلب على ظهره ممتعضاً، واضعاً ذراعه على صدغه، وسمع في وضعه الجديد وشوشة خافتة في السرير الذي ينام عليه، تهدد الصراخ الطفولي المتقطع، وشم رائحة جسد غير نظيف، رائحة جلد وشعر، وأنفاس فاسدة أطبقت على صدره مع كابوس الصراخ. خرك ساقيه مثل راكب دراجة حتى ارتطمت بالجسد، فنخر حانقاً:

_ اسكتيه.

سكت الصراخ دقيقة ثم عاد شديداً.

_ حليمة، هاى شلون؟

وضرب الفراش بعقبه، وأثارت الضربة رنيناً معدنياً تردد فيما حوله.

_ وإذا لم يسكت؟

_ هزّيه.

_ ساعتين وأنا أهز به.

فتح عينيه، وسحب بدنه مستنداً إلى كوعه، ورأى كتلة قاتمة تجلس على حافة السرير، وأمامها الصراخ وضوء المصباح.

_ ماذا به؟

_ لا أدري. في النهار لا ينزل من ذراعي، وفي الليل يصرخ.

_ احمليه حتى يغفو.
_ ليست يدي من حديد؟
_ وهل رأسي من حديد؟
_ نمت ثلاث ساعات على الأقل. أما أنا.. يشهد الله.
لم تعجبه لهجتها فأمرها:
_ قلت لك احمليه حتى أغفو. ورائي شغل في الصبح.
حملت الطفل مذعنة. رآها تنحني، ويظهر المصباح من وراء رأسها، وتحمل الطفل ويختفي المصباح، ويبدو شبحها الهزيل القاتم محاطاً بشغاف ضوئي. صمت الطفل على وشوشتها اللاهثة العصبية. كانت تهزه بقوة على صدرها حتى سمع تقطع الأنفاس في صدر الطفل أو في صدرها. كان يعرف أنها تفيضه بذلك، تعبر عن نفسها بهذا الأسلوب. ومن قبل لم تكن تعرف ذلك. لم ترفع صوتها بضيق طوال حياتها. ولكن صمت الطفل أزال بعض التوتر في نفسه. وعادت إلى خياله سهرة الليلة. كانت بقعة ضوئية تسبح في عينيه، وفيها شريف وابراهيم وسعيد. تحلقوا حول مائدة واحدة قرب طاولة البليارد، وارتفع صوت شريف: كل العباقرة يموتون في سن مبكرة. وثاروا عليها جميعاً: "ستعمر تسعين عاماً". وبعد نشرة الأخبار خرجوا. هب نسيم بارد وأنعشه. تفرقوا إلى بيوتهم. وسار في الطرقات وحده. وفجأة عاد الصراخ يرن في أذنه.
_ حليمة ابنك.
كانت تشخر شخيراً إلى جانبه، أو تتنفس بعسر. هبت مذعورة، ونزلت من السرير.
_ اعطيه ماء.. يمكن عطشان.
وأحس بالعطش هو. جف غراء فمه تماماً، والتصق طرفا فمه. ولكن ماء الدورق لم يبل غلته. ربما وضع في الدورق منذ أيام. زفر وفتح باب الغرفة، ومد رأسه في

الظلمة متنفساً هواءها البارد من أنفه عدة مرات. ولما أغلقه شعر بفساد هواء الغرفة كريهاً. كان الطفل على صدر أمه يلملم عبراته، وكأنه يجمعها لنوبة جديدة. أخرج حميد الساعة من جيب سترته. الساعة الرابعة والثلث. وخلق اقتراب الصباح في نفسه رغبة في الخروج. امتثل لها، وشرع يرتدي ملابسه.

نظرت حليمة إليه، وفي عينيها تساؤل وعلى ذراعها طفل يوشك أن يبكي. ولما شرع يلبس حذائه سألته:

_ وين رايح؟

لم يرد عليها رأساً. لبس سترته ثم قال:

_ أريد شم هوا.

_ بالليل؟

_ صدري مخنوق.

وهو بالقرب من الباب قالت له:

_ ترجع؟

_ لا، يمكن أروح للحمام.

قال بصوت خافت:

_ اعطيني مصرف البيت.

نظر في وجهها:

_ أول البارحة أخذت نصف دينار.

_ قبل أربعة أيام.

أخرج من جيبه ربع دينار وقال:

_ أول الشهر بعيد.

ارتعشت الظلمة أمام عينيه، وملأت أذنيه سقسقة الصراصير، عصافير الليل غير المنظورة، كما يسميها. وكانت السماء فوقه صافية، وبعيدة، وبرشاء بالنجوم. كان زقاق بيته مظلماً إلا من شريط باهت من النور يمتد عبر الأرض، وأسافل الجدران، وينتهي على بعد دارين تاركاً بقية الزقاق في ظلمة دامسة. سار عبر الشريط الضوئي نحو مصدر

الضوء فوق المصبغة. مرّ حميد بأزقة خالية يتقاسمها الضوء والظلام. خيل إليه أنه ذاهب إلى الحمام أيضاً. تذكر قوله لزوجته، وأعاد ذلك إلى ذاكرته تاريخاً قديماً. كان أبوه يوقظه في مثل هذه الساعة ليأخذه معه إلى الحمام فيترك فراشه الدافئ على مضض، ويتبعه إلى الحمام عبر الضوء والظلام. كانت مناطق الضوء مخطات اطمئنان لأصابه المتوترة برداً ورهبة. ثم جاء وقت أجبره أبوه فيه على الصلاة "ما أريد أشيل خطيئتك بالآخرة" وصار يصلي، ويعاكسه الشيطان فستحلم كل ليلة، حتى كان يضطر إلى أن يوقظ أباه في خجل ليأخذه إلى الحمام. ربما لهذا السبب زوجه في وقت مبكر.

مرّ بالسوق. كانت بعض الدكاكين قد بدأت تفتح، وتلقي حصيرة ضوء مستطيلة على أرض السوق السوداء المشقوقة بأخدود متثلم تجري فيه مياه قذرة. ورأى حميد حماراً يحمل ذبائح مسلوخة إلى دكان قصاب يقف في مستطيل الضوء ضخم الجثة، متفرج الساقين. وتنادت أصوات جشاء متنافرة في أقصى السوق بدت في الصمت مثل همهمة حيوانات. وزعقت درق حديدية وكأنها أصوات محركات تكافح قبل أن تنطفئ. وفي نهاية السوق رأى حميد السماء مرة أخرى. كانت متنورة من الداخل مثل تلك الكرات الزجاجية التي كان يلعب بها في طفولته. وامتد الشارع إلى يمينه ويساره مطلياً بضوء الفجر، وتردد أين يتجه. سار يساراً إلى شارع غازي، وشمّ رائحة فجر جديد بارد ومتربة. كانت بغداد في هذا الجزء من الشارع خربة مثل أطلال مدينة منقرضة. لم يبلط الشارع الجديد بعد، وعلى الجانبين خرائب بيوت هدمت، ولم تسوَّ بعد. لاحت على الجدران مربعات ومستطيلات هي آثار الغرف التي كانت مأهولة من قبل، وأوحى له ذلك أنه يسير في حلم. نفس زرقة الحلم وغرابته ودبيب القدمين فوق أرض هشة.

ولكنه كان يسمع أصوات سـيارات تبرير فـي أذنيـه، وكأنهـا تصعد منحدراً حتى تصل إلى درجة من التوتر توشـك بعـدها أن تنفجر، غير أنها تخفت، وتتلاشى غير منظورة حتى طلـع إلى شارع غازي، ورأى السـيارات بعينـه تفـر مثـل حيوانـات مذعورة. ولما كانت الظلمة قد شفت فقد اسـتطاع أن يـرى ذيولها الزرقاء. وعبر الشـارع إلـى سـاحة الفـردوس، وهنـاك رأى قطرات الندى على شجرات الدفلة، والأرض التي رسـم الماء عليها مجاري تضيق وتتسع. تخطاها، وسار قليلاً حتى رأى سيارة استقلها إلى باب المعظم.

نزل قرب المكتبة العامة، وكان الصباح قـد طلـع. تنـاول فطوره واقفاً أمام عربة تتوسطها مقـلاة كبيـرة. وكـان جوفـه حاراً وعطشاً. وتشـهى زجاجـة بيـرة مثلجـة يشـربها حتـى يطفئ هذا الأوار المستعر في أحشـائه. كانـت حواسـه قـد اسـتيقظت، وبـدأت تطلـب ملـذاتها. ولمـا شـمّ الربيـع وهـو ينحدر نحو حدائق المعرض اشتد وسـأل ظمـأه إلـى البيـرة. وفكر مع نفسه: المدمن علـى الخمـرة.. وتـرك الجملـة غيـر كاملة، وسأل نفسه: أهو مـدمن علـى الخمـرة حقـاً؟ أهـذا العطش الذي يحسه ادمان؟ وهل شرب الخمـرة كـل مسـاء ادمان؟ وردّ على نفسه: لا، ليالي بغداد دون خمرة موحشة وجهماء. ذلك معروف من عهد النواسـي. وضحك مـن هـذه الفكرة الذكية، وتفتحت نفسه حتى فكر بأن يتمارض اليـوم، ويذهب رأساً إلى الباب الشرقي، ويشرب في هـذا الصـباح الربيعـي العـذب المبشـر بمسـرات جديـدة. كانـت السـاعة تقترب من السابعة. وكان يعرف أن كل البارات والكازينوهـات نائمة، وعلى أرض كل بار وكـازينو تنتشـر آثـار الليـل البـارح. وتذكر كيف خرج في صباح شتائي ضيقاً برما بحياته، واتجـه إلى الباب الشـرقي، وطـرق بـاب كـازينو. ظـل يطـرق البـاب عشر دقائق حتى فتحه رجل يتثاءب ويحك جسـمه مغمـض العينـين. وكانـت "أهـلاً عمـي" بـاردة. ودخـل حميـد ورأى

الكراسي مقلوبة على الموائد، والأرض مملوءة بأعقاب السكائر، وقشور الرتقال. وهمس يطلبه، وهيأ مائدته بنفسه، وجعل يشرب من بار مظلم الخمرة التي يحس بالظمأ إليها الآن.

كان الربيع يسحر في عينيه وأنفه. تجوّل ساعة، حتى وصل إلى سدة ترابية تمتد إلى يساره حتى النهر غارقة بالشمس، وفي الوهدة حيث تتناثر أكواخ كان دخان أزرق يتصاعد بكسل تحف به عصافير، وكأنها تصحبه إلى غايته. ورأى سيارة حمراء آتية من الأعظمية فذكره مرآها بالباب الشرقي، وسعّر ظمأه إلى الخمرة. سيدق الباب هذه المرة، ويشرب في الشمس. وجعل يركض بلهفة إلى المحطة، وكأن هذه السيارة هي آخر سيارة ذاهبة إلى هناك. وصعد الباص لاهثاً من الدرجة الثانية، وصارع زحام الركاب لينسل إلى الدرجة الأولى. وعند الحاجز تسمّر في مكانه.

كانت سلمى تجلس على بعد ذراع. رأى شعرها السبط اللامع، المنسبل قليلا على كتفيها، شعراً أسود يشع ألقاً أحمر يتوامض مع حركات رأسها. حدق حميد متمتعاً بالفرصة السانحة. نزل الناس في باب المعظم، وحاول أن يقترب منها. ولكنه لاحظ أنها تتحدث إلى امرأة فوقف خلفها. ولم تنزل المرأة من محطتها قرب الشباك، ونهضت سلمى مودعة. وظلت واقفة، وهو واقف خلفها على بعد عشرة سنتمترات منها. يستقبل بارتياح دفء جسدها، ويعبق بأنفه رائحتها الملينة للمفاصل، المالئة فراغ القلب. وارتج الباص، ومس ظهرها صدره مساً خفيفاً. قالت "متأسفة" أجاب "صباح الخير". والتقت عيونهما. رأى في عينيها دهشة وصرامة. لم تكن تلك العينان زيتونيتين، بل حجرين أسودين.

قالت "صباح الخير" بحياء، ونكست رأسها. قال:

_ أما زال بيتكم غريقاً؟
_ طبعـاً، نحـن الآن نسـكن فـي بيـت عمـي فـي الأعظمية.
_ هذا شيء مؤسف.
_ الحمد لله أننا لحقنا أن ننقل الأثاث.
_ هذا جيد بالطبع.
_ هناك أنـاس اسـتيقظوا فـي الليـل فـرأوا المـاء فـي حجرهم.
سرته لهجتها المتفائلة. أراد أن يسري عنها.
_ لا بـأس. سـتترك الميـاه حديقـة بيـتكم خصـيبة فتزرعون فيها الفواكه.
ضحكت ضحكة خفيفة، ونزلت من الباص، ونزل وراءهـا ومن باب اللياقة سألها:
_ ممكن أن أتمشى معك؟
_ تفضل.
برهة صمت ثم قال:
_ ظننتك تمانعين.
_ أمانع؟ لماذا؟
_ ألم تمانعي من دعوتي إلى المطعم؟
ابتسمت وقالت بوداعة:
_ مازلت تذكر؟
_ طبعاً – وانشغل فمه بابتسامة قـال بعـدها – علـى العموم ما تزال الدعوة قائمة.
أدارت رأسها نحوه ضاحكة، ورمقته بنظرة خاطفـة. ثـم أطرقت ببصرها إلى الأرض.

الثالث

تلفت قبل أن يعبر الشارع، ثـم عبـره بخطـى عريضـة. ىاسـتراح بعدها مختفياً خلف عمود. سـارق النظـر متظـاهراً بـالتفرج علـى مخـزن الأقمشـة قبـل أن يخطـو الخطـوتين الأخيرتين، وينحدر إلى الزقاق. كان يخاف عـين سـعيد. فـي تلك المرة دارى الموقـف بحسـن تبصـر، ولـو رآه هـذه المـرة لثبتت الإدانة، وصلب علـى خشـبة التشـهير. قـال لنفسـه: ليس العيب أن ترتكب المعاصي والموبقات، بـل العيـب أن لا تعـرف كيـف ترتكبهـا فـي الخفـاء. والنـاس تخـدعهم ظـواهر الأشـياء يرون فتاة تسكن في بيت داعر فيحسـبونها داعـرة. لا يعرفـون ولا يهمهـم أن يعرفـوا لـون قلبهـا، ولا مـا تدفعـه للشيطان ثمناً لإنسانيتها المعذبة، ولا مـا تكابـد مـن عـذاب لتعتصر قطرات دفء تقدمها للمحتاجين إليها بشكل بائس.

رأى بعض الناس خـارجين مـن المواقـد يزعقـون فـأدار لهم ظهره، وتركهم يذهبون. إلا أنهم لصقوا وراء ظهره ثواني كـان يسـمع فيهـا فـواق خطـواتهم المتكشـفة، وفحـيح حنجـراتهم غيـر النظيفـة. وعنـدما شـيع بسـمعه جنـازة أصواتهم سار في عجالة، وطرق الباب. أصبحت صبرية الآن تعـرف مواعيـده، وطرقـات يـده، وتتفـرغ لـه. رآهـا بسـترتها القصيرة تنظر إليه خلف الباب. دخل وقال لها:

_ اغلقي الباب يا صبرية.

وسار نحـو التخـت. كـان البيـت مكلكـلاً بسـكون يفـك المفاصل. جلس على التخت، ورفع ساقيه، ومددهما عليـه دون أن يخلع حذاءه. وتأوه عن تعـب مغمـض العينـين، رافعـاً يده بين الحين والآخر ليطرد ذباب الربيع اللجوج لجاجة تيس السيد أحمد في بعقوبة. لو هلسـت لحيتـه لمـا تحـرك مـن موضعه.

جاءت صبرية من ورائه، وأمسكت عينيه بيديها العظيمتين المغسولتين بالصابون من توّهما. سأل في ارتخاء:

_ من ورائي؟ شهرزاد؟ سأقتلك اليوم إذا لم تحكي لي حكاية.

رفعت يديها، وقربت وجهها من وجهه، وقالت وأنفاسها تنفخ في وجهه:

_ تحسبني صندوق ولايات؟

_ إذن فقد قضيت على نفسك بالموت.. سأقتلك الآن، يا لله..

وهمّ بأن يرفع جسمه الثقيل، فضربته على كتفه مبتعدة:

_ أنت تقتلني؟ منو انت؟

_ أنا شهريار، ألا تعرفينه؟

_ شربان ولاية.

_ شهريار، يا أمية، ملك شرير وذكي. متى تتعلمين مني؟

_ أنت لا تعلمني القراءة.

_ لست ملا. أنا شاعر أعلمك الفلسفة وحكمة الدهور، وكيف تتفتح الورود في الصباح وتغلق في الليل.

_ يوجد مثل هذا الورد؟

_ يوجد. توجد أشياء كثيرة في الدنيا لا تعرفينها، كثيرة بقدر شعر رأسك.

أمسكت شعرها بيدها، ووزنته، وقالت وقد غرزت أصابعها فيه:

_ بقدر شعري الطويل هذا؟

_ ربما أكثر، لأنك لا تملكين ضفائر.

_ كانت لي. ولكن عمتي قصتها.

_ ربما بقدر ضفائرك التي قصتها عمتك.

_ مثل أي شيء يوجد. قل لي.

حـدثها ملقيـاً بصـره إلـى السـماء، وكأنـه منـوّم مغناطيسياً. ونطق بالكلمات بتؤدة وخفوت:

_ توجـد مدينـة اسـمها بـاريس، وأخـرى رومـا، وثالثـة ريودي جانيرو، ورابعة هونولولو، وموسكو، وجامايكا.

_ وتختلف عن بغداد؟

_ اختلاف الأرض عن السماء.

_ النـاس هنـاك، مـثلاً، يقـدرون الحـب حـق القـدر ولا يتركون قلب العاشق يجف.

_ وقلب العاشق يجِف؟

_ يتآكل. ينخر فيه عَلَق الحب، ويمتص كل دمه.

_ اوى، قلبي.

_ لا تخافي. قلبك محصن من الحب.

لطمته على صدره لطمة رنت فـي حنايـاه. حنـق. أراد أن يرد لطمتهـا بصـفعة. اسـتدار فرآهـا جالسـة فـي مكانهـا تنظر إليه نظرة كلبة أعطيت لهـا لحمـة ثـم أخـذت مـن بـين أسنانها. اكتفى بالخنزرة. قالت له:

_ كيف تعرف قلبي؟

_ وهل عندك قلب؟

_ سأضربك. – ورفعت يـدها فأمسـكها مـن معصـمها، وجذبها نحوه، وطوقهـا بذراعيـه، وشـدها علـى صـدره قـائلاً في حنق:

_ لم يسمح شـهريار بـذلك لأيـة خليلـة مـن خليلاتـه. ماذا جرى لك هل تريدين أن تموتي الليلة؟

تأوهت بين ذراعيه، وتوترت عروق رقبتها. خاف عليهـا. قال وقد فك عنها ذراعيه:

_ هل رأيت ملك الموت؟

لم تقل شيئاً. بحثت عن نعالها تحت التخت. كان فكها يرتعش. يبدو أنها زعلت وتأذت أكثر من اللازم. ولم يرد أن يقسو عليها. ضحك وأمسكها من ثوبها، وجرها إليه:

_ زعلتِ؟

ضربت يده بلطمة فاترة هذه المرة.

_ أنت دائماً تضحك مني؟

_ كنت أمزح.

_ لا، أنت ظالم.

_ لا، والله العظيم.

_ انتظرتك، وأذني على الباب، وأنت تضحك على قلبي.

_ لا، والله يا سيدتي أنا لا أضحك على قلب مطلقاً. بل أحترم القلوب كلها، حتى تلك التي لا تستحق الاحترام. استلقي هنا، بجنبي هنا، ودعيني أسمع دقات قلبك. أنا أحب دقات القلب وأخاف منها في نفس الوقت. هنا، تعالي.. آه، ما أنعمك! دعيني أرى وجهك، بريق عينيك.

لم يكن في عينيها الصغيرتين بريق، ولكن رموشها السوداء كانت طويلة. وكانت على شفتيها ابتسامة طفل رضي بعد زعل. قال لها:

_ الآن تصافحنا. تكلمي.

_ على ويش؟

_ ألا يوجد عندك كلام تقولينه؟

_ هل أكلت اليوم؟

_ لست فقيراً إلى هذا الحد. تناولت يوم القشدة مع العسل. اسألني عن شيء آخر.

_ يوجد في تلك الولايات شط مثل شطنا؟

_ توجد عجائب.

_ عجائب؟ ما هي؟

_ في باريس برج من حديد أطول من أربع منارات.

_ ولا يقع؟
_ لا يقع. وفي روما تتعطر النساء برائحة تجعل الرجال يبكون.
_ ولا تباع هذه الرائحة في بغداد؟
_ لا تباع. وفي فينسيا الشوارع من ماء أخضر كالفيروز.
_ والسيارات وين تمشي؟
_ توجد جندولات. وفي هونولولو نساء بلون النحاس، وكل واحدة تغرز بشعرها وردة، ولا ترفض طلباً لرجل.
_ والورود كثيرة؟
_ كثيرة.
_ أنت تكذب عليّ.
_ حاشا لله. العالم عجيب، وأنت تعيشين في زاوية صغيرة منه، في بلد إذا تنفس النهر فيه غرق الناس.
_ والناس هناك لا يغرقون؟
_ ولا يعرفون الموت في سن العشرين.
_ كان عندي أخ مات وعمره عشر سنين.
_ وامرأة من مثلك لا تصبح بغيا.
_ بغيا على القوم الظالمين.
أدار رأسه نحوها، وحدق في وجهها لحظات، وعنّ له أن يسألها:
_ قولي صبرية كيف سقطت؟
_ سقطت بالحساب؟
_ أقصد كيف أصبحت في هذه الحال؟ تنامين مع الرجال.
سكتت لحظة ثم قالت:
_ صرت. كل شيء بالحظ والنصيب.
_ ولماذا سقطت أنت دون النساء؟
_ لأن النساء ما عندهن أم مثل أمي.

_ وهل كانت أمك قاسية عليك؟
_ كانت تريد أن تشرب دمي.
_ ليش؟
_ ما أدري – ورفعت صبرية رأسها إلى فوق، وحدقت في نقطة واحدة طاوية ذراعها على رأسها، وقالت متوجعة: ما أدري لويش؟ لم أعمل لها شراً. كنا أختين وأخاً. كانت أمي تحبه أ:ثر من كل شيء في الدنيا. ولما مات بالتيفوئيد صارت تحب أختي فخرية، وتكرهني مثل عزرائيل. ليش؟ ما أدري. كنا إذا قعدنا وراء صينية كانت تقول لي: خلّي أختك تأكل. بطنك ما تشبع. وكانت تلبس فخرية الثياب الجديدة من البزاز، وأنا ألبس الخرق. وكانت تأخذها معها إلى الجوارين، وتفرجها للخطابات، وتخليها تديرم. وأنا طول الوقت في البيت أغسل ملابسها، حتى تزوجت فخرية من أهل الشطرة. وبقيت قاعدة في البيت. كانت أمي تقول لي: أنت راح تقعدين على قلبي، لو تموتين ما تجي الخطابة للبيت. قلت لنفسي لازم أنتقم منها. لازم أتزوج على عنادها. وصرت اطلع من البيت. وأروح على الشط حتى شفت لي ابن حلال، أو تصورته ابن حلال. أخذني لبدره، وهناك دخل عليّ. كان يسافر بين الكوت وبدرة. وفي يوم من الأيام طلع ما رجع. تركني بولاية ما عدني أحد فيها، غريبة وما أحد يشفق عليّ حتى جاءت امرأة اشتغلت عليّ، وأخذتني لبغداد.. حتى صرت بهذي الحال.

حركت صبرية ذراعها على وجهها، وتنفست من أنفها في حسرة طويلة. قال لها متأثراً:
_ قلب أمك من حجر.
بينما قالت هي في قناعة:
_ كل شيء بالحظ والنصيب. وأنت اشلون صرت؟
_ ما معنى اشلون صرت؟
_ اشلون صرت شاعر؟

_ أتريـدين أن تقـولي كيـف سـقطت؟ - ووضـع ذراعـه على وجهه مثلها، وبحركة لا إدارية، وقال وكأنه يستحي أن يروي قصته مفتوح العينين – نفس القصـة يـا صـبرية. كانـت لأمنا "حياة" جمع من البنـين والبنـات. كـان لهـا ولـد اسـمه "مـال" وآخـر "غبـاء" وثالـث "ريـاء" وبنـت اسـمها "وصـولية" وأخـرى "لصوصـية" وثالثـة "خيانـة". وكانـت تحـبهم جميعـاً، وتغدق لهم خيراتها، وتقربهم إلى موائدها، إلا أنا، فقد كانت تحرمني مـن الشـيء الكثيـر. كانـت تقـول لـي، يـا شـريف، اذهب إلى الجوع والتشرد. أنا أكرهك. فأقول لها: أنت التـي ولدتني مثلما ولدت أولادك وبناتـك الأخريـات. فكانـت تقـول: أخطأت. آدم عليه السلام أخطأ، فكيـف لا أخطـئ أنـا؟ ولمـا يئسـت مـن عطفهـا صممت علـى أن أكـون شـاعراً وأنـتقم منها.

ولمـا رفـع ذراعـه، ونظـر إلـى جانبـه رآهـا تحـدق بـه مبتسمة. فسألها:

_ لماذا تضحكين! ألم تعجبك قصتي؟

قالت متلهفة:

_ تعجبني، تعجبني. أنت أكبر محام.

الأول

لـم يكـن ابـراهيم فـي الجريـدة حـين سـأل عنـه فـي سماعة التلفون صـوت نسـائي رقيـق بـدا وكأنـه صـادر مـن الغرفة المجاورة:

_ من فضلك ابراهيم موجود؟

تلعثم لسان سعيد في الرد:

_ ابـ.. ابـ.. راهيم في الاجتماع.

ولما وضع السماعة أدار بصره في الحجـرة. لـم يفطـن أحد للعثمته. كان ملتقط الأخبـار منشـغلاً بـالراديو، والمخبـر المحلي يخرج من جيب قصاصات ورق مدعوكـة. وثـلاث زوار يحتسـون الشـاي. نـدم سـعيد لأنـه لـم يسترسـل معهـا، ويستفهم عن حاجتها. فقد تكون لها حاجة مستعجلة.

ولكن الصوت النسائي الرقيـق رنّ فـي جنبـات نفسـه بعذوبة، وخلّف مذاقاً حلواً. أخرج سعيد ملفاته. كان عليه أن يكتب المقال الآن. وخطة المقال مسطرة بحجر أسود علـى ورقة سميكة مثل أوراق الطابو. أشرع القلم، وشرع يفكر:

"فوجئ الرأي العام بمجيء...."

لا.

"أخذت الـوزارة الجديـدة علـى عاتقهـا مهمـة لا تصـلح لها".

لا، لا.

"بعد جروح الفيضان جاء أكبر جراح عرفـه تـاريخ الـوزارة العراقية"

لا، مطلقـاً. سـيفهِم النـاس أن كلمـة جـراح تعنـي المداوي، بينما المقصود مَـنْ تـرك أكبـر الجـروح فـي جسـم الشعب. كيف يبدأ المقال إذن؟

"لا يُلدغ المؤمن.."

وقال سعيد لنفسه: أوه، قديمة.. قديمة أوي! النهارده دماغك مغسل يا جدع. وابتسم سعيد مع نفسه مسترسلاً مع فرحة عذبة رطبت نفسه. ألقى القلم، وأسند ظهره على كرسيه منتشياً، وقفز إلى ذهنه كيف "تعسّل" دماغه ذات مرة. كان ذلك في زمن قديم، قديم أوى، قديم خالص، يوم كان طالباً في جامعة القاهرة. كان سعيد يكره دروس اللاتينية. وكان المدرس شاباً ليست له طريقة في التدريس، فكان يلجأ إلى الصياح: هومي – هوموس – هومي – هوميني!.. وكان الطلاب يرفعون أصواتهم مستفهمين. وعند انتهاء الدروس يكون الجميع مجهدين متوترين كأنهم خارجون من مظاهرة. في فترة الاستراحة اشتكى سعيد لزميلين من الفوضى والدوشة واللخبطة اللي عمّالها تلف وتجول بدماغه. قالوا له: عايز تصفي دماغك؟ تعال معنا. وأخذاه إلى بيت قرب الجامعة، وأدخلاه غرفة زربة في وسطها طاولة عارية كويت بجمرات السكائر وقدما له قطعة صغيرة بلون التبغ، وطلبا إليه أن يمصها مثل قطعة ملبس. ولم يمتنع، لأن الامتناع جبن، وأمامه تجربة جديدة، وأمل في الخلاص من توتر الأعصاب. طبق التعاليم بأمانة طقوسية. وذابت القطعة في فمه، ولم يشعر بشيء. وقالا له: انتظر. وجاءا بأقداح من الشاي الأسود المنعنع، وصاروا يحتسون صامتين. ثم انتقلوا إلى بيت في "شبرا النمل" وهناك "اشتغلت"!

بدا كل شيء مضحكاً. الناس، والأشياء، والطعام، والكلام، والضحك، ونفسه والراديو، والكراسي، وكل شيء يقع عليه بصره. وحين أعدت المائدة كان يأكل ضاحكاً، لأن اللقمة كانت تنزلق في بلعومه الخدر، وتضيع في خواء معدته ثم اشتهى شيئاً آخر، وكافح حتى خلابه، ولكنه قضى وقتاً طويلاً دون أن يتملكه. وبعد ذلك جاءت فترة الخوف الأكبر. تخيل أن قلبه يحترق وطلب استدعاء طبيب،

إلا أنهم ضحكوا منه مهونين الأمر عليه. صرخ بهم: ألا ترون قلبي كيف يحترق؟ أم أنتم جبناء تخافون من البوليس؟ سأتحمل التبعة وحدي. أنا أفضل السجن خمسين عاماً على أن أموت الآن. ولكنهم ضحكوا وقالوا: قلبك سليم، لأنك تدور في الصالة كالأسد الهصور. واجلسوه في مكان مريح. وسقوه سائراً لم يحس بطعمه سقط في المنقطة الخواء من بطنه. ثم أخبرهم بأن لسانه غير موجود. بلعه دون أن يدري. قالوا: سيسقط من الجانب الآخر، فالقطة لا تأكل فراخها. وجاءت التي لم يستطع أن يتملكها، وأخذت تمسد شعره، وتضع مخالبها على قلبه. وهدأ. وفي المساء خرج من البيت منكمشاً على نفسه، خائفاً من أن يخطئ فيتكشف الناس أمره. وعندما دق جرس البيت الذي يؤجر فيه غرفة، وفتحت له الباب فتاة هيفاء أنيقة، نفس الفتاة التي نظم فيها القصائد، تخوف، ولم يدخل حتى خرجت من زعلها وقالت: الله، جرى ايه مش عايز تدخل، والا ايه؟ ودخل وراءها.

كان في الغرفة خلق كثيرون جاؤوا من مناطق انتخابية، وكان الراديو يغني، ومكان ابراهيم فارغاً. وفي الأعلى أحذية كثيرة، وأطراف سيقان. وخفت نفس سعيد وغدت كالريشة، كالأثير. وصارت الأصوات أنغاماً، والكلمات اصطفاق أجنحة، والقلم شفة، والورقة قطعة حرير، ثوب حبيبته "الكتابة". لانت له فجعل يكتب بيسر حتى فرغ من كتابة المقال في نصف ساعة. وأحس بنشوة لا يعادلها ذهب العالم. مرّت أغنية الراديو في أذنيه ناثرة فرحها المجاني وقلبه شبعان فرحاً.

جاء ابراهيم عرقاً في فمه سيكارة منطئفة.

_ لابد أن الاجتماع كان لاهباً.

_ كلام كثير.

_ عندما تزول الثقة يكثر الكلام.

_ لا أدري ماذا يريدون.

ولم يدر سعيد أيضاً، ولكنه تظاهر بالفهم. في هذه الأيام يجب أن يفهم ما لا يفهم، ويطوي أشرعته، وينشر أشرعة الانتخابات.

بدا ابراهيم منقطعاً عن البشر كله بحل مسألة عويصة في ذهنه. كانت السيكارة ذليلة على شفتيه، وعيناه لا تنظران إلى شيء، ويداه تتحركان على الأوراق دون علمه. وتذكر سعيد:

_ تلفنت لك سيدة، وسألت عنك.

عاد ابراهيم إلى عالم البشر، وسأل بلهفة:

_ متى؟

_ قبل ساعة.

أشعل ابراهيم السيكارة المنطفئة، واستدار له، وقال بلهجة باشة:

_ متى ستكون شاهدنا في المحكمة الشرعية؟

_ مبروك، في أي وقت تشاء.

_ قريباً جداً.

_ مع المجلس النيابي الجديد؟

_ ربما قبله.

كان الراديو يرسل أغنية "ضحيت بغرامي" وكأنه ينوح على شيء غير محدد، ليس غراماً قط، بل شيء يفقده الإنسان في لحظات السعادة القصوى، والعقل في إجازة، والحكم كله للحواس. وجاءت ساعة الصفر حين دخل رجل طويل ملطخ بحبر المطابع وقال:

_ مواد، أستاذ.

قدم سعيد مقالته بخجل، وقال الطويل: هذا لا يكفي. نبش ابراهيم في مجراته، وأخرج أشياء أخرى، طعام الصحافة المعلب. وقال سعيد:

_ سأهيئ الرأي العام الآن.

أومأ ابراهيم بذراعه وقال:
_ ولا تنس مقابلتك الصحفية.
نظر سعيد إلى ساعته وقال:
_ أوه، مضى على الموعد أكثر من ساعة، لا أعتقد أن المدير العام سينتظر.
_ على العموم يجب أن تذهب.. تثبث موجودية.
_ أهذا أمر؟
_ من صاحبة الجلالة.
نهض سعيد متثاقلاً، وكان يكره هذه المقابلات الصحفية، ولكنه أمام مرسوم ملكي.

الثاني

فتح ابراهيم عينيه على نقوش ستارة النافذة تشع الشمي خلفها، وتنبهت حواسه على الفور. اليوم استيقظ متأخراً لأن الخمرة يوم أمس لم تخلق ما أراد منها. نام ساعتين بعد الثانية عشرة، ثم استيقظ، ثم غفا قبيل الفجر. والآن كانت الشمس تضج في الأسفل، والشمس، والعصافير تزقزق وترتطم في النافذة.

أزاح المفرش الخفيف عنه، ومشى حافياً إلى علبة السكائر الموضوعة على الطاولة، وأشعل سيكارة، وجعل يدخن ويسعل، واضعاً راحته قرب فمه. وبعد نوبة السعال نظر إلى السيكارة متبرماً. وفكر مع نفسه: ليتني أتخلص من التدخين، أو من سيكارة الصباح هذه على الأقل. وأطفأ السيكارة. كان الدخان جافاً خشناً كنشارة الخشب خدش صدره. ابتعد عن الطاولة، ونظر في نقوش الستارة التي بدت في ضوء الشمس زاهية حمراء وبنية انعشت نفسه فراح يفكر بما ينتظره اليوم. ترى، ماذا سيكون موقفها من سيكارة الصباح هذه حين سيعيشان سوية؟ إنها عادة سيئة، لا تعرف كيف ستقف منها، ولا من عاداته السيئات الأخريات. لم ينفرد بها كثيراً، لم تسنح فرصة ليحدثها عن نفسه، ولتحدثه عن نفسها. كانت لقاءات عائلية في أغلبها. وما دام الأمر قد بُرم وقضى به فبقية الأشياء نوافل. وهو الآن ليس آسفاً على ذلك. فكر بأن الزواج، كما يقول بعض الناس، حياة أخرى يخلق الإنسان نفسه من جديد. والزواج عنده طفل ينمو مع الزمن، والطفل لا يولد عارفاً بكل عادات أهله، ولا مكتسباً كل عاداته الخاصة، ولا يعرف المشي ولا الكلام ولا الابتسامة، ولكنه يتعلم بالتدريج. وستعرف هي عاداته بالتدريج، من خلال معاشرتها له، اكتشافاتها كلها، من خلال زعلها وتذمرها وتساؤلها.

وسترضـى أخيـراً. المهـم أنهـا سـتعرفه، وسـتعرف حياتـه. عندئذ ستفهم لماذا وقع في تلك العادات السيئة.

أدار ظهره للشمس، ورأى الغرفة مضاءة بذوب ذهبي. غرفة صغيرة مربعة الشكل تقريباً، هزيلة الأثاث، وفكـر، ربمـا للمرة العاشرة، كيف سيكون وضع الأثاث الجديد في الغرفة. سيرفع هـذا السـرير حتمـاً ليوضـع فـي مكانـه سـرير كبيـر، ودولاب للملابس جديد. وستوضع الأريكة هنا تحت الشمس ليقـرأ عليهـا. ومنضـدة الكتابـة؟ سـيتخلى عنهـا مكرهـاً. الجريدة بيته الفكري، وستبقى بعد الزواج بيته الفكري.

وسعل ابراهيم لأنه سـمع فـي خـارج الغرفـة سـعالا. الساعة الثامنة والنصف الآن. مرر ابراهيم يده علـى لحيتـه. وانبثقت في رأسـه مشاريع كثيرة دفعة واحدة. الحلاقـة أولاً. الاسـتحمام.. تحضـير دفتـر النفـوس و.. جلـيس ثانيـة وراء المنضدة ممدداً رجليه على الخشبتين المتقاطعتين تحتهـا. كان السعال يأتيـه مـن الخـارج، ويرسـم فـي خيالـه ملامـح أبيـه. الوجـه المسـتطيل الرخـو الجلـد، الحـاجبين الكثيفـين الأبيضين، العينـين الشـكوكيتين، الأنـف البـارز المطـل بابـاء، الفم المضموم الموشك علـى إصدار أمـر. وخاطـب ابـراهيم الوجه المتمثل أمامه: ليست هذه الخطوة ضدك يا أبي، بـل لأجل عائلتنا. لم يخبر أباه بما نوى عليه اليوم. كان أبوه يريد عقد القران في البيت. يستقبل الضيوف والمـأذون، ويتصـدر المجلـس، ويـأمره أمـام الجميـع، وتـتم التمثيليـة، ويـوزع الشربت. وخلال ذلك يكون ابراهيم قد عـرق خمـس مـرات.. فوه.

تأفف، ونهض. أزاح نصف الستارة، وكأنما يصنع منفـذاً لطرد أفكاره. دخلت الشـمس مثـل شـظايا لؤلـؤة مهشـمة، ومسـحت رؤيـاه. تنـاول عـدة الحلاقـة مـن صوان الملابـس، وخرج.

كان الممشى الضيق المطل على الحوش فارغاً، والباب الأخضر المؤدي إلى غرفة أبيه نصف مسدود. مرّ به وقال "صباح الخير"، ولم يتلق جواباً. تجهم. إلا أنه رأى أباه في الأسفل، يدور في أرجاء البيت في روبه الرمادي. كرر التحية.

_ هلا، صباح الخير – رد الأب التحية بلهجته الشاكية المعتادة – كيف حالكم في الانتخابات؟

_ نستعد لها.

_ تستعدون لها عن جد؟

_ عن جد. هناك فرصة طيبة. جبهة متحدة لخوض الانتخابات.

_ وهل تعتقدون أنهم سيتركونكم تدخلون المجلس؟

_ ولم لا إذا أراد الشعب؟

_ مجلس النواب بيتهم، بنوه بأنفسهم، ويدعون غريباً من غير جماعتهم يدخل؟

اعتقد ابراهيم أن هذه مرارة، وليست اقتناعاً فأجاب:

_ الدنيا تغيرت. والأمور لا تسير كما كانت تسير قبل ثلاثين عاماً.

_ ماذا تغير منها؟ لم يتغير شيء.

وجد ابراهيم نفسه منساقاً لمعارضته ليثبت فكرة في ذهنه.

_ ألم يستسلموا أخيراً فأقروا الانتخاب المباشر؟

_ أها! – التفت ابراهيم إليه فرأى شاربه الرمادي يهتز – هذه خدعة. هذا شكل. ولكن الجوهر لم يتغير.

كانت في وجه ابراهيم ثلاثة جروح تلذعه، فقال كاظماً على أسنانه:

_ سيتغير.

_ سنرى.

_ سنرى.

واغتسل ابراهيم وخرج.

في الجريدة نظر إلى التلفون بقلب مشوق، ولما دقّ رفعه قبل أن تتم الدقة الأولى:

_ هالو... غير موجود... طيب سأخبره..

ووضع السماعة في خيبة، ودقت تلفونات كثيرة، إلا التلفون الذي ينتظره.

ثم جاء سعيد:

_ تلفنوا إليك من بيت خالتك. يقولون ان ابنتها مريضة جداً، ويريدون أن تأخذها إلى المستشفى.

لاح وجوم على وجه سعيد. وفكر ابراهيم لماذا لم تتلفن له حتى الآن؟ أتراهم أقنعوها بالنكوص، وسينتصر أبوه؟ وقال لسعيد ليطرد وساوسه:

_ هل أنت مستعد؟

_ اليوم؟

_ بعد ساعة.

وتلفنت بعد ساعة ونصف قضاها في شكوك وتوجسات.

في الطريق إلى المحكمة سأل ابراهيم سعيداً:

_ كيف علاقتك مع أبيك؟

_ لا بأس بها.

_ هل يفرض رأيه عليك؟

_ فات ذلك منذ وقت طويل. ولكنه أحياناً يندم على غلطته الكبرى.

_ انك جئت إلى الدنيا؟

_ لا، بل لأنه أدخلني المدرسة، وجعلني أقرأ وأكتب.

_ ولكنه حين يسمع في مقهى المربعة رأياً طيباً في مقالة كتبتها، يأتي راكضاً إلى البيت، ويسهر حتى يراني عائداً في الليل ليقول لي: أنت فخري. أنا ولدت أمياً، وسأموت أمياً. وأنت كيف؟

_ أحياناً يحدث شيء مماثل مع أبي. وفي كثير من الأحيان يتصور أنني ما أزال تلميذاً في متوسطة الرمادي.

_ الآباء دائماً يتمسكون بسلطتهم.

_ ويلجأون إلى أشياء سيئة للتمسك بها.

_ وهذا ممكن أيضاً.

_ اليوم نتحدث مع أبي عن الزمن. قال ان كل شيء باق على حاله لم يتغير.

_ لأن التغيير يعني زوال السلطة.

_ ونحن ماذا يكون موقفنا منهم؟

_ أن نسير في طريقنا بالشكل الذي نراه صائباً، على أن لا نجرح شعورهم. على الأقل لأنهم ربونا، ووضعوا بيدنا القلم كما تقول أمي. انظر أي جَلَد وصلابة لأي أب عراقي. يربي ستة وعشرة أولاد وبنات بشجاعة وصبر دون أن يعرف طريقة لتحديد النسل. أليست هذه بطولة؟

_ بطولة.

ودخل ابراهيم المحكمة بشعور قلق، لأنه قد يكون بطلاً أيضاً. ولما دخل غرفة المحكمة شبه المظلمة بمنضدتها الطويلة المغطاة بالمخمل الأخضر ووقف بين سعيد وخطيبته خيل إليه أنه وقف مثل هذا الموقف من قبل، ولكنه لم يتذكر، ولم يكن له الوقت ليتذكر أين كان ذلك. وعندما خرجوا وقبله سعيد بحياء أصر سعيد:

_ أريد أن أشرب شربتاً في يوم عقد قرانك – وهمس – وداعاً لحياة العزوبة الطليقة كالتشرد.

قال ابراهيم:

_ أردت أن أتخلص من الشربت، فعقدت القران في المحكمة وأنت تلاحقني؟

_ ضروري، ضروري. دعنا نشرب شربت تمرهند، الحامض الحلو – وخفض سعيد صوته وأضاف – كالحياة الزوجية.

ولكنهم لم يشربوا تمرهند، لأن بائع المرطبات قال:
_ شربت تمرهند راح وقته. جاء زمن الكوكا كولا.
وشربوا الكوكا كولا مرغمين. وقال سعيد همساً:
_ المهم أنها لا تخلو من لذع.
كانت لاذعة حقاً ببرودتها وطعمها. عندما وخزت أنف ابراهيم تذكر ذلك الموقف الذي وقفه من قبل. وقفه في غرفة صغيرة انعقدت فيها المحكمة العسكرية في معسكر الوشاش لتحاكمه أيام نوري الدين محمود. كان يقف أيضاً وسط الصف مترهباً متوقعاً شيئاً جديداً في حياته، شيئاً ينطق به حاكم. ولكنه في تلك المرة خرج من الغرفة وحده طليق السراح، والآن خرج مع امرأة ستظل رفيقة حياته.

الأول

فزع سعيد حين رآها ممددة على سريرها بلا حركة، مزرقة منفوخة مثل غريقة انتشلت من توها.
قالت أمها:
_ ظلت تسعل ثلاثة أيام. والآن أحسن، ولكن انظر ماذا حصل لها.
وأزاحت الدثار عنها. كان بطنها منتفخاً بشكل لا يتناسب مع عمرها وحجمها، وكانت ركبتاها معكوفتين، وقدماها مثل قدمي امرأة راشدة، وصدرها الملصوق يعلو ويهبط مثل منفاخ. وكانت رقبتها هزيلة للغاية. وخاف سعيد وكأنما احتواه والموت مكان واحد، وود لو يهرب. سأل الأم؟
_ هل تستطيع أن تنهض؟
_ تستطيع.
راحت تناديها. تلفت سعيد في الغرفة. كانت صغيرة شبه مظلمة يحتل سرير حديد لشخصين ثلثها، والثلثان الآخران موزعان بين سرير الطفلة، وصوان ملابس، وفسحة صغيرة. وكانت في الغرفة بقايا آدمية وعفونة. أحس سعيد بأنه واغل متطفل على بيت غريب. وزاد من هذا الإحساس أنه رأى سروال بيجامة مخططة يتدلى من مشجب. ونكص رأسه منقبض القلب، مغالبا رغبة قوية في أن يفر من هذا البيت المنحوس.
رفعت الطفلة جسمها بمعونة أمها، وقالت الأم:
_ هذا ستار يطرق الباب.
سمعت الطرق وحدها، وخرج قبلها، وأعاد إليه مرأى ستار شيئاً من الاطمئنان:
_ يجب أن نأخذها إلى المستشفى حالاً.
_ نعم، جئت بسيارة ووضعتها قرب الجامع. لا تستطيع دخول العقد.

حمل ستار الطفلة على ذراعه، وهرول بها، والأم تحاول اللحاق به، وسعيد متأخر عنهما خطوات خجلاً شاعراً بنظرات النسوة المارات وكفّ النجار عن نشر خشبه – طويلة. وقال ستار يلهث:

_ السيارة هناك.

وضعها فيها وعدل بنطلونه، واعتذر عن المجيء لأن عليه وضع توزيع البريد.

في المستشفى سارت الفتاة بضعة أمتار وتوقفت تعبة. ركض سعيد إلى الدكتور رؤوف. كانت نظارة سعيد جواز مروره إلى الردهات الداخلية. استقبلته الردهات الساكنة برائحة أدوية، وطعام لا يبعث على الشهية. وفي الردهة العشرين لم يكن الدكتور رؤوف موجوداً. أعلنت ذلك ممرضة ممتلئة، ومنعت سعيد من الدخول، وانتظر سعيد في الممر ذي الأرض الرمادية الكالحة، المطل على حديقة خالية من بهجة الحدائق. مرت من أمامه نقالة تنقل امرأة لا يلوح منها غير شعرها الأشيب، وعربة رصاصية اللون لم يعرف أتحمل أدوية أم طعاماً، وسمع صراخاً أجوف كأنه صادر من فم بلا أسنان، أعقبه صوت معدني مثل غطاء يوضع بلا أحكام، تلا ذلك وقع أقدام صادر من مجاز الردهة أمامه. وبعد نصف ساعة رأى سعيد صديقه الدكتور مقبلاً نحوه.

_ هِل أنت في انتظاري؟

ومَنْ غيرك؟

_ أنا أعرف أن الأطباء لا يُذكرون إلا في الملمات.

_ أليست هذه مفخرة لهم؟

_ لا أعرف. هل عندك مريض؟

_ الطفلة نفسها. ساءت حالتها كثيراً.

صمت الدكتور رؤوف ناقراً أنفه بسبابته، وقال:

_ ألا تستطيع أن تأتي بها إلى هنا؟

_ هي مع أمها قرب العيادة الخارجية.

_ اجلبها إلى هنا. تعال لأخبر الحاجب ليسمح لكم بالدخول.

خرج سعيد إلى الشمس، وهواء أنظف. ذلك نصف المهمة قد أنجز. وأمامه الآن النصف الآخر، أن يحمل الطفلة مع أمها إلى الردهة. وذلك أشق عليه وأعسر، لأنه تصور جسم الفتاة رخواً كالاسفنج. والمرضى بشكل عام، ذوو رائحة خاصة، ومزاج خاص، وأجسامهم تفقد حياتها وإنسانيتها. وانعطف سعيد، ورأى الفتاة جالسة وحدها على المصطبة وعلى بعد خطوات وقفت حليمة تحادث زوجها حميداً.

ارتد جسم سعيد إلى الوراء بحركة لا إرادية، وانزوى قرب الحائط. كان حميد ينظر إلى الحديقة، وحليمة إلى ابنتها. كانا متقاربين جداً، مثل أي زوج وزوجة. كانت تهمس، أو هكذا خيل إلى سعيد، مثلما تهمس امرأة لزوجها، ووجهها قريب من وجه زوجها. وكان حميد ينظر إلى الحديقة مفكراً، واضعاً قدمه على سياجها. زوج وزوجة في خلوة يتهامسان بشيء يخصهما. فلماذا يتطفل عليهما؟ أين موضعه من هذه الجملة المعقدة التي لم يشترك في كتابتها ولا التفكير فيها: حليمة زوجة حميد، والطفلة المريضة ابنتهما. تحركت الطفلة ورفعت يدها. بينما تقدم حميد خطوة وتوقف. سار سعيد نحوه لا يدري ماذا سيقول له. إلا أن حميداً التفت وراه، وكانت على فمه ابتسامة متكدرة. بادره سعيد دون سلام حتى يُضفي على الموقف جدية، ويتخلص من الكلام الزائد:

_ لنأخذها إلى الردهة. الدكتور بانتظارها.

انحنى حميد إلى ابنته، وسألها:

_ تقدرين تمشين؟ استندي علي.

نهضت الطفلة. أنت في الخطوة الأولى، واتكأت على أمها متأوهة مع كل خطوة، وبعد عشر خطوات أو نحوها

ارتخت، وبركت على الأرض. أراد سعيد أن يعرف كيف يتصرف حميد. بقيت نفس الابتسامة على شفتيه الغليظتين، ولم يكترث حتى انهدت الطفلة، وهي لم تكترث به أيضاً. لم تدعه "بابا" مرة واحدة، ولم تسند إليه جسمها. وكان واضحاً أن حميداً لا يريد أن يحملها مثلما حملها ستار على ذراعه، والأم لا تقوى على حملها. وتحرج سعيد، ولم يعرف كيف يتصرف. وجاء الفرج من كرسي نقال كان يدفعه رجل بنفس الاتجاه. ركض سعيد إليه، وسويت القضية بدرهم.

وفي الردهة رفع الدكتور رؤوف بصره إلى حميد أولاً. ثم قال: ادخلوها الغرفة. وفي هذه المرة حمل حميد ابنته ثلاثة أمتار، وأجلسها على سرير الفحص. وقال الدكتور: لتبق أمها معها. ثم سأل:

_ هل السيد أبوها؟

أجابت الأم بالإيجاب. فقال: يستطيع أن يبقى أيضاً إذا أراد.

ولم يرد. فضل الانتظار في الخارج، حيث أنهبد على المصطبة قرب سعيد قائلاً باعتذار:

_ لا أستطيع أن أتحمل. أتعجب كيف يقضي الأطباء والممرضات مع المرضى والموت طول حياتهم.

قال سعيد في حسرة:

_ لأنهم أنبياء. والأنبياء يتحملون الأذى أكثر من الناس الاعتياديين.

_ يجوز، ولكني أفضل أن أكون اعتيادياً على نبوءة كثيرة التبعات.

لم يتوقع سعيد مثل هذا الحديث. كان ينتظر من حميد شيئاً آخر، وهو يراه لأول مرة مع زوجته. يعني أنه ذهب إلى البيت. فكيف يتحدث حميد بخلو البال هذا؟ لا تقريع ولا عتاب ولا تساؤل. وكأن المفروض أن يذهب سعيد

إلى بيته، ويأخذ له ابنته إلى المستشفى ليأتي بعد ذلك خليّ البال.
_ حميد، قل لي. كيف عرفت أننا هنا؟
جازف أن يسأله بعد فترة صمت.
_ تلفنت إلى ابراهيم، فقال انك ذهبت لتأخذ ابنة خالتك إلى المستشفى. فعرفت.
_ وكيف عرفت أن ابنتك هي المقصودة؟
_ تحدثنا عنك في الصباح. حليمة معجبة بشهامتك.
كانت في لهجته سخرية، ولكن بلا ضغينة أو استياء. فهل ذلك بداية تسليم للأمر الواقع، والعودة إلى أحضان الزوجة؟ بشائر نجاح سعيد في أول عمل فاضل يقوم به. خرج الدكتور من الغرفة وحده، وأقبل عليهما، وخاطب حميد مباشرة:
_ ماذا لو أبقيناها في المستشفى؟
وافق حميد إذا كان ذلك ضرورياً.
_ ضروري، ضروري. حالتها سيئة، أصيبت ببرد خبيث. أمها تقول كانت تسعل.
_ لا تدعنا ننام الليل.
خرجت الأم وابنتها، وعاد الدكتور إلى غرفته ساحباً معه سعيداً من يده. وفي الغرفة سأل الدكتور:
_ أليس هذا حميداً في قسم الحوالات في البنك؟
_لا أعرف في أي قسم يعمل ولكن الباقي صحيح.
_ رأيته، وسمعت عنه. ولكن لا تبدو هذه المرأة زوجته.
لزم سعيد الصمت، فتابع الدكتور قوله:
_ أليس غريباً أن تكون لمثقف مثل هذه العائلة؟
قال سعيد في حزن:
_ ولماذا؟ كل شيء يحصل في الدنيا.

حدجه الدكتور رؤوف بنظرة. وشرع يكتب. سمع سعيد من الخارج وشوشة الزوجين. فقال لنفسه: إن للزوجة أحاديث لزوجها. ربما هذه أول فرصة تسنح لها للتحدث إليه بهذه الكثرة، أن تجده إلى جانبها وقت الشدة، أن تذرف له الدمع وهو راض. كانت تبكي. كانت الوشوشة تنقطع لتتحول إلى عبرات متقطعة في الصدر، ونهنهة. وكان يسكتها. وحين خرج سعيد مع الدكتور رأى سحنة حميد عابسة، وعيني حليمة مخضلتين بالدمع. قال الدكتور:

_ ستأتي عربة لتوصلها إلى ردهة أمراض القلب – وأطلقت الأم عبراتها فقال لها الطبيب – لا تبكي فتحزني ابنتك. الحزن أعدى أعدائها. ستكون بخير إن شاء الله. أيام وستعود إلى البيت.

ولكن الفتاة لم تعد إلى البيت. ماتت في اليوم الرابع. عرف سعيد ذلك من حميد. ودفنت في مقبرة المستشفى "لأن لها أخواناً هناك" كما قال حميد أيضاً. ووجد سعيد فرصة سانحة ليحدث حميداً بصراحة.

الرابع

جلس عبد الخالق وراء مكتبه في صبيحة يوم حزيراني يقلب جريدة "الناس" ويضحك متمتماً بشتائم يريد بها الاستحسان. كان يضحك من كل قلبه، وكأنه أمام صورة كاريكاتورية. ثم ضرب الجريدة بظاهر كفه، وقال: "بلكت، بلكت!". وتلتف في غرفة مكتبه الصغيرة. وخاطب الأريكة الفارغة والكرسي: "أليست هذه بادرة؟" وعاد يقرأ الأسماء. معظمهم سيحمل فساد معدته إلى المجلس. ولكن الجدران ستسمع كلمات جديدة من الائمة الاثنى عشر، المفوضين من الشعب. لا. ستقال "لا" بطبقات صوتية متفاوتة. ستنهد بعض المقاعد متنفسة الصعداء، وربما ستترحم أخرى على أصحابها القدامى. من يدري؟ ليس النواب بطيخاً ليحزروا. إلا أن العملية بحد ذاتها شيء حسن. وضرب عبد الخالق الجريدة مرة أخرى.

كان عزيز يتحدث في الخارج ويقهقه. أرهف عبد الخالق سمعه لحظة ليسمع ما يقول. لم تلتقط أذناه كلمات مفهومة. إلا أنه ابتسم لتلك القهقهة العالية النبرات، الخارجة من قلب مطمئن. تركها تدخل إلى نفسه، وتداعب برعم فرحة تفتح في هذا الصباح الحزيراني.

في مثل هذه الأوقات الحبلى بأفكار ترفس في رأسه وتعذبه كان يحن إلى أصدقائه حنيناً عارماً، ويخاف أن يبقى مع نفسه، لأن تلك الأفكار كانت تنقلب إلى مردة تضعه في دائرة جهنمية، وتظل تحاوره وتلح عليه، سائلة إياه وهي تشد على قبضاتها "أليس كذلك، أليس كذلك؟" وعليه أن يحاورها، يرد عليها بشكوكه، ويتحمل ضغطها، ووقع قبضاتها في رأسه وفي أعصابه. وكثيراً ما كانت تنتصر عليه بعد أن تستولي على لسانه، وتسيطر على حركات يديه، وتدفعه

إلى أن يقول أشياء يعتبرها أصدقاؤه – على الأقل – مفاجأة لهم.

واليوم، حين قرأ جريدة "الناس" أحس بتململها في دماغه. وكان يحس بأعراض ولادتها منذ كارثة الفيضان، وسقوط الجمالي، وإعلان الانتخابات، وظهور حركة جديدة في الجو السياسي الخامد، والاجتماعات الفوضوية التي شهد واحداً منها في سوق الضفافير و.. و.. واليوم عقدت المردة مجلسها، ووضعته في الوسط، وسألته سؤالها التقليدي:

_ أليس كذلك، أليس كذلك؟

أجابها:

_ بلكت، بلكت.

سألته:

_ أليست هذه بادرة؟

أعاد قراءة الأسماء، وقال لها:

_ معظمهم سيحمل فساد معدته إلى المجلس.

_ لا.

_ ليس النواب بطيخاً ليحزروا.

فردت عليه أفكاره:

_ ولكن العملية بحد ذاتها شيء حسن.

وضرب الجريدة مرة أخرى.

وسمع دوي أفكاره مثل دوي عاصفة بعيدة توشك أن تهب. نهض من مقعده، وكأن نابضاً قفز به، وأوقفه على قدميه، وخرج وقال للفراش: أنا ذاهب إلى طبيب الأسنان. وفي الخارج رأى حزيران يصنع تاريخه متدخلاً بين البشر وحياتهم. وفي الفناء الشبيه بفناء مدرسة قديمة كان الناس يلبطون في غبار مشمس، ويوشوشون، أسرى مشاكلهم اليومية. اخترقهم شاعراً بروائح أجسادهم، متلقياً كلماتهم التافهة المفككة مثل أجزاء آلة تالفة

تستعمل لأغراض أخرى. وارتمى ظل أسود على أعصابه، خف وصار رمادياً حين رأى جرائد اليوم مصفوفة عند باب الدائرة. "انظر..!" قالت له أفكاره. كانت العناوين بارزة. شيء يختمر في الجو. ورفع بصره إلى المارة مستنطقاً سحناتهم. نفس الوجوه المجهدة، المخددة بالشمس، والعيون الغائرة، أو المطبقة نصف إطباقة. كلها تنطق بتاريخ الماضي، وليس للحاضر فيها نصيب. تمعن، وتلقى نظرات مستربية، وكأنها تقول فيها: هل أنت جاسوس لتتمعن فينا؟ تحقيقات جنائية!

وارتد إلى نفسه، وناقش أفكاره. هذه الأعصاب مثل وتر المندفة لا تهتز إلا بطمخاخ، وهذه العيون سيئة الظن إلى حد الشك في نفسها. وقالت له أفكاره: "أنت مثلهم أيضاً تشك في أفكارك. أليس كذلك؟". وكان قد وصل إلى الفسحة أمام مديرية الشرطة. هناك كانت السيارات مصطفة قبل شهرين، وعليها الأكياس. وتذكر تلك اللحظة المضيئة التي غمرته، ذلك الإحساس بأنه صوت في لحن جماعي. كارثة القيضان أدت مفعولها على أية حال. جرفت الجمالي مخنوقاً بحبل مشاريعه الثنائية، وجاء الائمة الاثنا عشر رغم التلاعب والتزوير. ألا يدل ذلك على شيء؟ إنه يحس بدوي ضجة قادم. كانت المدرسة الإعدادية على يساره. جيل الغد ينبض في فناء مدرسة. لو وقف وقال لهم: يا أصدقائي، ألا تسمعون الأرض في مخاضها، الرنين البعيد يقبل من أفق نوراني يحمل أسرار الحياة وجبروت الإنسان؟ هل سيفهمونه؟ لا بأس. سيضمن ارهاصاته بقصة تعبر عن آلام الولادة. يستطيع الائمة الاثنا عشر أن يقلبوا الجو إذا أرادوا. ولكن من يدري؟ ليس النواب بطيخاً ليحزروا.

ووجد نفسه قرب إدارة جريدة "الناس" في بداية رتل للسيارات بمحاذاة الجدار المحدودب. وقال لنفسه "هنا الجمعية الوطنية الفرنسية!.. ميرابو وروبسبيير، ولكن

بسيارات أمريكية!" وشم رائحة حبر المطابع، وهو يتخطى العتبة وينزل الدرجات. خامره شعور بأنه داخل في خان قديم. كان صحن الخان مزروعاً بالناس أفندية ومعقلين، يتهامسون قرب الحيطان. اضطر إلى أن يسلم إلى بعضهم، وينزل درجات أخرى إلى سرداب التحرير.

لفته غمامة من الدخان والضوضاء، وضاع بين كتل المتجادلين، ثم ظهر أمام مكتب ابراهيم. كان منكباً على ورقة يجبر فيها:

_ هيه! كيف تستطيع أن تكتب في هذه الضوضاء!

رفع ابراهيم رأسه وحياه بتكثيرة، ثم:

_ هذه مهنة الصحافة. ألم تسمع بالمراسلين الحربيين يكتبون في ميادين القتال؟

قال عبد الخالق:

_ فعلا، ساحة قتال – وأشار إلى الحوش.

كان يهزأ. ولكن الحوش كان يموج بالناس، مثل خلية نحل فعلاً، مثل هيئة أركان. ولم يكن عبد الخالق قد رأى ذلك من قبل. ومرت في نفسه موجة حركة عفوية قصيرة. شيء صميمي واقعي يريد أن يأسره. ورأى نفسه يضحك بتفاؤل، ويريد أن يقول بشيء احتقالي. ولكن ابراهيم بقي صامتاً. بدا وجهه مثل رغيف خبز لم يكمل خبزه، أبيض وليناً. لا تستطيع أن تقرأ فيه غير الحزن. والسيكارة مرخية على شفته. وخشخش شيء وراء عبد الخالق وفطن إلى مكبر صوت وراءه يدعو ابراهيم. وكان عبد الخالق قد وصل إلى نقطة قوية من الاقتناع بأفكاره، أمام هذا الجمود الحجري، وحتى لا يقال انه فرح بفوز حفنة من النواب سيحمل بعضهم فساد معدته إلى المجلس. وخرج ابراهيم دون أن يستأذن، وتوترت أعصاب عبد الخالق. الملعون كأنه تمثال أبكم. يعيش في العملية، ولا يحس بانفعالاتها. وتذكر موقفه حين دعاه إلى مكافحة الفيضان. هؤلاء الناس تختزل

الحياة لديهم في الشيء الذي يمارسونه كل يوم، وكأنهم يؤدون عملاً مأجوراً. وفجأة رأى عبد الخالق سعيداً أمامه:

_ هوى. أنت هناك؟

_ أنا واقف على رأسك منذ خمس دقائق. في أي بحر كنت تبحر؟

_ كنت أبحر في غواصتكم العجوز.

ودخل سعيد إلى مكتبه، وجلس ضئيلاً لامع النظارة والأنف، وقال:

_ هل تريد أن تحضر حفلة افتتاح المجلس؟

_ وهل ستحضر أنت؟

_ سأحضر. إنها جلسة تاريخية.

_ تريد أن ترى كيف يجلس النواب في مقاعدهم؟

_ أنا لم أر مجلس النواب في حياتي كلها.

_ مثل قاعة أي مسرح. سوى أن الممثلين موزعون في القاعة.

_ هل أنت متشائم؟

_ بل متفائل، ولكن ليس مبعث تفاؤلي فوز 12 نائباً، بل العملية في حد ذاتها تدل على حركة في جو كان الموت يسوده. ألا ترى حركة غير اعتيادية منذ كارثة الفيضان.

_ بلى، نعم.

_ ما هذه السخيفة "بلى، نعم؟" ألا ترى كيف تتحرك الصور على الحائط الجامد؟

_ أنا فاهمك.

_ من الخير لك أن لا تقول هذه الجملة. إنها شك.

_ لا، والله.

_ ألا تحس بالأرض تتململ؟ عن صدق؟ ألا تحس بأن أعماق الناس تفور بشيء جديد كنت أتنبأ به من قبل؟

_ طبعاً. يبدو أن الجو سيتغير.

_ سـيتغير حتمـاً، لأن الحيـاة لا يمكـن أن تظـل علـى منوالها الجامد، وإلا انطفأت.
هزّ رأسـه هزة اسـتسـلام.
_ نعم.
_ هل أنت تفهمني حقاً؟
_ أكثر من أي إنسـان.
_ ولماذا لم يفهمنـي ابـراهيم؟ تركنـي حتـى دون أن يسـتأذن.
_ ابراهيم مشـغول بأفكاره، بمشـاكله العائلية.
_ ما أسـرع ما صارت له مشـاكل عائلية وقد تـزوج قبـل أسـبوع.
_ زواجه هو سـبب المشـاكل. أقصي عن بيت الأبوة.

الثالث

كان حماماً ممتازاً، تطهيراً جسدياً مباركاً. طوّق البخار القطني، وتغلغل في طيات جسمه وامتعص كل برودة الشتاء. شعر بسريان البرودة تحت جلدة ظهره. ثم حك جسمه بالكيس، وتلذذ برؤية الفتائل تخرج منه، مثل فتات خبز عفن. وتصوبن عدة مرات صانعاً على جسمه رغوة كالريش. وعندما خرج من الحمام أحس بأنه نقص أربع كيلوغرامات. كان خفيفاً، قابلاً للعوم في الهواء. اكتسب جسداً جديداً مكسوراً بزغب ناعم، جسداً يتماوج عليه الحار والبارد، وتسري فيه ليونة حريرية. وجعله هذا الاحساس بالحفلة والجدة يحلم بكل شيء، ويغامر، ويكسب، ويدخل عوالم ليست مباحة للأجسام المتدبقة. وكان على جسده ثوب حريري من ابراهيم بمناسبة عرسه، وربطة عنق من حميد، ودرهمان من سعيد. ووقف يتطلع على هيئته أمام دكان حلاق توهم أنه يريد أن يحلق. ولكنه انصرف قبل أن يقفز الحلاق عليه. وكانت في جيبه قصيدة نظمها البارحة، وهي التي أشعرته، بعد نظمها، بأنه وسخ، وعليه أن يتطهر. سكب سيولا من العرق وهو ينظمها وتلزج جسده. ولما فرغ منها أحس بأنها النظيفة الوحيدة في كيانه، وأنها أرق من صاحبها الذي نظمها. وفكر: ربما ذلك نفس شعور المرأة حين تضع طفلها!

لم تكن صبرية في مدار خياله عندما غادر مرآة الحلاق راضياً. كان يستهين بالصغائر، ويريد أن يغزو العالم بهذا الجسد النظيف. ولكن العالم ضيق طاف فيه بخياله فلم ير في جنباته غير حبيبته الطالبة في كلية الطب فقرر أن يغزوها في عقر دارها. برزت أمامه، وسدت عليه أطراف خياله. ولما راح يفكر فيها شعر بحضورها الوجداني تماماً، وكأنها تلامسه. نعومة جسده جزء من نعومتها، وكأنه يلبس

عباءتها على جسده العاري. وحنّ إليها حتى النخاع. مضى وقت طويل دون أن يوفق في رؤيتها. ليتها تراه في عيده الجسدي. وكأن يسير مدفوعاً بقوة غامضة إلى باب المعظم. رآه على عهده موّاراً بالسيارات والناس. وقف عند قاعة الملك فيصل يتأمله محطة الباص. هناك كانت تقف بانتظاره، وتحدجه بنظرة تعني "الحقني!.." كانت محطة الباص موحشة في تلك اللحظة. اعرض عنها، وجال ببصره في أرجاء الميدان. وقال لنفسه: عجيب باب المعظم هذا. لو فكر الناس بما فيه لقالوا هذا عالم المتناقضات. فيه السجن المركزي ووزارة الخارجية. مقبرة ومكتبة عامة. مستشفى وبهو للاستقبال. دار للمجانين وقاعة للتمثيل. كلية للبنات وأخرى للأولاد. مستشفى أطفال ومتحف طبيعي، وأشياء أخرى. كلها تتعايش ببرود عجيب، وتتنفس وتزفر في الغبار والوهج، والعرق والدموع، والأحلام والحشرجات، والصرخات المخبولة. ومحبوبته نقطة صغيرة في هذا العالم المتوتر، عليها أن تحتفظ بأعصابها، ودروسها، وجمالها، وصورته في زاوية من قلبها فكيف لا يسامحها إذا سهت عن ميعاد وقوفها في محطة الباص؟ وترك الميدان، وسار نحو كليتها. وبعد أن خلف وراءه مستشفى المجاذيب سمع صوتاً يناديه. التفت ورأى وجهاً يعرفه.

_ هيه، هذا كريم. كأنك جئت على طلبي.

تصافحا، وقال كريم وهو يبتسم ابتسامة مربعة:

_ من الذي جاء بك إلى عالمنا؟

امتعض الشاعر قليلاً، ورد بخشونة:

_ الذي قذف بك إلى وادي عبقر.

كان كريم يقرزم الشعر، ويتردد بعض الحين على مائدة الأصدقاء الخمسة طلباً للنصح، وطمعاً بالمزة. قال كريم متراجعاً:

- أنا في خدمتك على أية حال آملاً أن ألقى نفس الخدمة في واديك.

قال الشاعر يسد عليه أبواب الأمل:

_ لن تكون شاعراً ولو أكلت ألف صحن من المزة.

_ ولماذا؟

_ الطب والشعر على طرفي نقيض. الأطباء يهتمون بالأمراض، والشعراء بالورود. الأطباء واقعيون إلى حد النقزز، والشعراء خياليون إلى حد الجنون.

_ إذا جمع الإنسان هاتين الصفتين، ألا يكون رائعاً؟

_ نادراً ما يكون رائعاً، وكثيراً ما يكون سخيفاً، مثل حالتك.

قال كريم بحزن:

_ سيد شريف، لا تقسو عليّ، أرجوك.

_ حسناً. لا أقسو عليك، في الوقت الحاضر.

سارا بضع خطوات صامتين. وسأل كريم بلهجة أخرى:

_ هل أنت ذاهب إلى الكلية، أم لزيارة مريض؟

_ إلى الكلية لزيارة مريض؟

لوى كريم جذعه لينظر في وجه شريف مبتسماً، وكأنما اكتشف شيئاً جديداً فيه. قال شريف هارشاً ذاكرة صاحبه، متلفتاً حوله مفتوناً:

_ رغم أنكم وسط الأمراض، إلا أنكم وسط الجمال أيضاً.

_ إذن، فقد جئت لزيارة الجمال؟ - قال كريم متذكراً.

_ وهل يستطيع شاعر على وجه البسيطة أن يعيش بلا جمال؟ لماذا هام الشعراء في كل واد؟ أمن أجل يربوع؟

_ ربما من أجل أفكارهم.

قال شريف بلهجة حادة:

_ اسكت. لولا النساء لما كانت هناك أفكار مطلقاً.

_ تعجبني مثل هذه الصراحة – قال كريم باستسلام ملائكي – أنا مستعد إلى أن أفتش عن أي جمال تريده.

وكانا قد وصلا إلى حديقة كلية الطب، فأمره الشاعر:

_ اذهب الآن، وفتش عن سالم ماهر.

_ ممنون. اجلس على هذه المصطبة قليلاً.

_ ما عليك مني. اذهب.

كان سالم كاتم أسرار الشاعر، وناقل أخبار الحبيبة، وزميلها في قاعة واحدة. جلس الشاعر ينتظره في الحديقة الصغيرة أمام الكلية. كانت الحديقة منسقة ومزروعة بالورود؟ وها أنا أستنشق ما استنشقته حبيبتي، فأحس بأنفاسها في الجو. يا لسعادتي! لماذا أخرجني أبي من الصف السادس، ولم يدعني أكمل دراستي؟ إذن لكنت الآن في الأروقة التي تتعانق فيها أنفاس الجنسين في حنين إلى مصيرهما بعد الدراسة. ولكن ربما ما كنت شاعراً. وسمع الشاعر زغردة أصوات على يساره. فرفع رأسه، ورأى سرباً من الطالبات يهبط الدرجات إلى الحديقة. مرر بصره به مسرعاً، ولم يجد الوجه البيضوي بين حماماته. نهض من المصطبة، وسار في الممشى. فكر: لو كانت حبيبته بينهن لربما رآه بلا عباءة، لأول مرة. أي ثوب ترتدي؟ لا يدري. وهل كان قيس بن ذريح يعرف لون ثوب حبيبته؟ سلم عليه إنسان لا يعرفه: مرحباً أستاذ شريف. وانتشى وتحاشاه. وجاء كريم يركض.

_ سيأتي سالم بعد عشر دقائق. عنده انتومى. تعال نجلس على المصطبة. التقت العيون، وتكهرب جسد الشاعر. ضحكن وابتعدن عن المصطبة. همس الشاعر بفم جاف:

_ زاحمنا الأوانس.

رفع كريم صوته وناداهن، ولكنهن واصلن ابتعادهن. قال شريف:

_ اتركهن. أنا أتضايق من الدلال.
_ كان في الإمكان أن يجلسن معنا على مصطبة واحدة.
_ خشين أن أسمع دقات قلوبهن.
_ وهل تعرفهن؟
_ يبدو أنني رأيتهن يتضاحكن في باب المعظم – ثم أضاف متعمداً – مع واحدة هي من أجمل خلق الرب.
ولكن الكلمات مرت دون أن تثير جليس الشاعر. فقال شريف كالحالم:
_ كانت كالثريا وسط حبيبات النجوم.
_ معنى شاعر رائع.
_ وكان بصرها مثبتاً فيّ يحمل أشواق الأرض العطشى.
_ لطيف.
اغتاظ شريف من هذه الغفلة، ودخل الموضوع مباشرة:
_ هل تعرفها؟ انها ترتدي عباءة.
_ كل هؤلاء يرتدين عباءات. ما اسمها؟
_ لا أقول لك اسمها. ولكنها تسكن.. وراء القصر الأبيض.
_ عرفتها بيضاء ممتلئة قليلاً تحت عينها شامة.
سكت الشاعر مبهوراً بهذه الأوصاف. كان الطالب يعرف أوصاف حبيبته أكثر منه. تساءل كريم:
_ أليست هي؟
_ ربما.
_ إنها مخطوبة.
_ ماذا؟ أغلق فمك.
وهمّ الشاعر أن يصفعه.
_ والله العظيم مخطوبة. من طالب بعثة في لندن.

تمالك شريف نفسه، وقال:

_ إذن. ليست معي.

وفي داخله دارت آلاف اللوالب، ولوت أحشاءه، وجففت قصباته الهوائية. تنفس هواء خشنا. وفكر مع نفسه: ربما هذا صحيح. سينطفئ مصباحي قبل أن أقرأ عليه أول مقطع من أغنية حبي. وقد يكون كذباً. أنا لم أر الشامة، بل رأيت ليل عباءتها، وتقاطيع جسمها من وراء العباءة، وشمعداني يديها، ومعصمها. والتاج الأسود الذي يبرز من تحت العباءة، ووجهها حين تكون عيناي قد فقدتا نصف مقدرتهما على البصر.

وجاء سالم مبتسماً، وسلّم وهمس في أذنه.

_ جئت على الغزال في كناسه؟

ومسح بهذا التعبير جانباً من المرارة.

_ أين كنت لتتركني انتظر هكذا؟

_ كان عندي تشريح. تعال معي – وجره من يده.

_ دعني أودع كريماً. مع السلامة يا كريم.

_ هل تريد أن أوريك كيف نشتغل على الإنسان؟ - سأل سالم وهو يجره.

_ لا أريد. اترك يدي.

_ دعني أريك شيئاً لم تره طوال حياتك.

_ لا أريد، لا أريد. اسمع – وأوقفه ونظر في وجهه وقال – قل لي هل هي مخطوبة؟

_ من قال لك؟

_ كريم.

تريث سالم في الجواب:

_ لا أعرف. سمعت أنا أيضاً بهذه الإشاعة. ولكن لا تصدق.

قال الشاعر بإيمان:

_ لن أصدق ولو انقلبت السماء على الأرض. أنا واثق من نفسي.
_ اطمئن. كل واحدة تحلم بأن تكون مخطوبة.
_ ثم انه في لندن. وأنا هنا أعايشها في مدينة واحدة، وأركب معها باصاً واحداً.
_ هذا حق من حقوقك.
_ اتضحك؟
وأوقفه شريف مرة أخرى.
_ لا، بالشرف – وقاده من يده.
_ إلى أين تقودني؟
_ تعال معي. فرصة لا تفوت. أنت تهتم بكنه الوجود.
_ أنا لا أهتم بشيء بعد الآن. ربما هي مخطوبة حقاً؟
_ إلى هذا الحد هزتك الشائعة؟
_ لو لم تكن شائعة لتوقف قلبي رأساً.
واتكأ شريف على الحائط تعباً. وفكر في الأمر جدياً، وقال وهو يستجيب لجو سالم:
_ لا. لن يكون ذلك. سأفترض فلوساً، واذهب إلى لندن لأتبارز مع هذا الدخيل:
_ قلت لك لا تصدق.
_ ولكن من أين عرف هذا الملعون؟
_ إنه جعبة أخبار كاذبة.
_ ويريد أن يكون شاعراً. يطعن شاعراً في قلبه، ويريد أن يقول الشعر.
_ ربما رآك تسأل عنها. فأراد أن يفتّك.
_ طبعاً. سألته عنها. هذه غلطتي إذن. أنا أحياناً كالغربال لا أحتفظ بسر.
_ لا بأس. الأسرار الكبيرة لا تفوت في الثقوب.
_ وهل تعتقد أن حبها سر صغير من أسرار قلبي؟
_ كنت تريد أن تتبجج.

_ أنا أحياناً أفقد أعصابي.
_ تعال، لأقوي أعصابك.
_ هل عندك مقو؟
_ أشد مفعولاً من التخدير.
_ ما هو؟
_ سأريك الآن.
تتابعت في ذهن الشاعر أفكار سوداء انصرف إليها لحظات. وسار ساهياً حتى وجد نفسه أمام باب مغلق. فأفاق على نفسه.
_ إلى أين تجرني؟
_ تعال هنا، في هذه الغرفة. لا ترفع صوتك.
_ ماذا في هذه الغرفة؟
_ إنسان يشرح.
_ وما حاجتي إلى إنسان يشرح؟
_ انظر أية مهزلة هو هذا الإنسان؟ يقطعون أوصاله بالمنشار ويشقون بطنه. ويشرحون قلبه، ويكسرون جمجمته.
_ كفى لا أريد أن أسمع.
_ وأحياناً تقسم الجثة إلى عدة أقسام تتعاون على كل قسم جماعة. وأحياناً تجزأ الجثة وتوضع في أحواض وتصبح متحجرة مثل الأعضاء الصناعية.
_ أنتم جلادون.
_ جثث كثيرة. ثلاجة المستشفى عامرة بالجثث دائماً. اليوم شرحنا امرأة ماتت في...
_ كفاية. أغلق فمك.
_ كانت فتاة جميلة كما يبدو.
_ اسكت – صرخ به شريف كالمجنون.
_ ولماذا أنت عصبي جداً؟ هذا مصير كل إنسان.
قال شريف وهو يفك يده من يد سالم:

_ وهل تحسب أنني سأترككم تعبثون بجسدي أيضاً؟ محال! جسدي الذي نظفته اليوم، وتعبت عليه، وجعلته يلمع اتركه لمناشيركم؟

قال سالم بقسوة جزار:

_ ستكون في خبر كان.

_ لن أكون – وانتفض الشاعر مؤكداً حقه في العمر المديد – أنا أقوى من الموت. وحتى إذا مت فسيكون جسدي كالحجارة وأقوى من كل منشار تمسكه أيديكم. دعني أذهب... أرجوك... أنت مجنون؟ أنا جئت على مجنون لا على طالب... دعني أذهب... جسمي تدبق.

الخامس

في الليل كانت بغداد تنقلب إلى جنة. كانت مثل فتاة ريفية حسناء قضت نهارها في حقل لاهب، وفي المساء نضت ثيابها على الشاطئ، واستحمت ساعة في نهر دجلة، ثم خرجت طرية ناعمة، واستلقت على الشاطئ تمشط شعرها، وتزين نحرها ومعصميها بالخرز الملونة، وتتمرى في صفحة الماء.

وكان حميد يهيم بها حباً. يقضي أغلب الليل معها، مسترجعاً ما وقع له في النهار مع سلمى، مفكراً بمشاريع يوم جديد يقضيه معها. بين الكأس والأغنية وأحلام الأصدقاء. وحين يتخشب الجفنان، ويصبح الرأس كالرصاص من السكر والنعاس يعود ذابلاً إلى البيت ليرى زوجته مستيقظة في انتظاره. صارت تنتظر مجيئه، تخاف، وان كل شيء يذكرها بطفلتها. سريرها، وملابسها، ونعالها، ورائحتها في الغرفة. كل شيء، كل شيء. حتى أنها تسمع في الليل أنينها. وفي هذه الليلة رآها جالسة على درجات السطح تحتضن ابنها وتبكي.

_ ما تخافين تعضك عقرب؟

_ خل تعضني وتخلصني من الدنيا.

كانت الدنيا تدور في رأسه، والدرج تحته مثل هاوية سوداء فقال لها، وهو يصعد الدرجات الثلاث الباقية إلى السطح:

_ تعالي.

وفي السطح شكت له أوجاعها بصوت موحش:

_ أنا وحدي بهذا البيت المظلم. كانت هناء شمعة البيت، على الأقل عندي واحد أتكلم معه. والآن البيت بلا ضوء. هذا البيت مسكون، وميلان بالمرض، وكل ركن نفس من الميتين. أولادي الثلاثة اللي ماتوا. كلهم يتنفسون،

ويتحركـون فـي الليـل، ويقفـون فـوق رؤوسـنا، ويقولـون: بالعجل، الحقونا..

قال لها متقززاً:

_ هذا وسواس.

_ ما أريد أبقى بهذا البيت. روحي راح تطلع.

_ إلى جهنم. أريد أن أنام.

_ خليني أروح لعمتي بكربلاء. يعني ما عندك حنية علينا؟ بقي هذا الطفل وحده.

_ في الصبح نتكلم. أريد أن أنام.

واستيقظ وظلام الليل ما يزال يملأ السطح، والنجوم فوق رأسه باهتة مرتجفة، وأحس بها تتقلب على الفراش إلى جانبه مثل حيوان موثوق يحاول أن يفك وثاقه. عم تحدثت يوم أمس؟ في ذاكرته نتف قليلة. تريد أن تذهب إلى عمتها. البيت مسكون. كانت جالسة على الدرج كالسعلاة. شبح أسود تتكور فيه تعاسته. وعند الفجر استيقظ طفلها، وصرخ، وذهبت تهزه... شش.. شش.. ظلت الوشوشة تملأ رأسه حتى بعد أن سكتت. وتململت بجانبه تريد أن تحدثه بشيء. ولم يرد أن ينطق بكلمة واحدة. لأن فمه لزج مر، ومغرى الطرفين. وحنجرته جافة. وممتعض ومستسلم إلى ارتخاء مريض في مفاصله. حرك ساقيه طلباً للمواضع الباردة من الفراش، فارتطم ساقه بساقها. وأحس بأنه ارتطم بعظم. كلها عظام. ربما هي مريضة وتنام معه في فراش واحد. رفع "الكلّة" من جانب مع أنها بلا سقف. وشمّ هواء السطح.

في الصباح أعطاها دينارين، وسألها: هل تعرفين موقع السيارات، أم تريدين أن أوصلك. قالت: أعرف. ذهبت إلى هناك ثلاث مرات. وخرج في الصباح الباكر ميمماً الباب الشرقي. وتناول فطوره هناك كاتماً رغبة قوية في كأس من الخمرة. لو ذهب إلى العمل منتشياً لاستطاع أن يكلم

سلمى بطلاقة أكثر. لم يرها قط بعينين كحلتهما الخمرة. ستكون أجمل حتماً، وأشهى، وأقرب إلى النفس، وجعل يفتش عن حانة مفتوحة، عجولاً لهفان وكأنه يفتش عن مسقى للماء، حتى رأى باراً نصف مفتوح قرب سينما الاورفلي. وجرع الكأس واقفاً. وسرت الخمرة في صدره، وأوصاله دافئة ناعمة مثل بشارة لفرحة قادمة مثيرة في نفسه طمعاً في تعجيل قدومها بكأس أخرى. ولكن ميعاد العمل قد أزف. وهناك كان ينتظره خبر مزعج لم يتوقعه قط. سلمى في إجازة، وبعد الإجازة ستنتقل إلى قسم آخر. وتفجرت الخمرة في أعصابه ضيقاً وتعاسة. أغلق باب غرفته، وأنشأ يفكر: نقلها جاء عن رغبة منها، أم تصرف غير حكيم من مميز الذاتية؟ ولم يجد ما يبرر الشق الأول من السؤال. بالأمس وقبله لم يجد في تصرفها ما ينم عن ضيق. بل كانت تقترب منه كثيراً حين كانت تعرض عليه ما تطبعه من أوراق. حتى كان رأسه يمتلئ برائحة جسدها في آخر الدوام، الرائحة الطبيعية الحية التي تدير الرأس كالخمرة. ورأسه الآن يدور. ونفسه عجلى ومحزوزة بالندم، وكأنما ترك عملاً لم يتمه بعد. ولو أتمه لما أحس بهذا الضيق. ولكن ما هو؟ لا يعرف على وجه التحديد. وللتخلص من هذه الذبذبة طلب إجازة ليودع "أمه".

سار في الأزقة الضيقة التي تعود أن يسير فيها في الصباح الباكر، وفي آخر الليل والآن يسير فيها والضحى قد ارتفع، والشمس تخدد الجدران، وتكشف عن مزق الأرض التي بلطت بالقار في زمان بعيد، وتركت للمطر يحفر عليها حفراً سوداء كالقرح. التقى حميد ببائع "تكي" وبائع سمك "شبوط يلبط". وكانت أربع سمكات لامعات تتدلى من يديه من يديه معكوفات الذبول. وفي أول الزقاق المؤدي إلى حانات ذات ألوان شتى يطل عليها ذراعان طويلان يدوران. وكان حميد يحب ممارسة هذه اللعبة في الماضي، عندما

كان طفلاً. والآن يجدها أمامه، وكأن الذكرى تحولت إلى واقع حي بكل روائحه وتلاوينه. حتى خيل إليه، وهو يسير كالساهم أنه لم يكبر، ولم يتزوج، وأنه الآن عائد من المدرسة إلى بيتهم في القاطر خانة يتناول طعامه، ويعود إلى درسي العصر الثقيلين حاملاً معه الطعام ليوصله إلى أبيه في العلوة. لا، الشمس لم تنزل بعد إلى الأرض، والظهر لم يحل. وصمت صوت الماضي داخل نفسه. ثم عاد وتذكر حادثة وقعت في مثل هذا الوقت تقريباً. كانت الشمس على الجدران. الشمس كانت ساعته قبل أن تكون له ساعة. عاد من المدرسة باكياً. ورأته امرأة من بيتها خرجت تحمل سلة خوص فقالت له "هاي اشبيك؟" قال لها "الملك غازي مات" واشفعه بعويل. فقال المرأة وهي تغمه "لعنة الله عليك، حسبت أبوك مات!". وبعد لحظة جفت الدموع من عينيه، وتركهما متخشبتين مثلما يحس بهما الآن، وكأنه فزع من نوبة بكائه الطفولي في هذه اللحظة. كان كل شيء فيما حوله يعود إلى الماضي، كل شيء على صورته الأ,لى، وكأنما لم يعش تلك السنين الطويلة. سيصل إلى البيت ويجد أمه تطبخ. وسمع صوتاً أشبه بصوت "الفرارات" تقأقئ في الزقاق الآخر، وتبع ذلك بكاء طفل، ولما انعطف إلى الزقاق لم ير تلك المظلة من الفرارات الحمراء والخضراء المغروزة في رأس حلفاء مثل شجرة ملونة، بل رأى رجلاً وامرأة. وعرف في المرأة زوجته.

كانت تحمل ابنها. وكان الرجل يسير إلى جانبها يحمل حقيبتها القديمة. يبدو أنهما لم يرياه. استمر الرجل في حديثه إليها. وكانت هي تنود برأسها وكأنما توافقه على قوله. ورآياه فجأة. وقع بصره في لمحة واحدة على أربعة عيون تحدق به في وجهين متقاربين، متشابهين في النحول والاصفرار والتيبس. ثم بقي وجهها وحده في دائرة رؤياه. الوجه المستطيل المؤطر بسواد، المنتهي برقبة

هزيلة. ثم العينان فقط مستديرتين جامدتين وبلا جفنين. وندت منه "ها؟" تساؤلية جافة فقالت:

_ أنا مسافرة. ستار، الله يرضى عليه، جاء يوصلني.

وتلقف الرجل كلامها:

_ لازم واحد يوصلها. امرأة تروح للكراج وحدها؟

وأمنت هي على كلامه:

_ الله يرضى عليه، شافني حايرة.

تألم حميد، وقال:

_ سألتك هل تحتاجين إلى توصيل.

قالت بعجالة:

_ عندك دائرة.

وصمت محاولاً أن يجمع انطباعاً في ذهنه، وقال ستار:

_ كان من الأحسن أن تخرج من الغبشة حتى لا يتأذى الطفل، وهو "جانصص".

أعطاها عذراً لكي تشكو. بثت شكواها له بحرية، وكأنما تشكو لرجل قريب. فقال لها:

_ الطفل لا يبكي من غير سبب.

_ لا أعرف. أنا الآن مثل المجنونة.

وكان حميد زائداً بينهما. غضب أكثر مما تحرج فتناول الحقيبة من يد ستار. وخيل إليه أن الرجل لا يريد أن يطلقها.

_ شكراً ستار على الخدمة. أنا سأوصلها.

ولخطوات تخيل حميد ستاراً واقفاً وقفته المنشدهة الأولى، وكأنما أخذ على غرة وظلت هي تثني على أريحته "خلف الله عليه. عاف شغله وجاء يوصلني. شافني حايرة".

_ كفاية، اسكتي.

لم يطق أن تتحدث بهذه اللهجة عن رجل غريب. كان يعرف الرجل أيام سكناهم في القاطر خانة، ولم يره بعد

ذلك إلا مرات قليلة. ولكن لم يعرف انه قريب من زوجته هـذا القرب حتى في حياتهما فـي جـامع المصلوب. ربمـا كانـت متفقة معـه. رفـض أن يوصـلها لأنهـا بيتـت النيـة مـع سـتار، وبوغتا فجأة بمجيئه. كانت يده تشـد على الحقيبة بقوة. لـم يرد أن يسلمها. كان حريصاً أن يـذهب معهـا إلـى الكـراج، أو ربما إلى كربلاء، أو ربما كانت لهما مشـاريعهما الخاصـة. لـم يبد أنها فرحت عندما جاء بل شحب وجهها وكأنما رأت ملـك الموت. ألهذا الحد وصلت علاقتهما؟ وأخـذ يجمـع فـي فكـره خيوط القصة من الأول. سـعيد وتسـلله إلـى البيـت ووعظـه بالطلاق في آخـر لقـاء، وسـتار وعلاقتـه المريبـة، وتشـكيها الغريب، وطلبها الذهاب إلى عمتها و.. و.. وعربد الغضب في صدره حتى أراد أن يتركها في منتصف الطريق. ولكنـه كظـم غضـبه، واركبهـا السـيارة. كـان يريـد أن يخلـو إلـى نفسـه ليناقش الأسئلة التي تعذبه. واقتنع سريعاً بشـكوكه. وقـرر، وبعد ساعتين أرسل إلـى عنـوان عمتهـا رسـالة يعلـن فيهـا طلاقه لها. وفي السـاعة الثالثة كان مع كأسـه.

الأول

أخذ ابراهيم يمتنع عن الذهاب إلى الباب الشرقي قائلاً "أنا متزوج الآن، وزوجتي وحدها في انتظاري". وكانت الجملة ترن في نفس سعيد شجية موحشة، وكأنها خيانة من صديق الصبا. وكان ابراهيم قد ترك بيت أبيه، واستأجر مشتملاً صغيراً مع زوجته واضطر إلى أن يبدأ حياته الزوجية من الصفر. وكان يغادر الجريدة في الساعة الثامنة، ويأتي إليها في العاشرة صباحاً. وكان سعيد يراقبه ليعرف التغيرات التي طرأت عليه بعد الزواج. كان يأتي حليقاً وفي ثوب نظيف، وبوجه ممتلئ شبع نوماً، ولكنه أصيب بشيء من الفتور أو الرصانة. أخذت حركاته بشكل عام تتباطأ، وسرحاته تزيد، وإذا سئل تريث قليلاً قبل أن يجيب. عيناه سعيدتان لا سعادة الطلاقة وخلو البال، بل سعادة الرضى والاستقرار، سعادة إنسان كسب شيئاً في حياته، وقنع به. وكان يبدو متحرراً من تلك الهموم التي شكيت كثيراً في عهد العزوبة، وبنيت عليها هموم أخرى وأوهام. والشيء الذي أعجب سعيد أكثر، هو أنه لم يشك فراغاً، بل امتلأ وقته تماماً.

اليوم ظل طوال الوقت يرقب التلفون، ويسارع في رفع السماعة قبل أن يلتفت سعيد ويرفعها. وحين رنّ التلفون للمرة الأخيرة أنزل جسمه في كرسيه وقال "بعد نص ساعة أكون في باب السينما" وبعدها تعجل للخروج. قال لسعيد: "الجريدة كاملة تقريباً. إذا عازت المواد اختر مقالة من هذا الملف، أو زد الرأي العام قليلاً". وانصرف عجولاً. لاحقته مزقة من أغنية أفلتت من الراديو أثناء البحث عن نشرة أخبار. وبقي سعيد يتيماً في ذلك السرداب الشائخ الشبيه بكهف لتخمير الجعة في إحدى حانات جامايكا المعروضة في شريط سينمائي. وزادت وحشة سعيد حين

أذاع الراديـو متاعـب العـالم وأوجاعـه بصـوت خـال مـن المشـاركة العاطفيـة. وكـان ملـتقط الأخبـار يكتـب بحمـاس مدخلاً رأسه في سـماعة الراديـو، وكأنـه يفـتش عـن بقايـا فلوس ضائعة في خزانة حديدية قديمة. نهض سعيد وطلـب سيكارة منـه، ودخـن وهـو يـذرع الغرفـة مفكـراً أيـن يقضـي أمسيته اليوم. إذا كان لابراهيم الآن زوجة فـي انتظـاره، فـلا أحد في انتظـار سـعيد. لـو ذهـب إلـى البيـت لوجـد غرفتـه فارغة إلا مـن العقـارب والخنـافس. حـين يفـتح الضـوء يراهـا تتـراكض متربـة معكوفـة الأذنـاب فيتوقـف حتـى تـدخل فـي جحورها. لم يكتسب من أبيه ولعـه القـديم. وفـي الماضـي عندما كان أبوه فـي غافيتـه. كـان ولوعـاً باصـطياد العقـارب، ووضعها في زجاجة، وصب الماء الساخن عليها في الصـباح. أما الآن فلابد من أنه يتوجـع مـن عـرق النسـا فـي السـطح تاركاً البيت للخنـافس والعقـارب وسـوام أبـرص. الغرفـة الآن خالية. نقلوا السرير الحديـدي إلـى السـطح، ولـم تبقـى إلا منضدة الكتابة المصنوعة بخشونة يتـراكم عليهـا الغبـار، والا رف الكتب الكالح تحت رف جهاز الراديـو الصغير الـذي ينقـل إلى السطح كل مساء. وفـي السـطح الآن كـل بيـت. وفـي السطح الآن الترجمة الإنكليزية للجريمة والعقاب، والقاموس العصري موضوعتين فوق مخدة سعيد لقـراءة الصـباح، وفـي السطح الآن ستة أسـرة، وأربعـة "تنـك"، وقـدور، وقطتـان أو ثلاثة، وسعال، ونسمة محتضرة، وأحاديث متقطعة.

انبعث صوت من خلف سعيد:

_ أستاذ، نريد مواد.

_ كم يعوزك؟

_ عمود ونص.

نبش سعيد في ملف المـواد الجـاهزة، وأعطـاه مقالـة "لمراسلنا في البصرة". وشعر بارتياح حين قال له العامل ذو النظـارة المسـتديرة "هـذا يكفـي.." وغـادر سـعيد الجريـدة.

وفي الباص جلس على حافة الكرسي بتحرج لأن فتاة في ثوب حريري مورد كانت تشاركه المقعد. استحى منها، ودفع الأجرة ولم يخرج بطاقته الصحفية. كان يشع منها ذلك الدفء اللطيف الذي يستشعره وهو بالقرب من امرأة. وفكر بأولئك الذين يحترقون في هذا الدفء إلى حد الهروب للتبرد بالخمرة أو بجسد امرأة أخرى. هل سيكون مثلهم لو كتب له أن يتزوج في آخر الزمان؟ ولم يجد في نفسه ميلاً إلى التفكير. هذه مسألة عويصة، زقاق مغلق على حد التعبير الذي تعلمه اليوم من الإنكليزية. ونزل سعيد في الباب الشرقي، وسلته الأنوار الحمراء والخضراء المنظومة على نحر النهر، واستروح. وكأنما في هذه البقعة الملونة من بغداد لا شيء يغري بالتفكير في أن تكون لك امرأة خاصة. لا شيء يذكرك في البيت، وفي الأولاد. لا شيء غير هذه العمومية المشتراة بثمن قليل، وهذا اللحن الجماعي المتعطش إلى اللذة، هذه اللهفة الضوضائية المتهافتة على نهر في صيهوده.

في بلقيس تلمس سعيد طريقه عبر ظلمة مرصعة بمصابيح ملونة لا تضيء إلا لنفسها، وأجال بصره في السطح. وفجأة وقعت يد ثقيلة عرقة على يده، وجذبته نحو صاحبها. وجفل سعيد، وأدار رأسه فرأى حميداً أمامه.

تعال، أيها المجرم.

مرّت على وجه سعيد سحابة عرق، وسار عدة خطوات مع حميد:

_ أنا أبحث عن عبد الخالق:

_ اجلس معي. عندي حديث معك.

سأل سعيد متوجساً شيئاً غير مريح، وفاتحاً طريقاً للخلاص:

_ ألم تر عبد الخالق؟ أريد أن أراه.

_ لم أر أحداً، أنا اليوم أشرب منذ الساعة الثالثة. هل أنت وحدك؟

_ نعم. ابراهيم ذهب إلى البيت.

كانت مائدة حميد صغيرة منزوية في ركن عليها بضعة صحون، ونصف زجاجة عرق، وفضلات كثيرة. يبدو أن حميداً قطع شوطاً كبيراً في السكر. لاح على وجهه وذراعيه العاريتين إلى النصف لمعان محبب. جلس سعيد قبالته فسأله ماذا يشرب. رد سعيد: سأطلب لنفسي. دعني أستريح.

حدق حميد في سعيد طويلاً، وعيناه مثل نقطتين من الزئبق سامتان ومريبتان. يبدو أن لهما شيئاً تريدان أن تقولاه. قال سعيد وتلفت باحثاً عن الساقي:

_ قل ما عندك.

نصف دقيقة أخرى من التحديق، ثم قال:

_ اليوم انتهت.. طلقت!

نطق بالكلمة بعسر شديد، وتظاهر سعيد بأنه لم يسمع جيداً، فمال جسمه إلى الأمام واستفسر بـ "ها؟".

_ أقول اليوم أرسلت طلاقها.

كانت الكلمة الأخيرة خافتة. تهرب حميد من ذكر كلمة "زوجتي"، فتعمد سعيد أن يقول:

_ أرسلت طلاقها؟ ألم تكن زوجتك تعيش معك؟

ربما أدرك حميد مراد سعيد في كر ما تحاشاه متعمداً. صمت لحظة. ثم قال مؤشراً بذراعه:

_ ذهبت إلى عمتها، فبعثت الطلاق وراءها.

لم يعرف سعيد ماذا يقول. ولكنه أحس، وكأنه يدخل، مرة أخرى، الغرفة التي ضاقت فيها أنفاسه، وأن هناك شخصاً آخر مريضاً كتلك الطفلة يلفظ أنفاسه أمامه.

_ زين؟.. فرحان؟

تساءل سعيد:

_ ولماذا أفرح؟
_ جثم ضيق على صدر سعيد، وأحس بأنه أمام ارتباط جديد في تلك القصة الموجعة التي تورط فيها.
_ حسبت ذلك من مصلحتك، ومن مصلحتها ما دمتما لا تعيشان عيشة الأزواج.
ضحك حميد بخبث.
_ أنت تتكلم مثل قاضٍ شرعي – ثم سأل بسخرية – ما هي عيشة الأزواج أيها الأعزب المحترم؟
تقلصت عضلات في صدر سعيد، وشنج رقبته غيظ.
_ أن تقضي في البيت ربع الوقت الذي تقضيه في المقاهي، ولا أقول أن تذهب من البيت إلى الشغل كما يفعل ابراهيم.
_ وهل تظن ابراهيم سيستمر طول عمره في الذهاب إلى البيت بعد الشغل؟ عجيبون أنتم أيها العزاب، تسنون القوانين للمتزوجين.
قال سعيد بصوت خافت: هذا ما يحلمون به.
_ هذا ما يصوره الكبت لهم، وحين يتزوجون يثورون على القوانين التي سنوها.
_ ليست كل العوائل تعيش مثلك على أية حال.
_ مالي والعوائل؟ كل له مذهبه في الحياة.
تشجع سعيد لأن يقول:
_ ومذهبك في الحياة أن تترك عائلتك وتعيش طليقاً؟
_ ما تسميها عائلتي ليست عائلتي، بل من مخلفات والدي الذي زوجني وأنا صغير، طالب في الثانوية.
_ وأولادك؟ من مخلفات والدك أيضاً؟
_ نتيجة الجريمة. وكأن الله أو القدر يعرف ذلك، فكانوا يموتون قبل أن يبلغوا الرابعة، وآخرهم هناء عمرت تسع سنوات.
_ ربما أنت المسؤول.

_ أنا أيضاً؟
_ تركتهم يذوون في سلة الإهمال.
_ لم أتركهم يموتون جوعاً. والبيت الذي عاشوا فيه ما أزال أعيش فيه، وأنا، كما تراني، كالصخر.
وضرب على الدكة الاسمنتية إلى يساره، ثم رفع كأسه وشرب جرعة كبيرة، ولمعت شفته السفلى الممطوطة، وقال:
_ بالمناسبة، هناك نسبة كبيرة من العوائل تعيش في مثل هذه البيوت، ويعمرون طويلاً، وإذا تمرضوا صارعوا المرض سنين. المهم القناعة. فالقناعة، كما يقولون، كنز لا يفنى. وحليمة كانت تعيش قانعة، وإذا فقدت طفلاً بكت يوماً أو يومين لا أكثر. وكان لا يهمها أين أذهب، ومتى أعود. وكنت أمارس حياتي الخاصة مثلما تمارس هي حياتها البيتية دون أن يتدخل أحد بشؤون الآخر حتى أحسست عن حق بأنني غير متزوج، أعزب طليق. ثم تتغير على غفلة، واسمع صوتها لأول مرة، وتهيج أتعابها كلها دفعة واحدة. وقد مضى على موت ابنتها أكثر من أسبوعين وهي لا تكف عن البكاء، وقد أكلت رأسي. فقدت عقلها. كل ذلك لأن أحداً من الناس أفقدها القناعة. ربما أنت.
_ أنا؟
_ نعم. أنت المسؤول – قال حميد ملوحاً بذراعه، وهمّ سعيد أن يرد عليه حين جاء الساقي ووقف على رأسه. طلب سعيد زجاجة بيرة، وصحت زلاطة بينما انشغل حميد في تهيئة كأس جديدة. وفجأة ارتفع الراديو من الخلف بأغنية "الكرنك" وشاع الصوت في الهواء حتى بدا وكأنه الهواء نفسه. وبقيا صامتين لحظات حتى خفض الصوت. وسأل حميد:
_ صحيح، سعيد. أنا أسألك للمرة العشرين كيف عرفتها؟

_ من.
_ المرحومة. عمّن كنا نتحدث؟
_ قلت لك عن طريق بعض الجيران.
نظر حميد نظرة طويلة، ثم شرب جرعة من كأسه، وقال:
_ تقصد ستارا؟
استفسر حميد رخو اللسان:
_ أي ستار؟
_ ألا تعرف شخصاً بهذا الاسم؟
_ لا.
_ ساعي بريد طويل ذو شارب وحنك عريض عليه نقرة.
_ لا أعرفه.
_ أبداً، أبداً؟
_ لماذا هذا الإلحاح؟ قلت لك لا أعرفه.
نكس حميد بصره، وساد صمت سمعت فيه أغنية الكرنك وحدها. وجاء الساقي بالطلب، وشرب سعيد في الحال.
_ لا أعرف – قال حميد ضارباً على ذراع كرسيه – ولكنني أشعر بشيء غير نظيف في الموضوع.
ولم يقل سعيد شيئاً، لأنه أحس بأنه أمام محكمة، وأن كل كلمة يقولها ستحسب عليه. وسأل حميد وكأنما تلقى جواباً بالنفي من صاحبه:
_ طيب، وفكرة الطلاق من قال بها؟
_ لا أعرف من قال بها – ثم أردف مستدركاً – ربما أنا. يجوز. أنا أعرف أنك إذا عشت معها ستظل هكذا.
_ أنت طفل يا سعيد.
_ أشكرك.

_ كيـف تفكـر بطـلاق امـرأة مـن زوجهـا وهـي أم، ولا معيل لها. إلا أذا فكرت بأن تتزوجها... تسرقها.
_ لا تكن غليظاً.
_ هـذا واضـح وضـوح الشـمس. الآن طلقتهـا ممـن سيعليها؟ أتعرف من عندها من الأهل؟
_ لا أعرف شيئاً.
_ فكيف وعظت بطلاقها؟
_ أنـا... لـم أعـظ... لكـن... فهمـت بـأن مـن الخيـر أن تطلقها؟
_ ستار أفهمك؟
_ قلت لك لا أعرف شخصاً بهذا الاسم.
_ من أفهمك إذن؟ قـل. لمـاذا أنـت خـائف؟ أنـا لسـت آسفاً على طلاقها. بعد شهرين ستراني متزوجاً أجمل فتاة في بغداد.. ولكنني موقن أنك خدعت.
_ لا أظن ذلك. أنا مؤمن حتى هذه اللحظة بأنك كنـت زوجاً كاذباً، زوجاً غير عفيف، زوجاً...
_ ومن أنت لتقول لي ذلك؟
_ أنا صديقك؟
_ صديق يتسلل من الشباك إلى بيتي؟
_ أنا لم أتسلل.
_ تسللت وتدخلت فيما لا يعنيك. من قـال انـني أريـد أن أطلعك على حياتي، واسمح لك بدخول بيتي حتـى مـن بابه؟
_ حاولت أن أساعدك.
_ لم أستغث بك.
_ أغاظني منك كذبك على نفسـك وعلـى أصدقائك. كنت تقول أنا أعزب طليق، بينما كنت رب عائلة بائسة.
_ وهل سألتك مرة عن شؤونك الخاصـة؟ عرفـت أيـن تسكن؟

_ تفضل اسأل.
_ هذا لا يعنيني. كل إنسان يحيا حياته الخاصة كما يريد، يملأ كأسه بالخمرة التي يشتهيها.
_ حياتك كلها خمرة.
_ وأنت قديس. هل انتهت زجاجتك لأطلب لك زجاجة أخرى؟
وحدق حميد بزجاجة سعيد، ورفعها بين أصابعه، وترنحت رقبته. وتمايلت الزجاجة. يبدو أنه سكر. وقرر سعيد مع نفسه أن ينهي حديثاً ربما سيؤدي إلى عاقبة غير طيبة في مقهى بين صديقين. وصمت مديرا رأسه صوب النهر، إلا أن حميداً تابع قوله بصوت متحرش:
_ أنت مخرب بيوت.
_ لم يكن لك بيت لأخربه. ستظل أليف المقاهي والحانات.
_ الأعور يضحك من الأحول. من أين جاءتك هذه النغمة الورعة يا حليف السنك والبتاوين؟
_ اسكت. أنت سكران.
_ منذ متى أصبح لك لسان؟ ربما تحسب نفسك كاتباً.. ها ها.
_ لم أدع ذلك.
_ مقالة ومقالتان وتصير كاتباً؟ عندما اقرأ مقالاتك أضحك. انشاء ركيك.
_ لا أحب أن أسمع هذه السخافة.
ونهض سعيد فوقف حميد فجأة، وتمايل قبل أن يتقدم من سعيد.
_ إلى أين؟
_ دعني أذهب.
_ اجلس، سلّني. لا أتركك تذهب.
_ اترك يدي.

قال حميد بلهجة أخرى:

_ انظر كيف تأذيت من مجرد الكلام. وتريدني أن أتقبل طعنتك الخلفية بقبلة. والآن اجلس.

_ لا أريد الجلوس.

_ أكمل بيرتك.

_ لا أريد دعني أذهب.

كان حميد ما يزال ممسكاً بيد سعيد، ووجهه قريب من وجهه. وكانت عضلات وجهه المنتفخة تختلج في الظلمة. وكان صدر سعيد موغراً بالغيظ والمساءة. كز على أسنانه محاولاً أن يداري الموقف بشيء حكيم. وجلس لأنه كان رخو المفاصل. وطافت في ذهنه شتى الصور. وتمنى، مثلما كان يتمنى عندما يقع في وضع حرج، أن تكون له القوة على أن يثبت صحة موقفه، وأن يتدخل الزمن فيأتى مسرعاً بالأدلة الدامغة ليخرج سعيد من الموقف منتصراً.

الرابع

استيقظ من قيلولته على أصوات متنافرة صادرة من وراء الستارة. رفع جسمه على مرفقه. وفي الحال عرف أنه مغلف بطبقة دهنية من العرق. مدّ بصره عبر الظلمة المخضوضرة إلى الطاولة التي وضع عليها المروحة الكهربائية قبل أن ينام فلم يجدها. أخذوها إلى الجانب الآخر من الستارة. لا يهمهم أن يفرز كل أملاحه عرقاً، ولا أن يشوى بالحرارة. المهم أن تظل أجسادهم جافة باردة. دلّى ساقيه على حافة السرير، ومسح عرقه بالفوطة. وحاول أن يصغي إلى أحاديثهم ليعرف ماذا يضايقهم ليتحدثوا على هذا النحو المستثار. هل لأن الحكومة عطلت مجلس النواب، وشبح نوري السعيد يخيم على بغداد؟ هل أصيب العراق أو سيصاب بكارثة أخرى؟ أبتلى بوحش كذلك الذي قتله أوديب؟ دنا من الستارة، ووضع أذنه عليها. وصدمته كلمة "الموقف الذري" فارتد، وكأنما وخز بأذنه. مجانين هؤلاء. ينامون ويصحون على الوقف الذري، يفطرون ويتغدون ويتعشون على الوقف الذري، والحلم بالوقف الذي مادة حياتهم الأكثر رخصاً وتحذيراً وتفاهة. كل حياتهم انتظار تهريجي. مسمرون على مقاعدهم ينتظرون متى تلغي الحكومة الوقف الذري فتأتيهم الثروة المرتقبة، ويرفلون بالنعيم في آخر حياتهم. ذرع عبد الخالق "زائدته الدورية" وفكر بهم. مخلوقات غريبة سيكتب عنها يوماً ما، مثلما فعل مارسيل بروست. عليه أن يسجل ملاحظاته بقصاصات ورق ويحفظها. أين يحفظها؟ ليس له مكتب ليحفظها فيه. ليست له خزانة. كانت لمارسيل بروست شقة خاصة انحبس فيها مغالباً الأسمة، متجنباً بعض الروائح التي تثير صدره، داعياً أصدقاءه وخادمته وسائق العربة، غير خجل من أن يسأل عن كل شيء ليطلع بشيء غريب: "استحضار

الأشياء الماضية" أما هو فأين غرفته؟ أين ركنه في هذه الدنيا؟ ذلك المتر المربع من الأرض الذي يحق له أن يقول عنه "هذا لي" ويريد الناس منه أن يكتب، يخلق أشياء مفكراً فيها بتأن، وصالحة للبقاء، بينما هو محاصر مشرد غريب. إذا خرج الإنسان فسيسألونه استشارات قانونية. مسح العرق من صدره، وابطه، وعبأ نفسه في بنطلونه، وتنحنح قبل أن يرفع الستارة. وسلم مكروهاً. سئل هل تريد شاياً. قال: لا، العرق يتصبب من جسمي بدون شاي. ولم يتوقف. عرف الجالسين بنظرة خاطفة حتى دون أن يشمل بها الجانب الأيسر من الغرفة حيث كان يجلس رجل أصلع، وامرأة بدينة. فقد كان يعرف أنهما هناك، على عادتهما، في جانب الضوء ليستطيع الرجل ببصره الكيل قراءة الجريدة للمرة العاشرة، نقل موظفين وترفيعهم. تلك هي أخباره الحارة يقذفها مع مستطار لعابه، ويرصعها بآخر الإشاعات عن الوقف الذري، ثم يعرج على تعاونية الجيش فيقول "أحسن حذاء إنكليزي فيها بثلاثة دنانير". وكان عبد الخالق قد رأى بنظرته الخاطفة رجلاً بديناً عظيم الأنف والأذن يناضل منذ خمس سنوات لينقل إلى الخارجية ويسافر إلى خارج العراق على حسابها. ظل هذا الرجل طوال هذه الأعوام يأكل طعامه بلا ملح تقريباً ليخفف وزنه، قائلاً ان زوجة ترومان استعملت نفس الطريقة فانخفض وزنها عشرين كيلوغراماً. لو تحدث عبد الخالق معه بصراحة لنصحه بأن لا يخفف وزنه كثيراً، لأنه سيتعب آنذاك من حمل أذنيه وأنفه. وعلى مقربة من الرجل جلس شيخ يسعى لتزويج ابنته من رجل مرموق، ولما نجح طردته، الابنة شرّ طرد متهمة اياه بنقل الأخبار، بعد تشويهها، إلى جريدة معارضة. وثالث من رآه عبد الخالق امرأة سافر زوجها إلى باكستان ليأخذ امتياز تصدير الجوت إلى العراق، ولم يعد حتى الآن. وليس لزوجته "المفروكة" هم غير تتبع أنباء

الأوبئة هناك. وهي تؤيد المعاهدة الثنائية بين الباكستان والعراق، وتقول لا يمكن أن تنجح زراعة الجوت في العراق وشركة الجوت العراقية فاشلة مائة بالمائة. هؤلاء جميعاً وغيرهم كانوا يحاصرون عبد الخالق ويضيقون عليه، ويجبرونه على أن يتنفس هواء عالمهم المنتن. سيكتب عنهم يوماً. بالتأكيد. شريطة أن يكون له ركنه الخاص. لم يكن في الخارج هواء أروح. اتخذ الهواء ثقلاً وجثم فوق الأرض. والباصات أتاتين متحركة، يشع حديدها لهباً، وأجسام الناس رائحة زفرة. ونزل عبد الخالق في رأس القرية. كان شارع الرشيد مظلماً في عصر يوم من تلك الأعصر المكتومة الهواء التي يخيل إليك فيها أن كل العراق تجمع في شارع الرشيد، وانحبست في ذلك المجرى العتيق السيارات والناس في تيار واحد من الضوضاء والزفير والغبار والدخان يمتد إلى الباب الشرقي. سار عبد الخالق ضائعاً في الزحام المنفعل، يتلقى صدمات الناس على كتفيه، ويسير بين وحداتهم المبعثرة مقطوع الصلة بهم، مقطوع الصلة بكل شيء. يعوم بصره على الأشياء، ولا يراها، يصطدم بالظهور والأذرع والأحزمة، ولا يرتفع إلى الوجوه. لا شأن له الآن بها. فقد الأمل في أن يتحرك الناس، أن يثوروا. مروا بتجربة الفيضان والانتخابات وحسبهم سيتحركون. وإذا بهم قعود كالسابق. دمى مدفوعة. شغل فكره بهم زمناً، دون جدوى. تفو! ووصل إلى المقهى السويسرية متخدر الكتفين من ضرباتهم. وصعد ورأى مكانه المعتاد محجوزاً. نظر إليه النادل معتذراً، فأومأ إليه أن لا حاجة للاعتذار، وأشار بإبهامه وسبابته إلى فنجان قهوة. وفتش ببصره عن مكان فارغ. رأى ذراعاً هزيلة تلوح له في أعماق المقهى. وعرف صاحبها في الحال. كانت نظارته تلمع.

_ هاي. هربت من الجريدة؟

قال سعيد وهو يهيئ مكاناً له إلى جانبه:

_ طردني ابراهيم. قال: الصحافة ليست وراء المكتب، بل البحث وراء الأخبار، وأنا أريد..

_ تريد أن تكون كاتباً؟ هذه أغنية قديمة. اترك تقليد غوركي، واقرأ بالإنكليزية.

_ اقرأ بها الآن. اقرأ "الجريمة والعقاب".

_ اقرأ فولكنر.

_ لا أحبه. يكتب بلا فوارز ولا نقاط.

_ اذهب إلى التقاط الأخبار إذن.

تنهد سعيد وشكا له:

_ ليتك تعرف ما قاسيت اليوم. ظللت انتظر مدير الزراعة حتى الساعة الثالثة وأنا جوعان لأسأله عن آثار الفيضان. ثم قالوا: تعال في الرابعة والنصف وستجده. ولما جئت لم أره. انتظرت حتى الساعة السادسة ولم يأت. خاف أن يدلي بتصريح. يبدو أن جريدة "الناس" أصبحت تخيف مثل جريدة "القاعدة".

_ وماذا تنتظر منه؟ رجل يتحمل قسطاً من مسؤولية الفيضان، وتريد أن تسأله عن آثار جريمته؟

_ على الأقل يبدي بعض اللياقة.

_ ومتى أبدوا لياقة؟ عندما عطلوا مجلس النواب؟ ذهبتم إليه بثياب قشيبة، وكأنكم ذاهبون لافتتاح الجمعية التشريعية الفرنسية فضحكوا منكم، وأغلقوه في وجوهكم؟

_ أنت تتحدث وكأننا شيء، وأنت شيء آخر.

_ أنا لا أنخدع بهم.

_ هل نسيت كيف جئت إلى الجريدة فرحاً؟

_ لم أفرح بفرز 12 نائباً، بل بمدلول هذه الظاهرة. كنت أترقب شيئاً يجب أن يحدث، وتصورت ذلك إشارة على دنوه.

_ وهل كنت على خطأ؟

رد عبد الخالق بنبرة حزينة:
_ يبدو ذلك.
وقرب إليه الفنجان الذي وضعه النادل من توه. وغرق في أفكاره. لم يرد أن يكشف لسعيد جانباً من عالمه الداخلي مخافة التشهير به. هؤلاء انجرفوا إلى اللعبة بينما ظل هو يراقبها. قال ذلك بصوت مسموع، فقال له سعيد:
_ لماذا تفلسف المسألة يا عبد الخالق؟ لماذا تجعل من كل حادثة ظاهرة معقدة؟
_ وأنت تحسب التاريخ ريبورتاجا صحفياً؟
_ لا أعرف ما هو التاريخ. ولكن كانت هناك فرصة فاشتركنا.
_ ولماذا طردوكم؟
_ لأنهم أضعف من أن يسمعوا إلى صوت نزيه.
_ هذا ما أعرفه من الأول.
_ وتابع أفكاره الأخرى مع نفسه: أعرف أن الحياة بحاجة إلى ذريعة، تهزها من الأساس. أعرف، ولكن متى ستأتي؟ من يضعها؟ هؤلاء الناس.. وفجأة سمع صوتاً رقيقاً يناديه. رفع رأسه، ورأى أمام عينيه ابتسامة بيضاء، ووجهاً رقيقاً عذباً. قال:
_ أهلاً وسهلاً. تفضلي.
_ كنت جالسة هناك فرأيتكما تتجادلان. فلم أقدم.
_ هل تعرفين سعيد أحمد؟
قالت: طبعاً. يكتب في جريدة "الناس".
وخلال ما كانت تتبادل مع سعيد بعض الكلمات تمعن عبد الخالق في جسمها. كانت خيارة غضة، هيفاء، لها صدر تستطيع أن تضمه بين ذراعيك وتكون مطمئناً إلى أنه سيدفئ قلبك، مبرعم مرتين. وأخيراً قالت عن أذنكم. لحظة صمت، ثم أمسك عبد الخالق بيد سعيد:
_ هل أصبت بتيار كهربائي؟

هزّ سعيد رأسه، وكأنه ينفض عنه تنويماً..
_ من هذه الفتاة؟
_ إياك أن تحلم بها. إنها مخطوبة لدكتور في علم النفس سافر إلى أمريكا.
_ إنها جميلة.
_ جميلة ومثقفة. لو لم تكن مخطوبة لخطبتها.
وتلهى كل واحد بأفكاره. وصحا عبد الخالق على صوت يقول:
_ أهلاً بالمجتمع الرجالي.
رفع بصره، ورأى شريفاً يجلس دون استئذان ويقول بصوت قبيح:
_ أتعرف؟ أخذت أكون رأيا عن سبب ثورية الشعب العراقي المفرطة.
سأله سعيد:
_ ما هو، أيها الشاعر العبقري؟
_ انشطاره إلى مجتمعين: رجالي ونسائي.
_ وأنت لماذا غير ثوري؟
_ قلت لك ألف مرة عندي حبيبة.
همس عبد الخالق:
_ اسكت. لا تتكلم عن حبيباتك. هناك فتاة تعرفنا.
تلفت شريف برعونة. وارتد بصره خائباً وقال:
_ ظاهرة غريبة.
قال عبد الخالق:
_ عندما تجلس في مقهى كهذا يجب أن تعرف كيف تتكلم.
_ منذ الآن سأعرف. المرأة، المرأة! عندما دخلت هذا المقهى أحسست وكأن هناك رائحة جديدة. لو أن امرأتين أو ثلاثا جلسن في مقهى لهذّبن الناس. أنا الآن أخرس،

وإذا تكلمت سأحاول أن تكون كلماتي موزونة. لأنني أتخيلها تسمعني.

_ كلماتك يسمعها المقهى كله.

الخامس

كاد اليأس يستولي عليه حين جاءت والدوام الرسمي موشك على الانتهاء. جاءت ممشوقة القوام مرصوصة الجسم في فستان أصفر مورد بالأسود يكشف عن سعة صدرها، وارتفاع نهديها، وضمور خصرها، واستدارة ردفيها. وكان شذى جسمها يسبقها بمتر، ووجهها صافياً مطمئن الأسارير منفرج الثغر قليلاً، وكأنما اختارت هذا الوقت تعمداً، وان ساعات الترقب المحرق لم تذهب جزافاً. دخلت الغرفة وقالت:

_ نعم.

_ تفضلي، استريحي.

كانت قريبة من نفسه حتى خيل إليه أنه لو مسها لما مانعت. جلست وقالت:

_ نسيت حقيبتي على المكتب. كان عليّ أن آخذها.

قال لها مداعباً:

_ وهل فيها أسرار؟

_ فيها أزرار – وضحكت مشيحة بوجهها، ثم قالت مؤشرة باصبعها – فيها "دكم" اشتريتها اليوم من السوق. ألا تصدق؟

_ ذهبية؟

_ من عظم.

وسره أنها كانت تتقبل مزاحه. تشجع وقال:

_ أنت تستحقين أزراراً ذهبية.

_ الله يحفظك.

_ حقاً. تليق بهذا الثوب الجميل.

قالت باسمة بسمة باهتة:

_ إنه فستان قديم _ ومسدته عند ركبتها.

أراد أن يقول لها أنت محافظة على قوانك إذن، إلا أنه أمسك نفسه في اللحظة الأخيرة. وقال:

_ على العموم، هناك أناس يليق لهم أي شيء لبسوه.

_ شكراً... – ثم أضافت وهي لا تنظر إليه – هل أنت مكلف بإخجالي؟

ولم يكن في سؤالها استنكار.

_ تذكري أن قول الحقيقة يخجل أحياناً.

قالت بائسة:

_ لا أستطيع أن أجادلك.

_ هذا لا يحتاج إلى جدل.

نظرت إلى ساعتها وقالت:

_ إذا مضينا على هذا المنوال بقينا وحدنا في البنك.

همّ يقول جملة ردها إلى بلعومه، واستبدالها بسؤال:

_ هل أنت مستعجلة؟

_ الدوام سينتهي بعد عشر دقائق. هل عندك شيء تريد أن تقوله لي؟

كانت جادة وبرمة قليلاً. إلا أنه لم يستطع أن يقول لها غير: طبعاً.

_ تفضل.

لبث صامتاً ثواني ناظراً إلى ما بين يديه من أوراق، ثم قال:

_ ربما أنت تعرفين شيئاً عن الموضوع؟

_ أي موضوع؟

_ ألا تعرفين؟

واهتزت أوتار صوته. رمقها بنظرة خاطفة ليعرف مقدار صدقها.

_ لا، أبداً.

_ ألم تشعري بشيء من الود في تصرفي معك؟

_ أنت مجامل.
_ ليست هذه مجاملة.
سكتت.
_ الأمر أكثر من ذلك.
_ أنت أصبحت في قلبي حتى.. حتى.. – واستولى عليه شعور بالمجازفة والطيش، لأنه بدأ يحس بأنها تفلت منه – أريدك أن تكوني رفيقة حياتي.. زوجتي.
وسمع دقات قلبه واضحة، ربما لأول مرة في حياته، وكأن جُمع يد صغيرة يدق في عظام صدره. وانتظر أن تتكلم. ودون أن يدري زحفت كفه إلى قطعة ورق وهرستها. وأخيراً رفعت رأسها نحوه. وكانت استدارة حنكها جادة.
_ هل أنت جاد أم تريد أن تمزح؟
_ أمزح؟ كلي جد.
أدارت رأسها، ومع حركة الرأس قالت:
_ كنت أتصور عندك موضوعاً آخر. ولهذا جئت.
غاص قلبه. كأن موجة ظالمة باعدت بينهما، وقذفت بها بعيداً عنه. نظر إليها. كان وجهها صارماً يوشك أن ينفجر بشيء قبيح. إلا أن ذلك لم يفقده روح المجازفة:
_ وهل هذا موضوع لا يعجبك؟
_ لا، لا يعجبني.
راعته صراحتها، وقسوة لهجتها:
_ إلى هذا الحد من الصراحة الجارحة؟
_ لعلك تحسبني طفلة.
_ ولماذا تظنين ذلك؟
_ لأنك تفاتحني بهذا الموضوع، وكأنما أنا لعبة بين يديك.
هزّ رأسه لأن دهشة شلت لسانه:
_ لم أكن أتصور أنك ستغضبين بهذا الشكل.
_ لأنني أعتبر ذلك إهانة.

_ وهل أنا عندك تافه إلى هذا الحد؟
_ ليس السبب هذا.
_ أنا لا أعرف ما يدور في ذهنك.
_ عندي فكرة واضحة، وأرجو أن تغلق الموضوع.
كان مصعوقاً من صرامتها. كان يتصور كل شـيء إلا أن تكون جافة وخشنة معه إلـى هـذا الحـد المخجـل. ونهضـت ووقف. إذا ذهبت الآن بغضبها الغامض فإن حياتـه فـي البنـك ستتسـمم إلى الأبد، ولن يسـتطيع أن يفاتحهـا ثانيـة، لأنهـا ستتجنبه. ثم انه حـائر لا يعـرف سـر غضـبها المفـاجئ. مـد ذراعاً غير مبسوطة وتقدم نصف خطوة، وتكلم بحدة مجـروح بكرامته:
_ إذا كان لأحدنا أن يشعر بالإهانة فهو أنا لا أنت. مـن حقك أن ترفضي، ولكـن لـيس بهـذا الشـكل السـيء، ودون إبداء السبب.
_ وأنت لا تعرف السبب؟
قالتها بثقة، وكأنها تملك حقاً صراحاً في التصرف بهـذا الشكل. فقال لها مبهوتاً:
_ لا.
وفكر مع نفسـه: ربما هي تعـرف شـيئاً مـن سـهراتي وشربي الخمرة. وهيأ الجواب في ذهنه.
_ لأنك تكذب عليّ بشكل مهين.
_ أكذب عليك؟ أتحسبين عواطفي كاذبة؟
قالت دافعة بحنكها إلى الأعلى:
_ الأمر لا يتعلق بالعواطف، ولكن بالأخلاق.
عذبه هذا الغموض الممـزق. وكـان واثقـاً مـن أنـه لـم يرتكب شيئاً ضدها، ولا ضد الأخلاق. قال في حيرة مريرة:
_ بودي لو أفهمك.
أدارت له وجهها وقالت:
_ هل تؤمن بتعدد الزوجات، يا حميد؟

_ وكيف يخطر هذا ببالك؟
_ إذن، فلماذا تعرض عليّ الزواج؟
بدأ يفهم شيئاً. إنها تعرف شـيئاً عنـه، ولكـن مـا هـو؟ خاف أن يزل لسانه.
_ أنا حائر من موقفك هذا.
_ ألست متزوجاً؟
_ لا.
اسمح لي إذن بأن أقول لك: أنت كـذاب. كيـف تسـوغ لنفسك الكذب في مسألة كهذه، وتتقدم بطلب الـزواج مـن فتاة محترمة؟
_ أقسم لك أنني غير متزوج.
رأى عينيها تتسعان، وكأنما تريد أن تفترسـه.
_ بأي شـيء تقسم لي؟
_ بك، بحياتي.
وكان صوته عاطفياً، ويائساً. تمعنت فيه، وكأنها تراجـع معلوماتها.
_ أرجو أن تفصحي، قولي ما عندك. قلت لك بشـرفي أنني غير متزوج.
سألته فجأة:
_ هل سمعت بالدكتور رؤوف؟
_ الدكتور رؤوف؟ اسم يبدو لي مألوفاً.
_ إنه ابن خـالتي، الـدكتور الـذي عـالج ابنتـك. ذهبـت إليه مع صحفي من جريدة الناس.
وصعق. لـم يسـتطع أن يقـول شـيئاً. هـذه حقيقـة لا يسـتطيع إنكارهـا، ولا أن يقرهـا الآن. وأضـافت حـين رأت ارتباكه:
_ حدثني عنك مصادفة.
_ ولكن.. هذا تاريخ قديم. – قالها من أعماق صدره.
_ قبل شهر فقط.

كان بوسعه أن يقنعها بأنه تاريخ قديم، يرجع إلى عشر سنين، ولكن المصادفة السيئة شلت إرادته فاستسلم لليأس. أفاق حين رآها تتجه نحو الباب، فقال لها:

_ ستعرفين في المستقبل أنني مظلوم.

الثالث

وضع الزجاجة الصغيرة وقال:

_ هذه بداية الهاوية.

نظرت صبرية إليه مستفهمة ضاغطة بكفها على كتفه، فقال:

_ ألا تعرفين ما الهاوية؟ تعالي أعلمك.

وأمسكها من ذراعها، ومضى بها إلى التخت، وأجلسها إلى جنبه.

_ حين يبدأ الإنسان بشرب الخمرة صباحاً وفي يوم غير يوم الجمعة فهذه بداية الهاوية. والهاوية هي الحفرة التي يقع فيها الإنسان. كانت بدرة بالنسبة لك بداية الهاوية، وهذه الزجاجة التي سأشربها في هذا الصباح القائظ بداية الهاوية بالنسبة لي. فاذهبي وهيئيها لي.

_ طماطة؟

نظر إليها ممتعضاً.

_ لا تقولي كلمات فجة. هيئي المائدة لي. ألم تتعلمي بعد كيف تهيئين المائدة لشاعر طريد؟

نهضت ضاحكة، ونطحته برأسها، وفكر حين ذهبت: إن هذه المخلوقة لا تصلح أبداً لأن تكون خليلة لإنسان، فكيف إذا كان هذا الإنسان شاعراً؟ أنا لا أتكلم معها، بل أناجي نفسي. جان دوفال.

جاءت ببعض الطماطم وخيارة طويلة تشبه قرناً أخضر. صاح:

_ والقدح؟ والملح؟ والماء البارد؟

أخرجت له لسانها، وأدت حركة مستهترة، وراحت. قال لنفسه: سأفهمها اليوم على حقيقتها. لن أكون مثل بودلير متهالكاً على غانية.

_ أنت اليوم متضايق.

حزرت مزاحه حين جاءت بالقدح والملح. ضحك وقال: أنت لا تخلين من نباهة. لست مثل جان دوفال تماماً.

قالت له وهي تجلس إلى جانبه ثانية على التخت:

_ أنت تقرأ الكتب، وتأتي وتتكلم طلسم، وأنا أهز رأسي مثل الأطرش في الزفة. لماذا لا تتكلم خفيف؟

بربر بشفتيه وهو يرفع الزجاجة، ويصب منها في القدح.

_ ربما تقصدين ببساطة، أين الماء البارد؟

التنكه وراك.

التفت ورأى "التنكة" موضوعة في رازونه تناولها وشمها قبل أن يصب الماء منها في قدحه.

_ ها؟ تقصدين ببساطة؟

_ يعني إي.

_ لأنني متضايق كما تقولين أنت، وضجر كما أقول أنا. والضجر ليس بسيطاً. إنه حيوان خرافي معقد الذيل له ألف ذراع.

وجرع كأسه، ومط شفتيه، وتناول الخيارة. وقبل أن يقضمها سأل:

_ الخيارة مغسولة؟

_ مغسولة، مغسولة.

وقضم رأسها. وحدق بخليلته. كانت تنظر إليه بدهشة وانبهار، وكأنه هو الحيوان الخرافي. كانت له عينان صغيرتان مستديرتان، وأنف صغير، وفم أصغر. وكانت ترتدي قرطين واضحين جداً في لوحة رأسها الصغير، ورقبتها الهزيلة. كانت بمجموعها تبدو مثل دمية بين يديه يلعب بها وبعواطفها حسبما يشاء، حتى لعجب كيف تدبر أمرها مع الرجال الآخرين. ألا يخدعونها؟ لو كان لهذه المرأة ألف عفاف لسلب منها ألف مرة بسهولة. ليست مثل جان دوفال الزنجية التي أنهكت بودلير بطلباتها المسرفة. أمسكها من

يدها، وقربها منه حتى أطبقت على جسـده، وقبـل صـفحة خدها حتى ملأت أنفه رائحة صابون أبو الهيل. امتعض. وقال لها:

_ قلـك لـك غيّـري الصـابون الـذي تسـتعملينه. لمـاذا تستعملين صابون العجائز؟

_ ماكو غيره.

_ يوجد صابون الجمال.

قالت بدلع:

_ أنا جميلة من غير صابون.

_ أنت فروجة – قال لها محاولاً أن يعثر على أذنها مـن تحت شعرها الأسود – أنت عروسـة الشـعر المريضـة التـي نظم بودلير فيها قصيدته.

قالت متضايقة:

_ رجعنا على بودلير؟

_ لماذا لا تحبين بودلير؟

_ أحبك أنت – وطوقت رقبته بذراعها الهزيلة، وطبعـت على خده قبلة.

_ مع ذلك يجب أن تحبي بـودلير. ولكـن يبـدو أن فيهـا عرقاً من النساء اللواتي لعنهن بودلير. ولهذا تخافينه.

قالت في غضب:

_ ليش أخاف منه؟ ألعن أبوه لأبو شرفه.

وابتعدت عنه منتفخة الأوداج. فروجة زعلت على ديك. نظر إليها وقد انزوت فـي الطـرف الآخـر مـن التخـت فتخيلهـا وهي في ثياب الصباح قبل أن تصبغ وجهها بالأصباغ، طالبـة مدرسة وهو أستاذها. زعلت لأن الدرس الذي يلقيـه عليهـا صعب، ولا يلائـم مزاجهـا. أراد أن يصـالحها، ولكنـه فضـل أن يشـرب مـن كأسـه ويقضـم طماطـك، وطافـت الخمـرة فـي رأسـه خيالاً وأحلاماً.

_ أنت يا صبرية لم تكسبي شيئاً مني، ربما هذا خطأي. مازلت كما رأيتك لأول مرة.

حركت صبرية جسمها، وكأنها تريد أن تقول شيئاً عظيماً، ولكنها خمدت في اللحظة الثانية. وقلت بصوت نحيل:

_ تريدني أصير أم مدرسة؟ عمري ما تعلمت.

_ أريدك أن تفهمي أحلام الشاعر.

_ الأحلام بالليل.

تأذى وشرب جرعة ولدت في نفسه رغبة في أن يعلمها:

_ لا أقصد أحلام الليل، بل أحلام النهار. يعني أن تتخيلي ما تشتهين. تشعرين بثقل الحياة وتحاولين تجميلها بالأحلام.. هل سمعت بأبو الريش يا صبرية؟

_ أبو الريش؟ سامعه به.

_ في بلدتنا كانوا في الأعياد يكسون أقبح رجل بالريش الأبيض الجميل، ويصبغون شفتيه وخديه بالحمرة حتى يبدو جميلاً، ويسلي الأطفال. يثير خيالهم وأحلامهم. والأحلام ريش الحياة، وبدونها تكون الحياة قبيحة لا طعم لها ولا رائحة. الحياة بلا ريش، أقصد بلا أحلام، مثل حيوان مسموط أقرع، ويجب أن تكتسي بالأحلام لتبدو جميلة مثل أبو الريش، لأن حياتنا قبيحة. هل حياتك جميلة؟

_ من أين جاءها الجمال؟

_ وكذلك أنا. حياتي قبيحة متورمة مثل عجيزة القرد. وأنا أجملها بالأحلام حتى أجرعها. وأنت ألا تحلمين؟ أقصد ألا تتصورين أنك ستخرجين يوماً من هذا الحجر وتكونين سعيدة؟

_ أحلم، أحلم.

_ الناس جميعاً يحلمون. وإذا لم يحلموا لا يستطيعون تحمل الحياة. لو جاء طاغية ومنع الأحلام على الناس

لهلكوا في اليوم التالي. ذبلوا وتأكلوا. وأنا شاعر أحلم بالأحلام الجميلة العالية، أبني قصوراً، وأسكن كل قصر حورية.

تناول كأسه وشربها، وقضم من الطماطم، فسألته صبرية:

_ أكلت؟

_ أكلت. أنا شاعر عندي من الأشواق والحرارة ما يجعل لكل حجارة العالم حياة. عندي كل شيء في فكري، ولكن لا أملك شيئاً في الدنيا.

_ يعني مثلي.

فكر بالرد عليها في فكره: عندك جسد تتاجرين فيه، ولكنه أجابها بشيء آخر:

_ ربما أتعس. لأن المجتمع يريد شيئاً ملموساً، يريد بضاعة يتسلّى بها، ثياباً يكسو بها جسمه. أما روحه فخاوية. والشاعر ليس تاجر ملابس وأحذية.: وهو يريد أن ينسى روحه، يخنقها تحت أكداس من الدثار الجميل، ولا يهمه أن يعيش بلا قلب.

اقتربت صبرية منه ولامسته وقالت:

_ الناس بلا قلب.

_ نعم، يا صبرية، الناس بلا قلب. ربما تعرفينهم أكثر مني. يريدون...

قاطعته:

_ أعرف، أعرف، يريدون رغيف من جلد ضعيف.

_ أحسنت. وأنا أحب بودلير. أرجو أن لا تتضايقي، لأنه رأى الناس كما هم، بضمائرهم، وبلا لباس أو أصباغ يتزوقون بها، قائلاً لهم: ما فائدة كل هذه الملابس والألوان إذا كان الموت نهاية كل شيء. نهاية كل شيء جيفة كتلك التي رآها ذات صباح ملقاة في منعطف طريق ضيق. هل تفكرين في الموت يا صبرية؟

_ أنا بعدني شابه.
_ وأنا كذلك، ولكن أفكر في الموت.
_ يموت عدوك.
_ لا، يا صبرية، الموت مسألة جدية.
_ لا تشرب عرق.
_ ايه.
تأوه بحرقة، وعمر له كأساً أخرى، وأحس بالغربة والتوحد بعد هذه المناجاة الطويلة، وغرق في هواجسه، ولم يسمع حين طرق الباب. بل رأى صبرية عند الباب وسمع صرخة المزلاج الخافتة، وصوتاً نسائياً قبيحاً: "شكو عندك قافلة الباب؟" ورأى امرأة بعباءة تدخل عليه.
_ اها! من هذا؟ عندك ميخانة؟
ونظرت إليه فضحك لها. إلا أنها ظلت على عبوسها. كانت صبرية وراءها صغيرة مثل قطة وراء كلبة تكشر عن أنيابها. أدرك ذلك من النظرة الأولى. عافته المرأة واتجهت نحو البيت، وتبعتها صبرية ذليلة. وفي الحال سمع هذا الحوار:
_ ليش آني مبقية الحوش حتى يسكرون بيه رفجانك؟
_ راح يطلع.
_ من هذا البعير؟
_ خوش ولد. معميل.
_ العرق على حسابك لو على حسابه؟
_ على حسابه. جابه وياه.
_ باجر ابع الحوش. انت ما تريدين حشيمة. اكو كحبة تسد باب بيتها وتقطع رزقها؟ شنو انت بالبتاوينه؟ منين تعلمت هالشمرة؟ حوش جبير تسرحين بيه وحدك، واش وكت ما تريدين تسدين الباب؟ باجر اذب غراضك بالدرب. منين هذا منين؟ أريد اشوف منين؟

_ عمه، الله يخليج. هسه يشرب ويطلع.
_ وما طاج فلوس؟
_ يطيني.
ورآها ثانية. شمرت ذراعها وقالت:
_ عيني، منو انت؟
نظر إليها، وضحك.
_ رجل. ألا ترينني؟
_ رجل لو حجاره. تضحك على البنت.
رفع ذراعه عليها.
_ كوم عيني، كوم.
_ أين؟
_ لو تخش، لو تطلع.
_ إذا هي راضية، فما دخلك في الموضوع؟
_ يحجي بالنحوي. بابا انت اش الك ويه بنت الناس؟
_ صديقتي.
_ صديقتك لازم تنفعها. مو تشرب على حسابها.
كوم، عيني، كوم.
نظر إليها متأرجح الصدر وقال:
_ أنت لا تعرفين مع من تتكلمين؟
_ مع من؟ مدير الشرطة؟
_ بف.
وبعد ذلك سمع صبرية تهمس.
_ عمه، هو شاعر.
_ شنو؟
_ بو بدير؟ عمه تذكرين لما رحنا للسينما؟
_ هو هذا شكل سينما؟ أهل السينما يجون عليج؟
غضب وقال:
_ انت أمية.
_ أنت وأبوك أموي. راح تطلع لو أجيب الشرطة؟

_ سأخرج. أنا غير مستعد إلى التحدث مع صعلوكة.

ونهض ونظر إليها بغضب، ولكنها قابلت نظرته بنظرة طويلة متحدية. كانت تطوي جذعها متهيأة للانقضاض. سار من أمامها وقال:

_ طيب، شكراً.

_ متشكرين على الخواردة.

الثاني

الحديقة مستطيلة جرداء، إلا من نخلة عند الحائط الفاصل بين المشتمل وبيت الجيران – صاحب المشتمل بالأحرى – تحمل رطباً يتساقط بعضه في الحديقة، والقسم الأعظم في بيت الجيران. وأرض الحديقة مكسوة بعشب هزيل سلخت بقع منه، وباتت الأرض سمراء متربة. وفي حافة الحديقة أيضاً، حيث صف الغرف الثلاث، تآكل العشب وتثلم البساط الأخضر، وظهرت من تحت الأرض أنصاف ودوائر ومثلثات وأشكالاً أخرى لا هندسية. والمشتمل كله يبدو مهجوراً مهملاً لم يُسكن منذ زمن طويل. عندما دخلاه لأول مرة رأيا التراب في الغرف الثلاث و"مخطات الشيطان" في الزوايا، وبعض الخنافس تدب في الطوار الضيق.

والآن يدور ابراهيم في الحديقة، وزوجته خلفه. التقط بعض الخلالات، وفركها بين يديه، وأعطى اثنين لزوجته.

_ كليهما! هذه الأرض فخرتها الشمس، وقتلت كل الطفيليات الضارة فلا حاجة إلى غسلها في الماء.

وسحق خلالة بين أسنانه خلوة جاسية، وفيها رحيق سُكّري، والنواة هشة قليلاً، ولا تؤذي الأسنان. وانتعش ابراهيم، ورمق الحديقة مرة أخرى، وقال لزوجته وكأن حلاوة التمر مدته بالأمل والتفاؤل:

_ سأعمر هذه الحديقة بيدي. سأزرعها ببعض الشجيرات، وأقيم تعريشة عنب في هذه الزاوية، وأقلب تلك البقع الصلعاء من الأرض. سأفعل كل ذلك بيدي. وصاحب المشتمل رجل طيب وعد بأن يساعدني.

سيستحق القسط الثاني من الإيجار.

_ لا يقلقك الإيجار. إنه من قراء الجريدة، وسيتساهل معنا.

ضحكت وقالت:

_ ألا يوجد صاحب موبيليات من قراء الجريدة؟
_ سأجد. امهليني. ألم أجد بائع قدور ولوازم بيتية من قراء الجريدة؟ - وأدار لها وجهه مبتسماً – أثناء الحملة الانتخابية كان هذا الرجل البسيط يسقي الناس "الشربت" كلما انعقد اجتماع انتخابي في سوق الصفافير. فكنت أقول له "شنو، عندك عرس؟" فيقول ضاحكاً: "عرس، والله العظيم عرس. نزف نوابنا إلى مجلس النواب".
وضحك الزوجان. وسارا نحو الطوار. فقال ابراهيم مداعباً:
_ على العموم عندك أدوات تحضير الشاي.
_ سيكون الشاي جاهزاً بعد عشر دقائق.
_ تعالي أولاً نخرج التخت إلى الحديقة.
مرا بغرفة فارغة وتوقف ابراهيم عندها، وقال:
_ ستكون هذه غرفة للضيوف. إنها مضيئة وطويلة نصف طقم قنفات يكفي، وبساط أستطيع أن أشتريه منذ الآن بالتقسيط من صديق.
_ من قراء الجريدة؟
_ لا، ولكنه صديق على أية حال.
_ لا تحضر المعلف قبل الحصان.
_ والفصل صيف.
وسارا إلى غرفة أخرى فارغة أيضاً:
_ ستكون هذه مكتبتي. صغيرة ومتواضعة. سيأتي المكتب قريباً من عند اسماعيل. والمكتبة أستطيع أن أصنعها بيدي. مجرد رفوف أطليها باللون البني، وكرسيان أو ثلاثة. سترين بنفسك أنها ستكون غرفة مكتب ممتازة. ويمكنك أن تضعي ماكنة الخياطة هنا، وتشتغلي أثناء غيابي في الجريدة فقط. وفي أوقات فراغي سأعلمك الإنكليزية.
_ يا ليت!

_ لا تخافي. سأعلمك في ثلاثة أشهر.

وجاءا إلى الغرفة الأخيرة في أقصى المشتمل، هي غرفة نومهما. سرير خشبي لشخصين، وصوان ملابس، وحصيرة وضعت عليها أكوام الكتب، وتخت حملاه إلى الخارج.

جلس ابراهيم على التخت الخشبي يدخن، بينما ذهبت زوجته لتعد الشاي. رمق الحديقة المستطيلة العارية المذهبة نهايتها بشمس الأصيل، هناك حيث الباب الأخضر من الخشب الرخيص، وحنفية الماء المخصصة لإرواء الحديقة. والحديقة ذابلة الآن، والبيت فارغ وغير مريح. ولكنه سيعمر حتماً. سيمتلئ بالأثاث، وسيستقبل الشتاء بدفء بيتي. وسيكون بوسع ابراهيم أن يعمل أحسن، ويضع مشاريعه الصحفية، ويدوّن مذكراته. إن كل شيء يحتاج إلى استقرار، كما يقول سعيد. الأدب، والفن، والصحافة، والعلم، وكل الناس بحاجة إلى وضع مستقر ليفكروا ويحسنوا حياتهم، ويخلقوا الأشياء الجميلة، ويؤثثوا بيوتهم، ويدفئوها للأطفال المرتقبين، ويعمروا خرائب الحياة الموروثة من عهود الظلم والاضطرابات في عهود الاضطرابات السياسية يتجمد كل شيء، وتفتر الهمم، ويخيم اليأس على الناس، وتزول الثقة بهم. بالأمس ذهب ابراهيم ليستلف ثلاثين ديناراً من حامد فتعلل هذا، وبدأ يحدثه عن فتور الحياة، عن مجيء نوري السعيد الذي ذهب الوصي إلى باريس ليصالحه، وعن النكسات السياسية المتوقعة. ربما لها السبب لم يسلفه. زالت ثقته به. خاف أن تغلق الجريدة ويعسر عليه استرجاع الدين. والخوف في أيام التحولات السياسية يلّون أخلاق الناس وتصرفاتهم، ويجعلهم يمسكون أيديهم على ما لديهم استعداداً للأيام السود. ولكن ابراهيم سيجاهد حتى النفس الأخير. ورأى امرأته مقبلة عليه بصينية الشاي.

نهض يستقبلها، وتناول صينية الشاي منها، ولسعه عقب السيكارة القصير، فألقاه على الأرض، ثم رفعه وحمله إلى صفيحة الفضلات. ولما عاد يحمل نفاضة قالت له زوجته:

_ كسرت قدحاً.

_ سلامتك. هذا فأل حسن – وابتسم مستبشراً – يعني أن بيتنا عامر أو سيعمر. أتعرفين أن الأواني والأقداح تكسر عادة في البيوت العامرة؟ أطفال وحياة بيتية فياضة. اكسري قدحاً آخر.

ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت:

_لا، كنت أفكر بأمي. وعدت أن تأتي، ولكنها لم تأت.

_ ربما لأن الطريق طويل.

_ لو كانت مشتاقة لما همها الطريق الطويل. ولكن أباك يؤثر عليها.

غشيه غاش من الحزن فقال:

_ ماذا بوسعي أن أفعل لأبي؟

_ يبدو أنه تأثر كثيراً.

_ لم أكن أتصور أنه سيتأثر إلى هذه الدرجة.

وتراءى له وجه أبيه، وطافت في خياله غرفته في البيت القديم، والممر المؤدي إلى غرفة أبيه. لولا غضب أبيه لكانا مقيمين هناك الآن. وسمع زوجته تقول:

_ لا أدري، ربما من الخير أن تصالحه.

_ أصالحه؟ عاد وجه أبيه الغاضب – سيسد الباب في وجهي. أنا أعرف أنه عنيد. في صباي، وأنا في المدرسة، كان يعاقبني بالصمت. كلما غضب عليّ امتنع عن الكلام معي أياماً طويلة حتى كان صمته يوجعني أكثر من أي عصا.

قالت زوجته في تشك:

_ يعتقد أننا ارتكبنا جرماً.

فرأبت الصدع الذي أحدثته في ثقته بجملتها السابقة. قال لها:

_ شيء من هذا القبيل. ولكنني ما أزال عند رأيي الأول. ما دام الأمر يتعلق بنا، يخص حياتنا، فلماذا يتدخل الآخرون فيه، ولو كانوا آباءنا. نحن نتحمل تبعات حياتنا الزوجية، وتعيش أفراحها ومصاعبها. فلماذا يتدخلون؟

وصمت يريد أن تقول كلمتها. إلا أنها راحت تصب الشاي صامتة. فأخرج سيكارة، وشرع يدخنها. وقال وقد أعاد إليه الدخان صفاء ذهنه.

_ أعرف أنك حزينة – وصمت لحظة ثم أضاف – أعرف أن تجربة الخروج من بيت الأبوة ليست سهلة. ولكنك هنا ربة بيت، ولو أن هذا البيت فارغ. إلا أنه سيمتلئ. أقسم لك أنني سأجعله أحسن بيت، فانتظري.

_ وهل استعجلتك في شيء؟

_ لا، ولكن أشعر أنك كالضائعة.

_ سأتعود.

_ ستتعودين. عندما كنت أعزب كنت لا أبقى ليلة واحدة في البيت. أما الآن فنادراً ما أخرج، حتى أن سعيداً صار يلعنني على المكشوف، ويقول تركني كاليتيم.

رأى ابتسامة خفيفة على شفتيها، نفس الابتسامة المتأنية الحزينة التي كانت تستقبله بها قبل الزواج، فلا يعرف أهي ثمرة خجل أو ترحيب أو توجس، أو كل ذلك مجتمعاً. والآن تأسف على قوله الأخير، وقسمه الذي لا لزوم له. وكان يعرف أن الكلمات أسوأ وسيلة لإظهار صدق الزوج مع زوجته. الكلمات أرخص من الهواء الذي يخرج معها حين يتفوه بها فم، أرخص من القبلات التي قد يطبعها زوج خائن على خد زوجته أو بالعكس دليلاً على وفاء لا وجود له. ولكن الكلمات أفلتت من لسانه.

_ اشرب شايك. سيبرد.

_ سأشربه.

وشرع يقلّبه.

_ أنا لا أريد أن أقطع صلتك بأصدقائك.

ربما ظنت أن سبب صمته عائد إلى تذكره لياليه الماضية، سهراته مع أصدقائه، وقد حدثها كثيراً عن تلك الليالي، فسارع يقول لها:

_ أنا لم أقطع صلتي بها. ولكن الجريدة – وامتص نفساً من سيكارته وأبقاه في صدره – الجريدة الآن تشغل بالي. أصبحت تتطلب جهوداً أكثر. وأنت ترين كم تطورت طباعة ومادة. والإعلانات لا تشغل جانباً كبيراً فيها. نحن لا ننشر إعلانات.

_ أنتم مختصون بالإعلان عن المحامين – وضحكت.

_ إعلانات مجانية أو ذات فائدة مادية قليلة. جريدتنا هي الجريدة الوحيدة التي تعيش على البيع لا على الإعلان. وهي محرومة من الإعلانات الحكومية الغالية. كل عقدة بربع دينار. تصوري هذه الرشاوي القانونية التي تغدق على الصحف الهزيلة التي لا تبيع غير مائة أو مائتي نسخة، وتحرم منها جرائد ذائعة بين الناس.

فسألت بادية الاهتمام:

_ ومن يوزع هذه الإعلانات؟

_ مديرية الدعاية العامة، الطرف الخصم للصحافة العراقية. هي التي توزع الإعلانات، وتصدر الإنذارات وقرارات التعطيل. الرشاوى، والتهديدات، والعقوبات. ونصيبنا التهديد تلو التهديد.

هزّت رأسها وقالت:

_ مهنتكم شاقة.

_ شاقة وممتعة – ولم يرد أن تكون لها فكرة كئيبة عن مهنته التي يتعشقها – أنا أعتقد أن بوسع الجريدة، إذا صانت شرفها من التبذل، وعبأت صفحاتها بفكرة صحيحة،

وكانت ذات خط واضح أن تصبح زاداً لا غنى عنه لكل إنسان لا يعيش على الهامش. عندئذ لا تهمها الإعلانات الحكومية.

_ والتعطيل؟

سألته، وكأنما التقطت المفتاح إلى صندوق مخاوفه. إلا أنه لم يرفع غطاء الصندوق. ملأ صدره بالدخان، وقال بثقة:

_ التعطيل في الصحافة العراقية كالموت الفجائي، بالسكتة القبيلة مثلاً، يصاب به الإنسان دون أن يدري. ولكن مع رفة الناس بهذه الحقيقة لا تمنعهم من مزاولة حياتهم. وأنا أعتبر الصحافة حياتي، أمارسها بكل جوارحي وإمكانياتي إلى آخر لحظة. ومشاريعي الصحفية هي مشاريع حياتي. وما دمت حياً، أقصد ما دامت الجريدة على قيد الحياة فسأفكر فيها وأعمل على تحسينها، وأجعلها نابضة بالحياة.

مسّت يده. ربما أرادت أن تشد عليها. فأتم هو ما أرادته، وقد امتلأ ثقة، ودخن سيكارته صامتاً. وشرع يشرب شايه الفاتر رافعاً وجهه لطراوة الأصيل، ونسمته الخفيفة المحملة رائحة عبقة آتية من حدائق محاورة عامرة بالأشجار والأزهار.

الأول

فجـأة اعتـرت سـعيد حالـة مبهمـة مـن الانقبـاض النفسـي. فقـدت الأشـياء محتوياتهـا، وبـدت طافيـة علـى سـطح العـالم بـلا جـذور، ولا أوزان تـولى هاربـة إلـى مكـان مجهـول متقطعـة مـن الـنفس شـيئاً لا يعـوض. فجـأة بـدت الحياة لسعيد عمليـة خسـران دائمـة. الإنسـان يخسـر كـل شـيء: عواطفه التي تتولد فـي نفسـه ثـم تمـوت مخنوقـة، وأفكـاره غيـر القابلـة للتحقيـق، وأحلامـه التـي تتمـزق فـي لحظة الخيبة واهية كنسيج العنكبوت. يخسـر دقـائق عمـره باسـتمرار، وبلا مقابل، وبلا عودة.

أحس سعيد بأن كل شـيء يفـر منـه، ويخلـف فراغـاً، جوعاً إلى شـيء مـا. ألقـى "محتقـرون ومهـانون" مـن يـده زاهـداً فـي القـراءة، وتلبسـته حالـة تخـل وهـروب مـن اثـم غامض حزين – ربما هو اثم الخسارة نفسها – ولـبس ثيابـه على عجل، وخرج غير ملتفت إلـى الحجـرة التـي اجتمعـت فيها العائلة بعد الغداء.

تموز في الشـارع صـوف سـاخن علـى الوجـه، وعـرق لزج تحت الثياب. تذبذبت حركة السيارات في أعصابه، ورنت رنيناً فارغاً. وتحير سعيد أين يذهب. كانت رغبة قوية تحـدوه إلى الفرار. ولكـن مـن أيـن؟ لـم يـرد أن يـذهب إلـى أماكنـه المألوفة فهي لا تعطيه شيئاً. ترك رجليه تحملانه إلى حيث تشاءان. لم يكن يحس بتعب جسدي. كانت أطرافـه تتحـرك طليقـة ممتلئـة بالـدم، ونفسـه هـي اللاغبـة اللائبـة لـوب الشكلى.

عبر الشارع فتعاوت عليـه أبـواق السـيارات توشـك أن تنهشـه. ابتلـع زفراتهـا البنزينيـة المحترقـة حتـى جفـت حنجرته. وطـاف فـي شـوارع لا أسـماء لهـا كالماشـي فـي نومـه ولـم يحـس برطوبـة المـاء فـي النهـر، بـل أذى عينيـه

انعكـاس الشــمس، وأحــس وكأنــه ســراب. وانحــدر علــى الجانب الآخر مـن الجسـر. الأرض هشـة تحـت قدميـه مثـل رمل محمي، واحتوته ظلال عفنة. ثم انخرطت عجلة بالقرب من ساقه تماماً. أحس بشـيء يـدور ويريـد أن يلفـه. تلمـس بنطلونه دون أن ينظر إليه. وجعجعت أغنية على طبلة أذنـه. وشعت شمس على مقربـة منـه محمولـة بـين يـدي رجـل. وقف بـاص بـالقرب منـه "للكـاظم، للكـاظم" وانـتفض سـعيد وكأنه سمع صوتاً مألوفاً يناديه. طـوى جذعـه مـرتين ودخـل. رأى الرؤوس قرب السقف تهتـز متقاربـة بإيقـاع واحـد ينفـث بعضها دخاناً أزرق. كانت أمام سعيد سـدارة تلـثم السـقف، وتسد عليه مجـال البصـر. وكـان الركـاب صـامتين، والمحـرك وحده يثرثر متقطـع الأنفـاس. أمـال سـعيد رأسـه وحـاول أن ينظر إلى الخارج. كانوا متجهـين نحـو الجعيفـر. وتـذكر الخـط الحديدي الذي كـان يمتـد عبـر هـذا الشـارع الملتـوي. فـي الماضـي كانــت هنــاك عربــات "أم القــاطين". نعــم. عربــات تجرها خيول. وطرزينة تفوح نفطاً أسود محروقاً، وتهز الأرض. رأى سعيد بيوتاً متهدمة واطئـة. نفـس البيـوت القديمـة لـم تتغيــر، بــل اســتهلكت أكثــر وشــاخت. عنــدما كــان يركــب "الكاري" في الماضي كان يرى صحونها. ونزل راكب، وانتقل "أبو سدارة" إلـى مكـان آخـر، وانفـرج الشـارع أمـام سـعيد. وفجأة خيل إليه أنـه ذاهـب إلـى غابـة، كمـا فـي الماضـي. الشارع نفسه كما كـان يتمنـى أن يسـكن فيـه ليتمـرغ مـع الأطفال بين قضبان السـكة، ويتمتـع بمنظـر الكـارات. كانـت العربات تتوقف هنا، أو ربما أبعد، في العنق الضيق فـي آخـر الشـارع. هناك. كانـت تتوقـف منتظـرة العربـات القادمـة مـن الكاظم. هناك. كان علم أخضر وآخر أبـيض مشـدودين علـى عمود. ينزل أحدهما ليرتقع الثاني. وأحس سعيد بـأن شـيئاً أخذ يتفتح في نفسـه. يرن في فراغها كالصـدى فـي صـحن جامع. انتظر أن يسمع صوت مضخة. صوتها المتأتي الشرق

بالماء. كانت موجودة. هناك. في نهاية البيوت. بعدها تبدأ البساتين. ورأى النهر على يمينه. "نازل!" وتوقف الباص. ونزل سعيد مقبلاً على النهر، وكأنه مقبل على صديق قديم. شم رائحته الناعمة الرملية، وسار معه محدقاً بصفحته حتى اعترضه حائط ترابي متهدم. نزل السدة، وعبر الطريق المبلط إلى الجانب الآخر حيث الأشجار والنخيل تلقى على الأرض ظلاً متعرج الحاشية. وكان التراب تحت قدميه أملس رقيقاً. سار على افريز ضيق من الأرض ينتهي بمجرى ماء جاف تأتي بعده أرض الشارع القيرية. وشمّ روائح نباتات فخرتها الشمس قبل حين، ورطبتها مياه تجري في مكان وراء الحائط كتلة من الطين الجاف، وفركها بين يديه وشمها. مرة ثم أخرى، ثم ثالثة. ورأى المقبرة القديمة في نهاية الحائط تتسلق أكمة تتوسطها المغسلة، وتتخللها نخيلات، وبعض الأشجار. قبور متطامنة متقاربة أغلبها من الطين، تسير بينها دروب، وتنبت عند بعضها خصل من النبات الشوكية. قبور بلا شواهد. إذا تقدم قبر ركب قبر آخر. كان الناس يعرفون قبور موتاهم من موقعها من الأشجار. كان سعيد يعرف ذلك من الطفولة. آنذاك كان قرب المقبرة موقف رئيسي للعربات، وحتى "الطرزينة" كانت تقف عنده. تهز الأرض فيستيقظ الموتى من أجداثهم، وينظرون من خلال الحفر إلى القادمين نحوهم للزيارة. ينظرون فرحين، وربما يبتسمون، ويقولون "يا هلا يا مرحبا". وأكثر من ذلك. كلما كان سعيد يقبل عليهم يتصورهم قابعين تحت القبور، ينظرون من خلال الثقوب الصغيرة وبيوت النمل. كان الموت بالنسبة له مجرد انتقال من عالم إلى آخر. الموت حياة أخرى في عالم آخر. والأحياء هم الخاسرون لأنهم لا يعرفون ما يجري في ذلك العالم. بينما يعرف الموتى كل شيء. وقف سعيد يصعد بصره بالقبور، وتذكر وقفات له هنا، ربما في هذه البقعة.

خاطب القبور في سره "السلام عليكم يا أصدقاء طفولتي. كيف أحوالكم الآن؟ مستوحشون؟ أظن الليل أصعب عليكم من النهار. ولكنكم مرتاحون على أية حال. كبرت أنا ولم تكبروا. خسرتُ ولم تخسروا. لو كان في يدي مصحف لرتلت لكم "ياسين والقرآن الحكيم" كما كنتِ أفعل في الماضي. ولكن يدي فارغة. مع السلامة". ومرّ عبر جسر الصرافية المعلق. هذا يزعجهم أكثر من "الطرزينة" يهزهم ولا يتوقف عندهم، ولا ينزل أحد منه لزيارتهم.

وراء الجسر خندق من الماء الراكد، وبعض البيوت الجديدة المتشابهة. وفي الجانب الآخر بيوتاً أكثر. وبدأ سعيد يحس بتعب جسدي، ولكنه مدفوع من الداخل، وظمآن إلى ظل سيأتي بعد المقبرة، بعد هذه الأرض الجرداء التي التهمتها البيوت العارية القبيحة. سيأتي ذلك الظل موشى الحواشي بطرر ابريزية حاول أن يمسكها مرة فامتلأت كفه بالتراب. السيارات تسير مسرعة في الجادة، وقدماه متربتان. لاحت ظلال من بعيد. لولا البيوت لانفرجت أمامه الواحة القديمة، موقف العربات الآخر. حث خطاه متلهفاً عجولاً مترقباً شيئاً سيحتويه كله، مثل سمكة صغيرة في جدول هادئ. تلك هي أشجار التوت التي يعرفها، على جانبي الطريق يفصل بينهما طريق اسفلتي. وهذه هي الساقية القديمة مقسومة نصفين.. هذه هي.. ممتلئة... لا. لم يلح لعينيه الماء إلا حين أطل عليه.

كان وشلا هزيلاً وانياً، ليس كالماء الذي عرفه في الطفولة، الماء الرقراق، الطافح، المنحدر بسرعة، الذي كان يغمر صدور الأطفال حين ينزلون فيه. نظر سعيد إليه في خيبة. وعبر الشارع إلى الجانب الآخر من الساقية. أشجار التوت ذاتها. ظلها الوريف يلثم سطوح بيوت من طابق واحد. في الماضي المتساقط كان يسمع من هنا دندنة المضخة، ويشم نفطها الأسود، ويسمع هدير الماء المتساقط من

أنبوبة عبر السدة. وكانت الأشجار منظومة الأغصان بثمار التوت. وكانت هناك تخوت، مقهى كبير يوزع تخوته تحت الأشجار، ويتساقط التوت على جلاسه مع ذرق العصافير. بحث عنه بعينيه فرأى في أعماق الجانب الآخر مبنى طينياً صغيراً، وثلاث تخوت تنزوي قرب الحائط. سار إليها عبر ساحة مبلطة. كانت التخوت فارغة، وفي داخل المبنى أصوات. أطل سعيد من الباب فرأى رجلين جالسين على مصطبة واطئة أحدهما في كوفية وعقال.

_ السلام عليكم.

_ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

_ عندكم جاي؟

_ تفضل، اغاتي!

كان موقد طيني يرتفع إلى يمين النافذة عليه سخان أسود كالفحم، وإبريقان مزوقان.

جلس سعيد على التخت، وأخذ ينكث التراب عن حذائه بضربهما معاً. جاء أبو الكوفية والعقال بالشاي وطاسة ماء نحاسية. عب سعيد ماءها الدافئ، وناول الطاسة للرجل:

_ بالعافية.

_ الله يعافيك.

وأشعرته هذه الكلمة بألفة غريبة، وكأنما سمع صوتاً يعرفه. سأل سعيد الرجل عندما همّ بالعودة:

_ قل لي من فضلك: كم سنة عمر القهوة؟

توقف الرجل وقال:

_ قهوتنا؟ اهوه.. عمر طويل.. أكثر من ثلاثين سنة.

قال سعيد كالمخاطب نفسه:

_ يعني نفس القهوة القديمة.

_ ما تغيرت.

ورأى سعيد الرجل ينظر إليه بتساؤل ودي فأخبره سعيد:

_ أنا أفطن عليها وأنا صغير... أيام السكاريات.

تفتحت أسارير الرجل عن بسمة سمراء. وسأل بدهشة فرحة:

_ من ذاك الوقت؟

_ من ذاك الوقت. كانت هذه الساقية طافحة بالماء.

أدار الرجل وجهه إلى الساقية، ونظر إليها وكأنه ينظر إلى كائن حي. وقال قبل أن يدير وجهه إليه:

_ هذه الساقية كانت تروي بساتين.

_ والمكينة كنت اسمها من هنا.

_ المكينة ذاك اليوم شالوها. حولوها أبعد. ظلت بساتين حتى ترويها؟. الأرض كلها راح تعمر.

نظر سعيد فيما حوله. نعم. كانت الدور الجديدة في كل مكان. أكثر مما كان يتصور. فعاد بصره إلى المقهى.

_ وهذه القهوة كانت كبيرة.

_ كبيرة كبيرة – قال الرجل بافتخار.

_ أذكر كنت أشرب لبنها اللطيف، وتمرها المقطوع من النخل من توه.

ضحك الرجل ضحكة صافية، ولاح على وجهه الأسمر دهشة حنون وكأنه اكتشف شيئاً عزيزاً يجمعهما.

_ الروبه؟ تذكر على الروبه؟ أبويه المرحوم كان يسويها بايده. زبدتها فيها.

لم يكن مذاق الشاي لذيذاً في فم سعيد، ربما لأنه تذكر اللبن الحامز المملح قليلاً، الكثيف، المغطى بقطع صغيرة من الزبدة، والمقدم بطاسات فخارية تطفئ الواحدة منها احرّ غلة. وكان اللبن يقدم من سلة مفلطحة صغيرة كالإناء، مظفورة من أعواد دقيقة بلون قشر الرمان كانت تملأ بالبرين والخستاوي. وكان التمر يذوب في الفم دون

حاجة إلى مضغ، قطعاً لامعة أنيقة هشة من شهد الجنة، يؤلف مع "الروبة" زاداً هاضماً روايا مخففاً على المعدة ثقل كباب الكاظمية، مرطباً النفس كلها بنداوة منعشة.

_ عيوني! – انتزعت هذه الكلمة سعيداً من ذكرياته – خوب ما ترد ايدي لوجبت لك طاسة لبن وشوية تمر؟

رفع سعيد بصره إلى الرجل، وكان يبتسم مثله.

_ كرم العرب ما يرد.

وعاد سعيد من رحلته عند الغروب مستريحاً من لغوب نفسه، فرحاً برحلته. ودخل السينما وشاهد فيلماً عن "حكة الأربعين". ولما لم يكن قد وصل إلى سن "الحكة" لم يطالبه جسمه بشيء أرعن، بل شعر بالاعتزاز بشبابه وبنظافة جسده. سار إلى الباب الشرقي يريد أن يتعشى. لم يرد أن يذهب إلى بلقيس، فهي للفارغة قلوبهم ولذوي الحكة. ومرّ بملهى الاعمار بأضوائه الخضراء والحمراء. وتناهبت أنفه روائح الأطعمة المنبعثة من المطاعم، والدكاكين الصغيرة، والعربات المتنقلة بعد سينما النجوم في الزقاق المنير المملوء بدور السينما. وتناول عشاءه واقفاً أمام عربة تشوي الأكباد والقلوب. أكل "قلبا" مع البصل والخضرة والمخلل. وكان القلب ريان حاراً طرباً بين أسنانه، فصار في جوفه قلبان ينبضان في عنفوان وشوق. سار متمتعاً براحة نفسية، مستعداً لأية مغامرة. وقبل أن يعبر الشارع إلى الحديقة رأى شريفاً أمامه.

_ عفريت! أين كنت؟

قال سعيد مشدداً على الكلمات:

_ في الماضي، في الطفولة.

_ لا تضحك عليّ. أنت ما تزال في الطفولة.

انزعج سعيد وقال:

_ اترك يدي، لا تدنسها.

_ ها ها ها.. أنا دائماً أمزح معك وتحسبني جاداً.

سارا سوية وقال سعيد معتزاً وجاداً.
_ أنا اليوم حججت إلى طفولتي.
_ لطيف أن يحج الإنسان إلى طفولته – قال شريف بصوت رصين – ليتني أفعل ذلك، أعود إلى طفولتي. ولكن، اواه!. أنا مشدود على الشباب بألف حبل. فكيف أقطعها؟
نظر سعيد إلى وجه شريف المنتفخ وتساءل:
_ هل شربت شيئاً يا شريف؟
_ كأسين فقط، لأنني على ميعاد مع فنانة.
_ الخمرة ينبوع الأوهام.
_ أنت مغرم بتكذيبي. تعال معي. هل تذهب معي اليوم إلى الملهى؟
_ اذهب، لتذهب الآن.
_ بعد ساعة آخذك إليها. وسترى بنفسك أي عملاق أنا في جذب النساء.
_ كفى هذيانا، ولنرجئ التشخيص إلى ما بعد الفحص.
سارا حول الحديقة مارين بمواقف الباصات المزدحمة، وباعة الكتب القديمة المفروشة على الأرض، وبعض السكارى، وجعل شريف يتحدث عن فنانته:
_ ستتخيل الليلة حين تراها. إذا أقبلت عليك أحسست بنفسك ملتهباً بنار غير ظالمة. أول امرأة تملك هذا الجمال وتحب الشعر والأدب.
_ أنت لم تقرأ التاريخ إذن – قال سعيد مبطناً سخريته بلهجة جادة.
_ أقصد في الوقت الحاضر. إنها تموت على شعري. مرة قادتني إلى مقصورة في ملهى الجواهري، وظلت تستزيدني من شعري.
_ وأخذتك بعد ذلك إلى بيتها.
_ نعم، من أين تعرف ذلك؟

_ أتذكر ذلك يوم جئتنا بسترة متربة.
_ سترى اليوم بعينك. هل نظرك في الليل جيد؟
_ أهذا بار؟
_ إذن، فأنت ترى جيداً.
رأى سعيد في الشارع الموازي لحديقة غازي دكاناً صغيراً خافت الضوء يلمع فيه شيء يبدو كالمنضدة الوحيدة فيه. فأراد أن يجرب حدة بصره في الليل. ولم يكن متأكداً من ذلك. وعندما عبرا الشارع رأى سعيد المنصة، وقوائم المقاعد العالية، ورجلاً مولياً ظهره للشارع. توقف سعيد مثبتاً بصره فيه.
_ ماذا بك؟
_ أهذا حميد؟
_ أين؟ في البار؟ قبل ساعتين رأيته في بلقيس يرى الديك حماراً. حميد انهار – قال شريف مضخماً الهاء، مطيلاً المدة. فسأله سعيد مهتماً:
_ مريض؟
_ ليس مريضاً، ولكنه سيتمرض. إنه يشرب كثيراً منذ الصباح.
توقف سعيد عند عتبة الدار ولم يصعدها. قال له شريف:
_ هل خفت؟ على العموم أنت لن تكون مثله. قبل أن تصبح مدمناً.
_ والبنك؟
_ ما سبب هذا الاهتمام الزائد؟ ألأنه بدأ يغتابك؟
وبذل سعيد جهداً ليكتم الاثر المثل الذي تركته الجملة الأخيرة في نفسه، فردد سؤاله:
_ كيف يشرب من الصبح وهو يعمل في البنك؟
_ اهوه. يقول اخذ إجازة لمدة شهر. هل ستدخل أم لا؟

_ لنشرب كأساً واحدة.
_ أصابك رعب الادمان.
- كأسين.
وكان العرق مقززاً للحلقوم. جرعه سعيد متبسل الوجه، مبرداً فمه بحفنة من الحمص. وفي الطريق إلى الملهى لم يصغ إلى حكايات شريف الغرامية. كان خياله كله مع حميد.
سلم شريف على الرجل الواقف على باب الملهى بتعظيم كبير، وقال لسعيد "خش!". وخشا في قاعة مستطيلة في آخرها مسرح صغير. كانت القاعة مملوءة بالموائد، وعلى جانبيها مقاصير ترتفع على الأرض ذراعاً. وفضل شريف الجلوس في آخر القاعة معللاً ذلك بأن كل الراقصات يأتين إلى هنا كلما انتهين من أدوارهن.
جلسا بالقرب من الباب على مائدة بلل مفرشها وبقّع. ولاح المسرح لعيني سعيد الكليلتين بعيداً جداً، مربعاً من الأنوار غامضاً وراء بساط من مربعات الموائد، وكرات الرؤوس وكتل الأبدان المبرقعة بجدائل خفيفة من الأضواء. حذر شريف سعيداً من أن يطلب شيئاً من المشروب هنا. وظلت عيناه تتلفتان. بينما كان سعيد يرى ِشيئاً ويفكر في شيء آخر. كان يرى على المسرح رجلاً قصيراً بطربوش يحاول الوصول إلى صدر امرأة بدينة. وكان يفكر بحميد. لم يره منذ تلك المشاتمة في مقهى بلقيس.
_ شوف هذي المرأة.
سمينة وفارعة الطول ولم يكن يعرف عن أخباره شيئاً. كان يتحاشى الذهاب إلى الأماكن التي يرتادها لسبب قد لا يكون الخوف جزءه الأكبر.
_ جاءت.
لابسة حذاء عالياً خفاقاً كالقبقاب. هل كنت جانياً عليه؟ ما دام يأتي إلى البيت بعد الساعة الثانية، ويخرج

قبل الساعة الثامنة. فمن هي بالنسبة لحياته؟ أي جزء ضئيل تحتله منها؟

_ تحوم. تريدني أن أبدأها بالسلام.

في تلك المرة كان مغتاظاً وكان فرحاً. على أية حال لم يكن نادماً على طلاقها. كان يريد أن يتزوج من أجمل فتاة في بغداد أسمر سمارك زين عيني سمر وأصوات متنافرة. الناس يهللون للأغنية. والتفت إلى شريف ورأى رأسه على قبضته، والدخان يخرج من خلا ل رأسه.

_ هاي وين صاحبتك؟

_لا تصرخ. نحن مراقبان.

_ شرطة سرية.

_ الراقصات جميعاً حولك.

_ وأدار سعيد رأسه، ورأى نساء يلبسن أثواباً لامعة. قهقهت واحدة منهن بخلاعة:

_ لا تنظر إلى الوراء.

_ من هي بينهن؟

_ لا أريد أن التفت فتراني. إنها تراقب حركاتي. تريدني أن أحييها. لا تلتفت رجاء.

أدار سعيد رأسه إلى المسرح. امرأة في ثوب أسود تتلوى كالثعبان وعلى جسمها تتلألأ آلاف الأضواء الصغيرة. تتأود على صوت الناي كالثعبان. لماذا يشرب؟ ألأنه حزين؟ أم لأنه في إجازة أم...

_ انظر بطرف عينك. نهضت الآن من الخلف.

منعت النظارة سعيداً من النظر بطرف العين.

_ لا تدر رأسك.

في تلك اللمحة من الزمن رأى سعيد امرأة ممتلئة في ثوب أخضر باهت. ليست ضخمة. ميالة إلى القصر، مستديرة الوجه، حلوة الابتسامة. كل وجهها منار بابتسامتها. وكان على رأسها تاج أسود.

_ إنها بديعة. أهي التي أخذتك إلى بيتها.
_ إهم... ايه.
وبرزت من ورائهما. سارت بمحاذاة المقاصير بتأن وسلطنة. قطعة واحدة لا تتجزأ. لطيفة الخطو، مطمئنة إلى نفسها. لمع في الأضواء الباهتة صدرها الصقيل المنسرح، ورمانة كتفها، وانحناءة ظهرها الخفية. وتأوه الناس وجأروا. ونعتوها بنعوت مجانية لم ترد عليها بشيء، ولم تطأطئ رأسها أيضاً. صعدت المسرح وسط تصفيق متوتر، وتوقفت أمام المكروفون دقائق تاركة الموسيقى تهيء لها الجو لتقول "يللي تعرفون العشق".
داخ رأس سعيد من الضوضاء، والتفت إلى شريف، فرآه يدق صدره بجمع يده.
_ كيف تنسجم مع هذه الضوضاء؟
_ إنها تغني لي وحدي.
الضجيج شديد قرب المسرح. اسند سعيد حنكه على راحة يده، وأرسل نفسه مع الجو المتنافر المبهرج المتأرجح على بحر من الأضواء والأحلام والتنهدات محاولاً أن ينسى نفسه والتفكير في حميد. ربما جاء هؤلاء طالبين السلوى والنسيان أيضاً. هل سينسى زوجته السابقة؟ عشر سنين ليست قليلة. متى تزوج إذن؟ فتح عينيه ورأى نفسه متزوجاً. أناس يولدون متزوجين، وأناس يموتون عزاباً. أيهم أسعد حظاً؟ كلهم على أية حال يولدون ويموتون. والبركة في القناعة. البركة في الاكتفاء الذاتي.
_ هل يمكن أن تستغني عن سيكارة يا شريف؟
_ أتمنى أن تشتري يوماً علبة سكائر.
_ عندما أتعود على التدخين.
وأشعل سيكارة من عقب سيكارة شريف. حاولت أن أقوم بعمل إنساني. أشفقت على حالها الرثة. كانت

كالشحاذة وبشهادة الدكتور رؤوف أيضاً، واعتبرت نفسي بطلاً.

_ يللي تعرفون العشق.

ثم كان عاشقاً. نظم قصيدة عزلية في فتاة تبجح بحبها أمامنا. يعني انه لم يكن يحب زوجته وأطفاله. يوم ماتت ابنته كان مسروراً. نقل خبر موتها وكأنه ينقل خبراً.. عن النشرة الجوية. ضجت القاعة بتصفيق. لست مخرب بيوت إذن. لست. تصفيق – لماذا يغتابني تصفيق. ماذا يقول عني تصفيق. كنت أريد الزينة للاثنين وحكمت بالطلاق تصفيق. لم أحكم أنا ضجيج لم أحكم، بل لقنوني الحكم وانطفأت الموسيقى. ولكنني آمنت بأن الطلاق تصفيق دواء ناجع. حل سلمي للمسألة تصفيق. حل المسائل بالطرق تصفيق السلمية ضجيج. كانت تسير بين الموائد ينهشها الناس بالصياح، ويلطمونها بالتصفيق.

_ يللي تعرفون العشق.

ورفعت ذراعها القصيرة واهتز نهداها كموجة خضراء. وجاءت. توقفت عند مائدة. قطعة من الزمرد الأخضر تتوهج مع الأضواء. هل من المعقول؟

_ أرجوك لا تبحلق.

هل من المعقول أنها خليلته حتى ولو كان بودلير الأصلي، بودلير المأساة لا بودلير الملهاة.

_ أليست هذه ملهاة يا شريف؟

_ بالطبع ملهاة. إنها تشتغل في ملهى.

_ رفعت سلاحها اقصد ذراعها وسلمت.

_ أعرف هذا السلام لي.

_ اسكت!

_ ها؟

_ عندك ذوق رائع يا شريف.

_ عندك ذوق رائع يا شريف.

_ لا أحد يغلبني في الذوق.
_ يوجد.
_ من؟
_ هي، لأنها اختارتك عشيقاً لها. يعيش!
_ سكرت من كأسين؟
_ سأذهب للتعرف عليها.
_ ستلطمك على وجهك.

نظر سعيد إلى شريف، وأحس ببرودة تسري في ذراعه. كانت ذراعه مبللة من المفرش المبلل.

_ هل أنت مبلل يا شريف؟
_ هذه آخر مرة آخذك فيها للملهى.
_ تضايقت كثيراً. متى ستأتي إليك؟
_ لا تلتفت بهذه الوقاحة.
_ أريد أن أرى أين هي؟

كانت جالسة مع أخريات رافعة رأسها إلى مقصورة.

_ إنها تتكلم مع شيخ.
_ أرجوك لا تلتفت. لن تأتي إذا رأتك تلتفت إليها.
_ راح اطلع.
_ انتظر.
_ ذراعي مبللة. دعهم يعرفون المفرش.
_ لا تلتفت أرجوك.
_ أهذا سجن؟
_ دخلت الملهى مجاناً.
_ دخلناه بعد الحادية عشرة.

لا ترفع صوتك. لا تُدر رأسك. لا تؤشر بيدك. لا تتنفس.

_ اختنقت.

والتفت سعيد بحرية، وبحث بنظره عن الخضراء ولم يجدها.

الخامس

نزل من السرير مغمض العينين تقريباً. وسار خطوتين حافي القدمين إلى موضع "التنكه" وعب الماء منها بظمأ وحرقة حتى أحس بمعدته تنتفخ، وبحلقومه وصدره يترطبان. ولما انبطح على السرير ثانية منفرج الساقين والذراعين فتح عينيه رويداً رويداً، ورأى طرف حائط، والسماء الباهتة الزرقة، وخطأ أسود مشعفاً هو خط حاجبيه. وبدت حواسه تستيقظ. نظر في ساعة يده، ورفع جسمه الثقيل من الفراش، وأدار ساقيه ودلاهما من السرير مستنداً على ذراعيه، منكساً رأسه. ظل هكذا دقائق منتظراً أن تزول حركة الألم في جوفه. كان هذا الأم المقزز ينقل بين معدته وأحشائه وصدره ويصعد حرقة حادة في رقبته. هزّ رأسه اشمئزازاً فتلاطمت الشرايين المتوترة في جمجمته. رفع بصره، وألقاه على السطح الصغير الذي كان يحدق فيه بفضول وغرابة. نهض حانقاً على نظرة السطح اللاودية، ومشى خطوتين وتوقف. واستند على عمود وأغمض عينيه، وحلق مع الدخان الدائر في رأسه دوائر متصاعدة تأخذ بالأنفاس، وعاد إلى الأرض حين فتح عينيه، ورأى نفسه مستنداً على رأس مهد خشبي تأرجح صندوقه قرب رأسه فارغاً. نظر إلى خشبه الرمادي المشقق مقطب الجبين، ودفع الزراع فصرّ المهد، وارتفع الصندوق وهبط، ومضى يتأرجح قافزاً على الشنكالين. سلته حركة المهد بعض الوقت. أنسته التهاب أمعائه. مدته بالقوة ليخطو عدة خطوات أخرى إلى سلة صغيرة مقلوبة فقرفص أمامها ورفعها. رأى زجاجة سوداء صغيرة وصحناً فيه قطعة خيار وطماطم، وزيتونات. تناول إحداها، ونظر إلى الزجاجة مغاظاً. خاطب نفسه: "لا داعي اليوم!" غداً سيذهب إلى الشغل، واليوم سيريح جسمه. اليوم آخر يوم في إجازته. تناول

زيتونة أخرى مسحت مرارة حلقه، وغلفته بطعم حـي. تـرك السلة تهبط على الأرض. ولكن الزجاجة بقيت أمام عينيه سوداء رشيقة لو مسها لوجدها باردة من نسيم الليل. اليوم استراحة! "لا، لا داعي للخمرة اليوم. البارحة اشترى الزجاجة للاحتياط وبحكم العادة. تعود أن يشتري "ربعية" منذ أن سافرت زوجته إلى كربلاء، يقصد منذ أن طلقها، ولأنه في إجازة. ثم ليس من الرذيلة أن يشتريها، ولكن الفضيلة أن يشتريها ولا يشربها. وحتى إذا ألحت عليه، ولجت لجاجتها المزعجة اكتفى بجرعة واحدة، جرعة واحدة فقط. لأن النفس كالطفل إذا اشتهى حلوى ولم تعطه ظل يبكي طوال النهار، وقلب يومك إلى جحيم. أما الآن فلا حاجة إلى ذلك. لا" لا حاجة إلى ذلك. سيصبح مدمناً – إذا استمر في شرب الخمرة صباحاً. ولو كان هذا الصباح له، وصباح الغد للناس. تلمظ وبلع ريقه. ما زال طعم الزيتون في فمه، الزيتون الناعم الذي يدهن البلعوم. اشتهاه وعاد إلى السلة وفتحها متخوفاً أول الأمر. مدّ يده إلى الزيتون متحاشياً النظر إلى الزجاجة، ثم قال لنفسه: ليست هذه شجاعة. حملق بها ليغيظها. "لو تموتين يا زجاجة ما أمسك اليوم!" وأخرج لسانه لها. وضحك بلا روح. أطبق السلة. كانت الزجاجة ذليلة أمام عينيه. توشك أن تبكي. ستصرخ وراءه. حتى جرعة الترضية لم يأخذها منها. توقف عند أول الدرج مفكراً. ثم عزم على أن يحلق أولاً. نزل بضع درجات قائلاً لنفسه: يجب أن يحلق أولاً، وبعد ذلك سيقرر فيما إذا سيأخذ جرعة الترضية أم لا. سيحلق أولاً رغم ارتجاف أصابعه وهي تمسك بآلة الحلاقة. رفع يده ونظر إلى أصابعه المرتجفة. كانت تتحرك كالديدان. شت! أوقف حركتها. وخاطبها بحدة: هذا لا يجوز! سأعلمك اليوم كيف تحلقين أيتها الأصابع الملعونة دون قطرة واحدة من الخمرة. سأجعلك تشدين على الموسى بقوة، سأرغمك. وكز على

أسنانه. ونزل الدرج، ودخل الغرفة، وتناول عدة الحلاقة. عملية طويلة مضجرة. ولكنه سيمارسها. يخرط، ويسمع صوت الموسى في أذنه. عملية "لا تجرع". ولكنه سيجرعها بالتأكيد. يستطيع أن يجرعها دون "جرعة" ويستطيع أن يجرعها بجرعة للتسهيل ودهن "الزردوم". وتضايق لأن هذا الخيار موجود أيضاً. جرعة لدهن الزردوم. فكر فيه متعذباً، واتخذه آخر الأمر لأنه لم يرد أن يتعذب أكثر. ألقى عدة الحلاقة، وصعد السطح، وتناول القدح من جانب "التنكه" الفخارية، وصبّ ماء وذهب إلى الزجاجية "حتى لا تزعل" وسكب منها، وشرب بسرعة، وتناول زيتونتين. وأعاد القدح إلى جانبه "التنكه". ادفأت الخمرة معدته في الحال. الآن سيحلق بيد من حديد. نزل من السطح، وتناول عدة الحلاقة، وملأ الطاسة بالماء ووضعها في "رازونه" وعلق المرآة الصغيرة على مسمار. وشرع يصوبن. أزالت الخمرة تنافر الأحاسيس في نفسه، وألانت أعصابه، وشعر بصفاء وارتياح رقيق، رقة لذيذة باهتة معرضة للتلاشي والزوال. أوقف الفرشاة على ذقنه. وأنصت لهمس الخمرة الخافت العذب. سيزول في اللحظة التالية. وقلق حميد، وقرر أن يمد في أجله. صعد الدرج ثانية. تناول القدح من جانب "التنكه" وصب شيئاً من الماء، ورفع السلة، وصبّ مقداراً أكثر مما شربه في المرة الأولى مخافة أن يتلاشى التأثير المهدئ سريعاً، ويضطر إلى الصعود إلى السطح ثانية. شرب ووضع القدح إلى جانب الزجاجة، وتناول خيارة، وأطبق السلة مرتاحاً ومنتشياً. تطايرت رغوة الصابون من على وجهه كالريش الناعم حين كان ينزل الدرج مسرعاً. صوبن من جديد، وخرط خده الأيسر، ومط بوزه، وخرط ذقنه. والخمرة تعملِ في نفسه منفصلة عما يمارس. يحس بمسارها المنوّم في أعصابه، بحريتها العجيبة في التطواف والتصرف. استعذبها وأراد أن يشجعها أكثر. خرط خده

الأيمن، وألقى عدة الحلاقة في الطاسة، وصعد الدرج بقفزات حتى ارتجت الخمرة في رأسه. وصب ماء، ثم جرع كأسه واقفاً، وألقى القدح بقوة على عنق "التنكه" وقال لنفسه: "راح اسكر.." ونزل ليكمل الحلاقة. كانت الموسى كالمنشار تخدش خده. طلعت نجمة حمراء من الدم في ذقنه. يبدو أن الخمرة استفحلت في حريتها. كانت تشترك معه في الحلاقة. وتحاول أن تدير يده إلى الجهة التي لا يديرها. جرحته في موضع آخر. ولذعه الجرح. توترت أعصابه. تلمس المواضع الخشنة من وجهه ومرر عليها الموسى بيسر ودون ضغط. وقال لنفسه: "لا حاجة إلى تنعيم ولمن أنعم وجهي؟" ذهب إلى الحنفية وترك الماء ينزل على وجهه مزيلاً اللذعات. تجفف وزفر وصعد إلى السطح. رفع السلة بجرأة متنحر وتناول الزجاجة، وصحن المزة، وذهب إلى فراشه. وبدأ يزاول ما يزاوله كل يوم.

طوى المخدة الطويلة طية، وأسندها على حاجز السرير، واتكأ عليها ممدداً ساقيه، ماسكاً قدح الخمرة في يديه، ونظر إلى الحائط المقابل له، المحبب بكتل شوهاء من الجص، المقلّم بخطوط سوداء. ومن على يمينه سمع وشوشة أصوات غامضة بدت له آتية من قعر بئر. هؤلاء جيرانه الذين لا يعرفهم. جرع جرعة من كأسه. كانت الخمرة قوية. نهض ليخففها بالماء. ورأى "التنكه" فارغة. اضطر إلى النزول ليملأها. ولما عاد واستقر في مكانه السابق سمع بوضوح صوت امرأة شابة حاد النبرات غاضباً آتياً من نفس البيت على يمينه. تبعه صوت عجوز. وظل الصوتان يتهاوشان يحاول أحدهما أن يعلو على الآخر. انصت حميد ليلتقط بعض كلماتهما. كان صوت المرأة حاداً جارحاً للأذن، وصوت العجوز أجوف كأنه خارج من أنبوبة. وقال حميد لنفسه "أغلب الظن أنه عراك بين زوجة وحماتها، نفس المشاجرة الأزلية. وعندما سيأتي الزوج ستبكي كل

واحدة له على انفراد، وتقول "أنا المظلومة" وجرع حميد كأسه. في الماضي، في فجر حياته الزوجية. متى كان لحياته الزوجية فجر؟ عندما كان طالباً في الصف الرابع الثانوي كانت أمه تتشاجر مع حليمة أحياناً، وفي غياب أبيه طبعاً، لأن الوالد كان يشفق على "اليتيمة" ويتكفل بحفظ التوازن العائلي. وكانت حليمة لا تتفوه بشيء مخافة أن تثير غضب الأم التي تعاشرها من الصباح حتى الليل. وفي الحالات النادرة التي تشكو فيها كانت تكتفي بأن تقول بصوت خفيض مسكين: "يجوز. أنا غلطانة. بس شغل البيت علي كله. تاركه ولادي يلعبون بالسيان. ومن الصبح للمغرب اشتغل، واختك بالمدرسة، وانت مشغول بدروسك". ولم يكن حميد يهتم بأمر من أمور البيت أو بشأن من شؤون العائلة. ظل ذلك الطالب المنصرف إلى دروسه لا يشغله عنها من شؤون البيت شاغل. أبوه الذي خاف من الفسق وغواية الشيطان، وأبوه الذي يقوم بأعباء البيت، ويطعم الزوجة ويكسوها. ولحميد "الحاضر المحضر" حتى أحس باستقلالية تامة. ولهذا السبب كتم زواجه عن أقرب أصدقائه. كان زواجه عملية لم يشترك في التحضير لها، ولم يتعهد تبعاتها، ولم يخسر شيئاً فيها. بل كان يحس وهو طالب في المدرسة بأن له ما يفضل زملاءه به، وان له عالمه الخاص المخفى عنهم، ولذاته الصامتة الحلال. فلا يعاني ما يعانون، ولا يمارس ما يمارسه بعضهم. ثم توفى الأب وتغيرت الحال.

الشيء الفاجع في وفاة الأب هو أن حميداً أحس، لأول مرة في حياته، بأن له زوجاً وأولاداً وبيتاً. أشعرته بذلك أمه وأخته أكثر مما أشعرته زوجته وأولاده. كانت حليمة تتحمل بصمت كلمات أمه اللاذعة، ولا تشكو إلا نادراً. وكانت الأم كثيرة الشكوى انقلبت مولعة بالخصام، حريصة على راحة ابنتها أكثر من اللازم. دفعته إلى بيع البيت الكبير

في القاطر خانة، وشراء هذا البيت الصغير، وعاش حياته المستقلة.

جرع حميد بقية كأسه. وأنصت إلى ما يجري في بيت الجيران. كفت الحماة والكنة عن المشاجرة، وارتفع صوت حنفية مفتوحة إلى آخرها. تابع حميد شوشرة الماء، وانتظر أن تكف. أغلب الظن أن دلواً يملأ. حياة منزلية في عنفوانها. لم يذكر أنه قعد هذا القعود في البيت، أو سمع أصوات الحياة المنزلية. كانت البيت مأواه الليلي فقط. ولم يشعر بالجيران. لم تحدثه حليمة عنهم. لم تحدثه عن أي شيء. علمها الصمت منذ أن كان طالباً حتى لا تشغله عن دروسه بكلامها البارد. كانت تكتفي بالكلمات القليلة. كان لها بيتها وأولادها ومشاغلها. وكانت له حياته ومسراته ومشاغله، ولم يحدث قط أن اعترضت عليه طريق حياته.

مسح حميد العرق المتصبب في رقبته. كانت الشمس تلون قدميه وتلسعهما. سحبهما واعتدل عن الفراش، ونظر إلى زجاجته. بقي في قعرها شيء قليل، وهو ما يزال مشوقاً إلى الخمرة. أفرغ بقية الزجاجة في القدح، وصب الماء وجرع الكأس حتى آخر قطرة ونهض. كانت الشمس تملأ نصف السطح. وهي والخمرة تفخران جسمه. شرب الخمرة على معدة فارغة. عصرت معدته حين شم رائحة لحم محموس يتصاعد من بيت الجيران. وليس في البيت شيء يؤكل. ماذا قالت حليمة حين قرأوا عليها "الخط المسخّم"؟ بكت؟ أم فرحت لأنها كانت تريد الطلاق؟ لم تقل ذلك بلسانها. ولكنها تعلمت الولولة وذرف الدموع. طوى حميد فراشه ثلاث طيات، وكومه على رأس السرير، وسحب حصيرة الخوص عليه. وحمل الزجاجة الفارغة والتنكة. وعبأ آخر قطعة طماطم في فمه. ونزل هارباً من رائحة الحميس القوية وشيش اللحم. لم يكن يفطر في البيت من قبل. لم يكن يحس بالجوع لأنه لم يكن

يشرب الخمرة في الصباح وبهذه الحرية التي تعود عليها في شهر إجازته. وضع التنكة قرب الحنفية، والزجاجة مع الزجاجات الفارغة وراء الدولاب. وأجال بصره في البيت العفن الميت وأحس بالضيق والنقمة لأنه سكر من حيث لا يدري، ولأنه جائع تعوي معدته عليه، ولأنه ليس في البيت طعام، ليس فيه أي شيء. فكيف كانت تقول انه مسكون. فتح باب الغرفة وهتف متحدياً "من أكو هنا؟" صدمته بعفونتها. كانت مثل وقب عين مقلوعة. "اطلع يا جني، وين خاتل؟" وضحك حميد ماسكاً بطنه حتى لا تتحرك أحشاؤه وتؤلمه. "وأنتم يا أرواح الميتين أين أنتم؟ حليمة كانت تخاف منكم. اطلعوا لي. حليمة غير موجودة، وأنا لا أخاف. اطلعوا". وصمت، وخيل إليه أن صوتاً آخر يعيد كلماته. أوهام الخمرة على معدة خاوية كما كان يقول سعيد الحقير. كيف سمحت له بالتدخل في بيتي؟ لماذا لم أصفعه؟ لم يرد أن يثير ضجة آنذاك. كانت علاقته مع سلمى تقوى وتبشر بأمل. ولم يعرف أن القدر سيعاكسه، وينكشف السر الذي أخفاه عشر سنين. والمسؤولية في هذا أيضاً تقع على سعيد. هو الذي نبس، وهو الذي نشر الثياب الوسخة. سألقنه درساً، سأنغص عليه حياته جزاء وفاقاً. الحقير يعتبر نفسه فاعل خير. فاعل شر. مخرب بيوت. وشرع حميد يرتدي ملابسه. نظر إلى قميصه القذر باشمئزاز قبل أن يرتديه. قال لنفسه: سأذهب إلى سعيد في الجريدة اليوم، سأتلفن له. وسأكلمه في بادئ الأمر بلين، لأعرف من لقنه فكرة الطلاق. ستار أم غيره. وإذا امتنع عن القول أهانه إهانة لن ينساها طوال حياته. وسيذهب إلى ستار مرة أخرى. سيكون صريحاً معه هذه المرة.

الرابع

لا أحد في الجانب الآخر من الستارة، يوم من تلك الأيام النادرة التي يخلو فيها الجانب الآخر من الفأفأة ومستطار اللعاب وأحلام الوقف الذري. شعر عبد الخالق بحرية نسبية. خلع ملابسه، وبقي بالفانيلة واللباس، وأراد أن يبدأ بقصة كانت تدور برأسه منذ زمن. إلا أن حرّ آب كان كالحجام يمص العرق من كل مسامات الجسم، والمروحة الكهربائية معطلة منذ أسبوعين. فاستعاض عن الكتابة بالقراءة. تابع مطالعته "للأرواح الميتة" وتنقل مع تشيتشيكوف في بحثه عن الأرواح الميتة من كوروبوتشكا الشاكية المختوفة، إلى نوزدريوف الكريه اللجوج، إلى سوباكيفيتش المعاكس، إلى بليوشكين البخيل الذي يموت اقنانه كالذباب. وفجأة ضرب عبد الخالق صفحة الكتاب بظاهر أصابعه وهتف: "هذا يمكن أن يحدث في العراق أيضاً! يمكن أن يظهر تشيتشيكوف عراقي في القرن العشرين! أرض العراق الآن صالحة لألف تشيتشيكوف.."

أطبق الكتاب وقفز على السرير، وتمشى في الغرفة: "كم سيجمع تشيتشيكوف العراقي لو قدر له أن يسافر الآن إلى الريف؟ آلاف الأموات بالتأكيد، جيشاً جراراً من الأرواح الميتة، وربما بلا مقابل". وابتسم مع نفسه: "هذا مشروع ممتاز لرجل مغامر، وصاحب فكرة في بلد تخيم عليه الكآبة، في بلد أحسنت الظن في أهله كثيراً. حسبتهم سيتحركون. تهزهم النكبة، وإذا بهم يتلقون الضربة تلو الأخرى صامتين لا يتململون". ولم يستطع عبد الخالق مواصلة القراءة. القراءة عنده عملية توليد أفكار. وقد امتلأ رأسه بهذه الأفكار حتى ضاق بـ "زائدته الدودية". لبس ملابسه وخرج.

في الشارع كان النهار يسلم مفاتيحه الذهبية إلى المساء. انقضت ثلاث ساعات دون أن يدري. وهو الآن بحاجة إلى من يحدثه. كانت المقهى السويسرية مكتظة بالناس، ورائحة القهوة ممزوجة بالعرق وروائح أخرى. وفي بلقيس رأى حميداً سكران. يضحك بسفاهة مع النادل. لم يعجبه أن يتحدث معه لشدة سكره. سأله عن سعيد فأجاب: بالمرحاض.

أوشك عبد الخالق أن يصدق حين أردف حميد قائلاً:

_ سعيد لا يدخل بلقيس الآن. إذا دخل كسرت نظارته ورجليه.

امتعض عبد الخالق وقال:

_ الساعة السابعة وأنت سكران؟ سيطردونك من وظيفتك.

وسمع عبد الخالق ضحكة وراءه حين أدار له ظهره، وغادر المقهى محتدم الغيظ. قال لنفسه: "طبعاً لا يفصلونه. لم يقصده نوري السعيد في بيانه عن تطهير جهاز الدولة. ليس من النفر الضال!" وتوقف بعد مقهى ياسين متردداً. ثم سار باتجاه "غادرينيا". كان ممتعضاً وكأنه تنفس نتانة. كيف يجوز لإنسان أن يهين نفسه هذه الإهانة؟ لم يكن يعوز حميداً غير أن يشد مئزراً حول خصره، وينقل زجاجات البيرة والمزة للآخرين. رائحة مقززة، وهيئة زرية، وكلام بذيء. لماذا يكره سعيداً هذا الكره وبهذه السرعة؟ أوه، إذا كره الإنسان نفسه استطاع أن يكره العالم كله بلا سبب معقول. تفو! حث خطاه حتى وصل إلى مكان مظلم يطل على النهر. توقف يملأ صدره بهواء الليل البليل مطهراً نفسه من شعور بالتلوث. على النهر أسماك ضوئية تلبط. والنهر نفسه اصطبغ بصبغة الليل ولم يعد نهراً إلا بأنفاسه. أخرج عبد الخالق علبة "غريفن – أ" ودخن. وقال لنفسه: "من يدري؟ فقد لا أدخن مثل هذه السكائر بعد شهر، لا

يكون لي ثمن أية علبة سيكارة حقيرة! ستخرج قوائم الفصل قريباً، واسمي فيها حتماً. هدّام. من النفر الضال. هذا هو العراق أبو العجائب والنكبات، مرة يتلألأ وجهه بالأمل، ومرة يتحجر". واستنشق عبد الخالق الدخان القوي الذي تحسه كل شعيرات الصدر فتضطرب قليلاً، ثم تتخدر مستلقية على قصباتها. وسار ببطء نحو غاردينيا. ولما وصلها كان التبغ الحاد قد خلف مرارته النيكوتينية في حلقه وجففه. اشتهى أن يشرب بيرة مثلجة، ويقرقش الجبس. إلا أن وجه حميد العرق المتوتر بعينيه الذابلتين المتقلصتين، وفمه المعوج، وحنكه المهتز قفز إلى ذهنه، ونفره. وكان يعتبر الإدمان على الخمرة نوعاً من الإيذاء المتعمد للنفس، تكفيراً عن خطيئة خفيفة. فكان يمتنع عن شرب الخمرة أياماً ليثبت نقاء نفسه، وانه لا يتعمد الهروب من اثم. جرّ نفسه مبتعداً عن "غاردينيا" شاعراً في كل خطوة يخطوها بأنه يتبرأ من الاثم. ودخل "الشاطئ الذهبي" فرحاً. عبر بسرعة هالتين من "البرغش" كانتا تدوران حول مصباحين عند الباب، وقبل أن ينفض آخر برغشة من عليائه سمع وراءه صوت شريف الصدري المتورم. التفت، ولم يره. بل لمعت أمام عينيه نظارة. ولما دنا رأى صاحب النظارة وشريفاً يدير له رأسه.

_ مساء الخير، لماذا جالسان تحت البرغش؟

رد سعيد التحية؟ وأدار شريف جسمه الثقيل وقال:

_ حباً للدغدغة. اسحب كرسياً وتدغدغ معنا.

_ لا. أنا أكره البرغش مثلما أكره الذباب. تعالا نجلس في مكان آخر. هناك طاولة فارغة.

نهض سعيد، وقال وكأنه يعتذر:

_ كنا نقرأ جرائد المساء.

وبقي شريف قائلاً:

_ بالموت ظفرت بكرسي تتحمل جسمي قماشته السليمة، فأين تأخذني؟
_ احمل الكرسي معك. أريد أن أحدثكما عن مشروع.
ساروا إلى طاولة في زاوية مظلمة، وقال عبد الخالق:
_ هنا آمن من الجواسيس.
_ بالعكس – قال شريف بصوته الغليظ كرقبته – لابد من وجود جاسوس يتربص وراء الشجرة.
_ اسكت ودعني أحدثكما عما قرأت اليوم.
_ اليوم قرأنا جرائد المساء. حزب الجبهة تبرع بحل نفسه تيمناً بنوري السعيد.
_ لا أقصد ذلك – ثم التفت إلى سعيد – هل قرأت "الأرواح الميتة" أم لعلك لم تسمع بها؟
_ سمعت بها. وسأقرأها حتماً عندما اتقوى باللغة الإنكليزية.
_ اقرأها. هذا كاتب روسي يكتب عن الوضع في العراق.
جأر شريف.
_ بدأ الروس يتدخلون في شؤوننا.
_ هذه الرواية لغوغول، يا جاهل. مات قبل أكثر من مائة عام.
_ أها، لغوغول. لماذا لم تقل ذلك منذ البداية؟
_ أحسنت بك الظن.
_ أنا عليم بالشعر أكثر.
_ اسمع ولا تتبجح. تشيتشيكوف من أهل بطرسبورغ يسافر إلى بلدة روسية نائية، وهناك يتعرف على اقطاعيين، ويقنعهم بأن يبيعون اقنانهم الميتين.
سأل سعيد باندهاش:
_ يبيعونه جثثهم؟
_ لا، اسماءهم.

_ ألا يضحكون عليه؟ - وضحك شريف نفسه.
_ بل يندهشون قليلاً. الفكرة أعمق وأذكى. الاقنان الذين يموتون بين احصائين هم أحياء بالنسبة للحكومة تأخذ عنهم الضرائب من مالكيهم. وتشيتشيكوف يشتري هؤلاء الأموات بالذات.
_ ويبيعونه؟
_ بالطبع. تخلصاً من دفع الضرائب لعدة سنوات. بعضهم يبيعها بأي ثمن، والبعض الآخر يعاكس عليها، ما دام يجد راغباً في شرائها، فلا بد من أنها ذات فائدة ما. فيعدد مناقب اقنانه الميتين وكأنهم أحياء يرزقون؟
_ راح اتخبل – قال شريف هازاً رأسه – وكيف يسمحون له بشراء الأموات؟
_ لا أحد يعرف بأنهم أموات غير المشتري والبائع الذي يريد أن يتخلص من الضرائب. أما مسجلو العقود فيجدون أمامهم حالات بيع طبيعية مسموح بها قانونياً في ذلك العهد. وهكذا يجمع تشيتشيكوف أسماء أربعمائة قن قيمتهم أكثر من 100 ألف روبل، بينما اشتراهم هو بحوالي 300 روبل.
_ طيب، اشتراهم، ما الفائدة منهم؟
_ يزعم أنه يريد إسكانهم في مكان آخر. وكان تشيتشيكوف قد عرف أن في مقاطعة من المقاطعات توزع الأراضي مجاناً لمن عنده أقنان. وبوسعه أن ينال أرضاً لتوطين اقنانه المزعومين. وفي نفس الوقت يرهن هؤلاء الاقنان عند الحكومة بأضعاف الثمن الذي اشتراهم به.
سكت عبد الخالق ليرى تأثير الفكرة على صاحبيه. كان شريف يردد "عجيب، عجيب!" بينما فتح سعيد فمه وجمد وجهه. وقال عبد الخالق:
_ والآن اطرح هذا السؤال: هل يمكن أن تنجح فكرة تشيتشيكوف في العراق؟ ألا يستطيع تشيتشيكوف

العراقـي أن يجمـع ألفـين وثلاثـة آلاف ميـت، ويطلـب مـن الحكومة بأن تعطيـه باللزمـة قطعـة أرض بالعمـارة، لإسـكان فلاحيه؟

سكت الاثنان.

_ قولا، ألا تنجح؟

قال شريف:

_ ربما تنجح إذا كنت من حاشية الاقطاعيين.

_ وإذا جاء رجل من العاصمة؟

_ عندئذ يتوقف الأمر على ذكائه.

_ لا أطلـب مـن الاقطـاعي شـيئاً باهظـاً... مجـرد أن يتبرع لي بمن مات من فلاحيه.

_ الإقطـاعي إذا أدار رأسـه يتبـرع بكـل شـيء – قـال شريف بلهجة عليم – تعال إلى الملهى وستراه بماذا يتبرع للراقصات.

صاح عبد الخالق:

_ حقير، لست راقصة.

_ لا أقصـد ذلـك، ولكـن أريـد أن أؤكـد إمكانيـة تحقيـق الفكرة. يمكن أن يقول لك بكل سهولة "أهبك كل من يمـوت من فلاحي من الآن فصاعداً".

_ هذا لا ينفع. أريد أن يهبهم لي وكأنهم أحياء.

_ اتفق مـع مسـجل المـوتى أيضـاً. أو حتـى لا حاجـة إليه. فإن الموت في الريف لا يحتـاج إلـى شـهادة دفـن فـي أحيان كثيرة.

دقيقة صمت، التفت عبد الخالق بعدها إلى سعيد:

_ لماذا أنت ساكت يا سعيد، ما رأيك؟

قال سعيد جملته المعهودة "لا أعرف" ثم أضاف:

_ ولكنني الآن أتأمـل الفكـرة ذاتهـا. أي نقـد لاذع فـي مجرد الاعتقاد بأن العـراق الآن، وهـو فـي القـرن العشـرين، يشـبه روسـيا قبـل مائـة عـام، روسـيا التـي كانـت آنـذاك

متخلفة عن القرن التاسع عشـر، وان فـي الامكـان تحقيـق فكرة الأرواح الميتة.
_ تلك هي الفكرة – قال عبد الخالق بحمـاس – انظـر إلــى العــراق كيــف تــدهور؟ لــم تهــزه حركتــان جبارتــان، واستسلم خائراً إلى نوري السعيد.
_ أنا سأنهض. يا أخي. أنت تريد أن تدخلني السجن؟ - قال شريف مرتعباً.
_ وهل تحسب نفسك طليقاً الآن؟
وتابع سعيد أفكاره:
_ ثم أتصور لو خرج أديب عراقي إلى الريف في مهمة مشابهة كهذه، فأي شيء سيرى! لـو خرجـت أنـت بالـذات كقصاص. إذا لم تأت بأرواح ميتة، فستأتي بأفكار حيد.
_ تضايق شريف وقال:
_ عــاد ســعيد إلــى رومانتيكيتــه. لمــاذا يــذهب إلــى الريف؟ يستطيع تحقيق الفكرة هنا.
_ لا يهمني تحقيق الفكرة، ولكن يهمني مدلولها.
قال عبد الخالق متشجعاً:
_ إذا خرجت قوائم المفصولين غداً. سأقوم بالرحلة.
_ إلى أين؟ - صاح شريف.
_ إلى الجنوب.
_ ستعود أنت ميتاً.
_ ولكنني سأموت من الجوع.
_ أنتم لم تخرجوا من بغداد وتتصورون العراق كله مثل بغداد. أين ستسكن؟
_ في فندق.
_ في مسافرخانه مملوءة قملاً.
_ وليكن.
_ وسيعتبرونك قادماً لتحريض الفلاحين.
_ سأتصل بالشيوخ والسراكيل لا بالفلاحين.

قال سعيد:
_ لو فعلتها لكنت بطلاً. ومع ذلك فلست أول أديب يترك مباهج العاصمة، ويذهب للقاء الموت. ألم يذهب تشيخوف إلى سخالين جزيرة المجرمين عبر سيبيريا الفقيرة القاسية حتى تعرض للهلاك والغرق؟ ألم يذهب جاك لندن إلى الاسكا؟
_ وصاحبك غوركي؟ - قال عبد الخالق – ألم يجب روسيا كلها على قدميه؟
_ هذا صحيح.
_ تعال معي إذن. أتذهب؟
_ ربما. عندي فكرة تراودني هذه الأيام كثيراً.
_ أنتما مجنونان.
قال سعيد دون أن يعير التفاتاً لشريف:
_ يعجبني أن أذهب إلى الريف وأدرس "النخيل" عن كثب.
_ بدأ سعيد يهذي بمشاريعه الفطيرة.
_ نحن لا نعرف عن النخلة شيئاً كثيراً رغم أننا نعيش في بستانها العراق. أتعرف، يا عبد الخالق، إن النخلة هي أقرب النباتات إلينا؟ لا أعرف بالضبط، ولكنها ربما هي النبات الوحيد الذي يلقح كالإنسان فيلد عثاكيل تمر. إنها سمراء بلون الأرض العراقية. وهي كالإنسان قصيرة حيناً، وطويلتها حيناً آخر. مستقيمة ومائلة الجذع. متينة ونحيلة. مهدلة الشعر، أقصد السعف، ومصفوفته. ثم انظر إلى تشبثها بالحياة. تمد جذورها عميقاً في الأرض، وهي أول مظهر للحياة بالنسبة لقاطع الصحراء. كم من حكايات واغان وأساطير وأمثال قيلت فيها ويحفظها شيوخنا وسكان الريف. أتمنى لو أذهب إلى الريف وأدرس النخيل العراقي.
_ لنذهب سوية. هل نتفق؟
_ أنا جالس بين مجنونين.

_ لنتفق.
_ اتفقتما على الانتحار.
_ اسكت يا دودة المدينة الغريبة.

الأول

رفع سعيد صورة الأشعة باتجاه الضوء، ورأى بوضوح فقرات العمود الفقري مصفوفة واحدة فوق الأخرى مثل أحجار صغيرة. أمعن النظر في الفقرة الرابعة، وحاول أن يهتدي إلى التخريب الذي أحدثه سل العظام، ولكن دون جدوى. كانت الفقرات تبدو متشابهة وغير صافية، وذات زوائد من الجانبين، وأعاد قراءة التقرير الصغير المكتوب باللغة الإنكليزية: "سل العظام ظاهر في الفقرة الرابعة". وسرت رجفة في ظهره، وقال لأمه ملتاعاً:

_ إذاً فهذا الذي كنا نظنه عرق النسا.

صفقت الأم يداً بيد، وقالت:

_ كل شيء أعرف الا السل يصير بالعظم. أبوك لا يصدق.

_ ولماذا يكذب الأطباء؟

_ يقول: ما يفتهمون. أنا مثل المسناية. بس لو يروح هذا الوجع تحت كتفي وفي فخذي. لما يخش للحمام كل ألم يزول عنه. ولما يطلع ويشم الهواء يرجع عليه.

هزّ سعيد رأسه نكداً عارفاً ما تحمل هذه الكلمات من جهل وتهوين للمصيبة، وقدرة عجيبة على المقاومة والمصارعة، وإيمان بأشياء وهمية من الصعب أو ربما من المستحيل تبديدها من الأذهان، لأنها قوت هذه المقاومة وزيتها المحترق دفئاً وضوءاً. ولكنه، وهو المتعلم، وعى المصيبة كاملة، وقدر حقائق العلم إلى حد التفجع وإغفال الأمل. سألها:

_ بماذا؟

نصحوه بأن ينام بالمستشفى، ويجبسوا له ظهره.

قال سعيد بقطيعة:

_ لازم يروح.

_ لازم ينام ستة أشهر على الأقل.
_ وليكن.
_ ويقنع أبوك؟ يعوف الشغل؟ اليوم طلع من الصبح أكثر من كل وقت. وقال: الأطباء ما يفتهمون. الوجع اليوم خف، خل يشترون بعقلهم بصل.
صك سعيد على أسنانه أمام هذا العناد، وألقى صورة الأشعة من يده، وقال بلهجة آمرة لا يستخدمها إلا مع أمه:
_ لازم يروح، وإلا فسينهار فجأة. أيهما أحسن أن يظل ستة أشهر في المستشفى أم يبقى طول حياته عليلاً حتى يأتي يوم ينطبق فيه صدره على بطنه؟
_ والعيشة؟
_ تتدبر. سأضغط على نفسي لأعوض عن أبي.
_ وأخوك مختار يقول مثلك، ولكن من يقنع أباك؟
نعم، من يقنعه؟ سعيد الذي لم يتبادل مع أبيه إلا كلمات قليلة يخشى أن تطول فتتحول إلى موضع الألم في نفس أبيه. أم مختار الذي ترك المدرسة قبل أن يشب عن الطوق، واشتغل في مهنة، أم أمه التي تردد أقوال أبيه مثل اسطوانة على إبرة مثلومة، أم أخواته القاصرات؟ نعم. من؟
وفكر سعيد، وفجأة طرأت على ذهنه فكرة: _ سيرسلون عليه ويجبرونه على دخول المستشفى، لأن مرضه معد – ولم يكن موقناً من ذلك، إلا أنه وجد باباً ينفذ منه إلى قلبها – ألا يشفق على أولاده من العدوى؟ أولاده الذين رباهم يؤذيهم في شيخوخته ليكونوا بعده عليلين. قولي لي ذلك.
_ أخاف.
_ لمحي تلميحاً. قولي له أن سعيداً عرف أنه إذا امتنع عن الذهاب فيرسلون له المختار مع شرطي ليأخذه

إلى المستشفى. أليس من العار أن يقف المختر على بابنا؟

ندت من أمه "ويه" فرفع إليها بصره. ورأى على وجهها المتوتر ذعراً واستحياء. فعرف انها قد تتجرأ وتقول له. حمل كتاب "تورتيلا فلات" والقاموس العصري الموضوعين على ركبتيه، ونهض من جلسته على الدرجة الأخيرة من سلم السطح، ودخل غرفته ليرتدي ملابسه. وعندما خرج رأى الدموع في عيني أمه. مسحتها وحاولت عبثاً أن يكون صوتها خالياً من بحة العبرة المسكوبة:

_ تأكل؟ الأكل حاضر.

تفرس فيها مشفقاً عليها. إنها تتحمل دائماً أكبر قسط من أوجاع العائلة، وتتلقى اللعنات من كل جانب. وهو، الذي يضمر لها محبة لا توصف، يقسو عليها لرغبة غامضة في نفسه، كأنه يتصور أنها ببكائها تبكي له ولنفسها، فيسلم من مذلة سكب الدموع.

_ صبي لي شاياً – وقطع كسرة رغيف الخبز، وأجبر نفسه على أكلها إرضاء لها، ولكن اللعاب جف في فمه فظل يلوكها وقتاً طويلاً، ثم بلعها.

في الطريق إلى الجريدة فكر في الذهاب إلى الدكتور رؤوف ليستثيره في قضية أبيه. غير أنه تذكر أن ابراهيم أوصاه يوم أمس بالمجيء إلى الجريدة مبكراً، لأنه وفق في شراء بعض الأثاث، ويريد نقله إلى البيت. فأجّل سعيد الذهاب إلى ما بعد الظهر.

نزل درجات سرداب التحرير المظلم، وأضاء المصباح، ووجد المكاتب وجهازي الراديو القديم والحديث في انتظاره. رأى جرائد الصباح موضوعة على مكتب ابراهيم. قلبها واحدة واحدة. كانت كلها تفوح برائحة الاستفتاء الشعبي الذي سيقوم به نوري السعيد، كلها تهب بالغيورين بأن يقفوا في وجه الهدامين أصحاب الظهور الكسيرة، والتي

ستكسر بعد حين. ترك سعيد الجرائد مشمئزاً، وجلس على مكتبه، وأخرج ملف العرائض الضخم، وشرع يلخص وكأنه يرسم بسطوره القليلة المختزلة صورة عالم لا سلطان لنوري السعيد عليه، عالم سفلي يدور في فلك المصائب والآلام، ويعيش على الشكوى، ويتنفس زفراته، ويشرق بدموعه، ويحاول أن ينقل إلى العالم العلوي، عالم المشاريع والاستفتاءات، صوته الحقيقي المنبعث من القلب. جعل سعيد يلخص وكأنما يصب في جدول الدموع قطرات الدموع التي رآها في عيني أمه، ودموعه التي لم يجسر على ذرفها اليوم.

جاء ابراهيم تعباً، وقال:

_ تمزق قلبي اليوم حتى نقلت الأثاث.

_ مبروك.

_ أشكرك. ولكن يجب أن تؤجل مباركتك إلى ما بعد تسديدي الأقساط.

_ ومع ذلك فهي خطوة.

_ خطوة نحو التورط أكثر – وزفر ابراهيم.

_ هل أنت متشائم يا ابراهيم؟

_ لا، أبداً، إذا أخذت القضية بكاملها، ولكن الطريق سيطول. وقد نفقد كل شيء دفعة واحدة. نحن نبني لبنة لبنة، وهم يهدمون بنياناً كاملاً. ولكن ما العمل؟ علينا أن نصمد، أن نتحمل.

قال سعيد بعاطفة قوية:

_ ليس هذا بغريب علينا. تحملنا منذ أن فتحنا أعيننا، يعني منذ أن أخذت النفس تريد. هل تذكر الحرب، يا ابراهيم!

_ الحرب الأولى لا أذكرها، فقد وقعت قبل أن أولد.

_ أقصد الثانية.

واختفت البسمة من وجه ابراهيم حين نظر إلى سعيد فأدرك أنه لم يكن هازلاً:

_ نعم، أذكر "اخشوشنوا فان الترف يزيل النعم" وقد اخشوشنا مضطرين لأن الحرب قد وقعت، وجاءنا غرباء يشاركوننا طعامنا.

_ كلنا من ذلك الجيل.

أدار ابراهيم وجهه إلى سعيد تماماً، وسأل مهتماً:

_ وهل أنت آسف لأنك من ذلك الجيل؟

أجاب سعيد على الفور:

_ بالعكس، أنا فخور.

استرسل ابراهيم بالسؤال، وكأنما يريد إحراجه:

_ ولماذا؟

صمت سعيد قليلاً، لا لأنه لم يعرف السبب في فخره، بل لأن أسباباً كثيرة تواردت على ذهنه، ولم يعرف أحسنها ليختاره في المقدمة. ولما رأى عيني ابراهيم الواسعتين تحدقان به قال:

_ لا أعرف بالضبط. ربما لأنه تحمل كثيراً. تحمل مع الشيوخ جوع سنوات الحرب وحرمانها، وحين وضعت الحرب أوزارها كان يأمل في أن يعيش في طمأنينة وسلام وشيء من الكفاية والحرية. وإذا في حرب عليه غير معلنة، يعاني الحرمان ويطارد ويشقى، ولا يحس بالأرض ثابتة تحت قدميه. إنه مهدد دائماً ومغضوب عليه.

_ ليس كل أبناء الجيل في هذه الحال.

_ أنا أقصد الذين اختاروها لهم عقيدة.

_ هؤلاء محاربون في كل الأجيال.

صمت سعيد مخرجاً، ولكنه كان يحس بفوران العاطفة في أعماقه. قال بإصرار:

_ لا أعرف، ولكنني فخور بجيلي على أية حال.

قال ابراهيم:

_ أتعرف لماذا؟ لأنك تحس بأنك تشارك فيه، تتحمل بعض ثقله.

_ يجوز ذلك. ولكن ربما تجربة الحرب أثرت في نفسي كثيراً. مازالت صورها ماثلة أمام خيالي. في أيام الحرب كنت أقف في صف طويل لشراء الصمون. في أيام الحرب تصدقت المدرسة علينا بمترين من القماش ليفصل بدلة، وإذا المتران لا يصلحان إلا لسترة ببنطلون قصير، أو بالعكس.

_ نحن أعطونا مترين ونصفاً.

_ كنتم من المحظوظين. في أيام الحرب بدأت أقرأ قراءة جدية. في تلك الأيام طرحت آراء ومذاهب كثيرة، وكان عليّ أن أختار، والآراء الأولى التي عرفتها في نهاية الحرب وما بعدها ما تزال الآراء الأساسية عندي. كان أمام جيلي مهمة الاختيار. وقد اختار كل امرئ طريقة بغض النظر عن صواب الاختيار أو خطئه. ولكن اختار. وربما لأن الطعام واللباس كانا قليلين، كما تعرف، لم نكن نهتم بهما. اخشوشنا مضطرين كما تقول. واستعضنا عن ذلك بالأمل وتحشية رؤوسنا بالأفكار، الأمل والعقيدة كانا يسدان ما نحسه من نقص في حاجاتنا اليومية لأننا شعرنا بأننا إذا لم نتدرع بهما فستهلكنا كآبة الحرب وقتامها. كنا نأمل بأن نعيش حياة أنظف وأحسن إذا انتهت الحرب. ولكن.

_ لم نعش.

_ ها أنت ترى بعينيك.

هزّ ابراهيم رأسه وقال:

_ أنت تتكلم كلام الشيوخ المتعبين. أنا أشم من كلامك رائحة تعب سابق لأوانه. كم عمرك يا سعيد؟

_ ثمانية وعشرون تقريباً.

_ أصغر مني بشيء ما لا أريد أن أقوله لك بالضبط. ولكنني لا أحس بالتعب مثلك. الناس يتعبون عادة حين يحسون بدنو الموت.

ارتعب سعيد وقال:

_ لا، لست تعبان، ولكن مجرد تسلسل أفكار.

_ أنا أشاركك في أفكار كثيرة. ومفتاح المشاركة هو ما قلته عن الأمل والعقيدة. هاتان كلمتان مرتبطتان في ذهني. إذا فقد الإنسان عقيدته، فقد أمله. والعكس صحيح أيضاً.

_ وهل تظنني فقدت أحدهما؟

_ لم أقل ذلك، ولكنك تعبت كثيراً. ثم أنك سريع الجزع دائم الشكوى.

_ أتعرف لماذا؟ لأنني غير راض عن نفسي، بل ناقم عليها. ماذا قمت من عمل جدي حتى الآن؟ ماذا صنعت لجيلي؟

ضحك ابراهيم ضحكة لا تناسب لهجة سعيد الحزينة، ورفع رأسه إلى فوق، ومدّ ذراعه، وقال مكشراً:

_ أنت ما تزال تعيش هذا الجيل. تعانيه. ربما ستكتب عنه في المستقبل. لا تتعجل الأمور.

_ على العموم أريد أن أمسك برأس الشليلة، أن أبدأ.

_ أنت بدأت، ولكنك لا تشعر. عملية الحياة ليست محسوسة جداً. الإنسان يكسب تجارب دون أن يدري، وعندما يجد لحظة للتفكير والاستقرار يندهش من كثرة ما وعت ذاكرته من تجارب.

_ متى ستأتي لحظة التفكير والاستقرار هذه؟

_ متى؟ في الشهر القادم.

وضحك ابراهيم ثانية. وعاد يقلب الجرائد. أدرك سعيد ما تحمل جملته من سخرية. ولكن الضحكة، والذراع الممتدة حين قال "أنت ما تزال تعيش هذا الجيل" ظلتا

مرتسمتين في خياله طويلاً، وغيرتا مزاجه. وحين حفلت الجريدة بالحركة، وأخذ الناس يتناقشون: "نقاطع أم نخوض" أخذ يتسمع لهم بصبر. يلقي حجة على صواب مقاطعة الانتخابات، وحجة على خوضها، تحدياً لنوري السعيد، واستصغاراً للسجن والتضحيات الأخرى. فالسجن أيضاً تجربة من تجارب جيله، أعمقها
غوراً، والتحقيق والاعتقال تجربة أخرى، والإهانات، وشهادات حسن السلوك، ومحاربة الأفكار، ومنع الكتب، وكلها تجارب ما بعد الحرب. فلماذا يخافها؟

وكان في ذروة حماسه حين دق جرس التلفون. رفع سعيد السماعة. وبعد "هالو" سأل المتكلم من الجانب الآخر:

_ من؟ سعيد؟

عرف سعيد السائل في الحال. أجاب بصوت غير صاف:

_ نعم.

_ أين أنت؟

_ في الجريدة طبعاً.

_ لا، قصدي لا أشوفك في محلاتك السابقة هذه الأيام.

_ مشغول.

_ مشغول لو تتهرب؟

صمت سعيد. كان في الغرفة بعض الزائرين فخشي أن يعرفوا شيئاً من كلامه.

_ ليش قلت لك مشغول.

_ هاه!

لم تكن "هاه" تعجبية بقدر ما هي تهديدية نمت على أن حميداً يريد الاسترسال في حديث لغاية ما. جرى

الحديث بينهما بتقطع وبرود. تقال الجملة لترد على أخرى قيلت.
_ شفت اليوم صاحبك.
_ صاحبي؟ من؟
_ ألا تعرفه؟
_ أصحابي كثيرون. أنت صاحبي أيضاً.
_ لا، لا تجعلني منهم.
وتعثر حميد باللائين. وعرف سعيد أنه غير صاح بالتأكيد.
_ من إذن؟
_ ستار.
شعر سعيد بأن جلدة وجهه تخشوشن، وتقف شعراتها فتخز نهايات أصابعه الممسكة بالسماعة.
_ أي ستار؟
_ ستار البوسطجي. بعدك ما تعرفه؟
_ ما أعرفه.
_ اليوم اعترف لي.
_ بأي شيء اعترف لك؟
_ بكل شيء. لا تنكر. سعيد الضعيف أبو النظارات والأنف العرقان دائماً. كان حميد يستخرج الأوصاف متقطعة لاهثة.
_ لا أعرف.
_ كيف لا تعرف. المسألة واضحة.
صمت سعيد محرجاً. كيف ستنتهي هذه المكالمة التلفونية؟ لابد أن بعض الناس شعروا بارتباكه وتلعثمه. كان لسانه معقوداً. نظف حنجرته.
_ حم حم.
_ المسألة واضحة.
_ لا أعرف. تصور ما تتصور.

قال حميد مغيراً لهجته:
_ أريد أن أشوفك اليوم.
_ والجريدة؟
_ بعد الجريدة، انتظرك.
كانت الجملة لينة فيها نبـرة مـن صـوت حميـد القـديم جعلت سعيداً يقول له:
_ طيب، انتظرني.
_ انتظرك. حبيبك عامر لو فارغ؟
_ لا بأس به.

الثالث

_ حضر غراضك شريف.
_ أين هي غراضي لأحضرها؟
_ على العموم كن علي علم.
_ المسألة معروفة. نغصّم عليّ حياتي.
_ نحن أم نوري السعيد؟
_ أنتم، البشر جميعاً تعادونني لسبب غريب.
ضحك ابراهيم بلا صوت وقال:
_ لو كان الأمر يتعلق بي لأسكنتك الجنان الفسيحة.
قال سعيد بخبث:
_ يعني تريد أن تميته؟ ما يزال في ريعان شبابه رغم كرشه.
قال ابراهيم:
_ ليست الجنان في الآخرة فقط.
_ إذا سكن الجنان فسد. دعه يعيش تجربة جيله.
قال ابراهيم وقد رمق سعيداً بنظرة:
_ سعيد هذه الأيام مولع بجيله.
_ جيل الضياع؟
قال سعيد بحماس مكروه:
_ جيل الاختيار. ألم تختر يا شريف؟
_ واخترت الوقت الضائع.
_ وأنت لحد الآن بلا عنوان ثابت.
_ الموتى أيضاً لهم عناوين ثابتة. فما نفع العنوان الثابت؟ المهم أن تحضر العالم حضوراً وجدانياً وفكرياً، ولو كنت متشرداً.
_ هذه الفلسفة لا تنفعك. يجب أن تبحث لك عن مسكن.
_ لا تخف. لن أنزل في بيتك. ستراني في وظيفة.

_ عندما بدأ الموظفون الأصليون يطردون؟
_ ليس عند الحكومة. بل عندما هو أثبت منها. عند شركة سأصبح مستشاراً فنياً لشؤون الإعلان فيها.
ضحكات بإغاظة فعاجلهما بقوله:
_ سيمر وقت تطلبان مني الفلوس. انتظرا.
وصمت كاتماً حنقه. ثم انفجر قائلاً وقد نفد صبره:
_ هذا شاي لوباجه؟
قال ابراهيم:
_ انتظر، سأدق الجرس ثانية. حتى حسين الفراش غيّر سلوكه معنا.
نهض شريف وقال:
_ لا أريد. أنا ذاهب.
وسلم، وخرج متعثراً بدرجات السلم وقال لنفسه "سيعلمان من أنا عندما أباشر وظيفتي!" وفي الحوش رأى حسيناً قادماً يحمل الشاي، فتناول القدح منه، وشرب واقفاً في شريط الظل عند الحائط. وخرج ناوياً أن يمر على جواد في الشركة ليسأله عما تم من أمر تعيينه. ربما سيجلس إلى مكتب فخم في غرفة مبردة، ويبدع إعلانات تغري الناس بالصابون. وفكر مجرباً قريحته بنماذج من الإعلانات التي سيكتبها: "الصابون مظهر الإنسان الخارجي لا الملابس فاستعملوا صابون الجمال!"، "الصابون معيار الحضارة كما يقول شو، وصابون الجمال رمزها الوضاء" "سيدتي إذا أردت أن لا يخونك زوجك استعملي صابون الجمال" وهكذا دواليك. وعجب من قريحته الفياضة. تبدع في كل مكان. ولكن أين الحظ؟ سوء الحظ ملتصق به كالشعر الموجود على جسده. ولدته أمه موضوعاً في كيس من سوء الحظ. العجوز تطلب لصقات لظهرها. سيرسل لها صندوقاً من صابون الجمال فيزول الألم من ظهرها. يصدق بذلك؟ أجمل الناس تصدق أو لا تصدق أنت

بكذبتك. المهم أن يتركه سوء الحظ قليلاً. إذا نجح في الحصول على وظيفة فسيتسلم راتباً محترماً لأول مرة في حياته. سيؤجر غرفة في جيبه مفتاحها. مفتاح الحظ. هناك أناس مولعون بالمفاتيح. في جيوبهم مفاتيح السيارة والبيت والخزانة وغرفة المكتب، ومفاتيح أخرى. أما هو فسيكون له مفتاح واحد. لا، مفتاحان. وربما ثلاثة. سيفردون له غرفة في الشركة إذا أرادوا منه أن يكتب إعلانات جذابة. وسيستخدم الغرفة لصياغات الإعلانات، وكتابة الشعر، والتفكير بمشاريع أخرى. لن يهدده الحارس محمد بعد الآن. وسيتمتع بحرية. أليس يدفع فلوساً؟ وسيحلُّ له المجيء بعد الثانية عشرة. وناداه صوت أخرجه من أفكاره.

_ هوه، أنت أمامي أيضاً؟

ولكنه في اللحظة الثانية شعر بأنه سعيد في لقائه. سيسأله عن حبيبته في كلية الطب. لم يرها منذ زمان.

_ سيد شريف، نظمت قصيدة جديدة، هل من الممكن أن تنظر فيها؟

_ ما تزال ماسكاً بخناق الشعر؟

_ سيد شريف، ليس هذا بيدي الشعر كياني.

_ لا تقل ذلك. فقد يكون كيانك ركيكاً.

_ هل نجلس في مقهى البلدية لنشرب لبناً بارداً؟

_ تعال، ولكن لمدة قصيرة. عندي موعد هام.

كانت القصيدة ركيكة كما حدس. ولكن لم يقس على مقرزمها.

_ ستأتي يوماً ما بشيء يمكن أن ينسب إلى الشعر. هذه القصيدة أحسن من قصيدتك يوم أكلت المزة.

قهقه الشويعر وقال:

_ أما تزال تذكر؟

_ أذكر كل شيء، أذكر يوم جئت إلى الكلية وتحدثنا عن الجمال. كيف – وغص بالكلمة فبلع ريقه، وتكلم بصوت غريب – كيف حال ذات الخال؟

_ من؟ تلك التي رمتك بنبل من لحظها.

_ نعم، يا صاحب التعابير المستعارة، هل نجحت هذا العالم؟

هزّ الطالب رأسه المستطيل، وقال محركاً اصبعين.

_ نعم نجحت نجاحين.

وكيف كان ذلك؟

جاراه بسرقة تعبير مبتذل. عكف الشويعر اصبعاً وقال:

_ نجحت في الامتحان، هذا أولاً – ثم عكف اصبعه الثانية – ونجحت في التقاط زوج.

_ ماذا تقصد بذلك يا غراب؟

_ شكراً. أقصد أنها تزوجت.

_ ماذا يا بومة؟؟

_ تزوجت، تزوجت.

صاح به شريف محنقاً:

_ اسكت، يا بغل.

ولسعه العرق في مواضع في جسده، وغامت عيناه فرأى وجه الشويعر ممصوصاً كأنما انطبق خد على خد.

_ أشكرك، يا أستاذ، على الأدب واللياقة.

تكلم الشويعر برصانة مفتعلة فصاح به:

_ وهل كان عندك أدب لتكذب عليّ؟

_ أنا لم أكذب.

_ تكذب.

_ لا أكذب والله، اسأل أي شخص يعرفها.

أحس شريف بأن وجهه يحتقن، وهو يقول له:

_ هل أنت مجنون؟

_ لماذا؟

مجنون. هذه الفتاة لي.

_ هل كنت متفقاً معها على شيء؟

_ لم أتفق باللسان، ولكن العيون صنعت تاريخاً.

قال الشويعر ببرود البله:

_ العيون لا تعقد قراناً.

_ لا أصدق بك لو تنقلب السماء على الأرض – وخشخشت الورقة بين يديه فانتبه إليها، وقال يقدمها له – خذ قصيدتك الركيكة.

وأجال بصره في المقهى. ثم ارتد إلى وجه الطالب الممتقع المستطيل كوجه حمار متعب. اختفت القصيدة في أحد جيوبه واستلقت يده الطويلة في ذلة، وكأنما في هيئته هذه يطلب غفراناً عن إساءة.

_ أنت دائماً تأتيني بأخبار سيئة.

_ أنا آسف، لم أكن أعرف أن خبري يؤثر فيك هذا التأثير. هل أنت تحبها؟

_ أعبدها. نظمت القصائد عليها. سهرت الليالي أناجيها.

بدأ الطالب مرتبكاً:

_ لم أكن أتصور أنك جاد في المسألة.

_ ماذا تريدني أن أفعل لأكون جاداً؟ هل هناك حد أكثر من أن أوصلها إلى البيت ثلاث مرات في الأسبوع؟ أكثر من أن أعيش في بغداد من أجلها؟ ولكن ربما أنت متوهم؟

هزّ الطالب رأسه نفياً، ورأى شريف في عينيه الصغيرتين صدقاً. قال الطالب بهمس خجول:

لا. إنها الآن في باريس تقضي شهر العسل معى زوجها.

كانت كلماته سكاكين باردة تنغرز في قلب شريف. تحمل إليه ضعف الاستسلام. وفكر شريف مع نفسه "قد يكون هذا صحيحاً؟" فما غاية هذا الطالب من إثارته؟ كانت

القصيدة في يده عندما فاه بالخبر الرهيب، وأصر عليه حتى بعد أن توترت الحال بينهما، وردت إليه القصيدة. فما يحمله على الكذب؟ ربما ذلك صحيح. سأل شريف:

_ وزوجها؟ ذلك البغل طالب البعثة في لندن؟

_ نعم، مهندس.

زفر شريف زفرة عميقة، وقال بحرقة:

_ أنا الآن بحاجة إلى ربع عرق.

_ لنذهب إلى بلقيس.

وكاد يوافق. ولكن ماذا سيحدثه غراب البين هذا؟

سيفرى مرارته بأخباره المشؤومة، ويختلس الفرصة ليقول بعض الأبيات من شعره الفطير.

_ لا، عندي موعد.

_ انتظر مجيء اللبن.

وشرب شريف لبناً لم يحسن خلطه بالماء. ونهض منصرفاً يتبعه الطالب. وعند الباب تلكأ ليمر الطالب ويضع ثمن اللبن على الصينية. واختار شريف خارج المقهى الاتجاه المعاكس لاتجاه الطالب. سلك السوق الظليلة منكساً بصره، مردداً مع نفسه: هل من المعقول أنها تزوجت؟ الحورية الساكنة وراء القصر الأبيض؟ إذن كل وقفاتي الطويلة في باب المعظم ذهبت عبثاً، كل النفقات المستقطعة من معدتي، كل الأحلام والمناجاة. والآن يتمتع بها شخص آخر! أواه، شخص آخر يمسك بالشمعدانين الورديين، ويقبل الخال تحت عينها، وكل شيء. ومن هو؟ مهندس حقير أرسل للدراسة على حساب الحكومة. طفيلي ربما لم يعان طوال حياته واحداً من الألف مما عانيته، لم يشعر بسكرات الحب التي شعرت بها. لم يتحمل جوع نهار كامل ليجلس بضع دقائق وراءها في السيارة، لم يقع وتنسلخ ركبته من أجلها. ولكنه يأمرها لتركب الطائرة، وتأتيه إلى لندن. أفٍ من المرأة! كلما تصور

أنه موشك على أن يفهمها تكورت أمامه كاللغز. ماذا دفعها إلى مغادرة بغداد؟ جماله؟ ماله؟ إغراء السفر إلى لندن وباريس؟ ربما كل ذلك. وما قيمة العبقرية؟ العبقرية تخيف المرأة كالسل، كالشيطان. وما قيمة الشعر؟ أي شاعر محترم لم تكن حياته سلسلة من المآسي والصدمات. أواه! أصبحت بغداد الآن خالية. فقدت كل مجدها. سيسير فيها مغمض العينين، لا يتوقع الشيء الذي كان يتوقعه حتى في الليل: أن يلتقي بها فجأة، أن يراها مارة في شارع، جالسة في باص، متنزهة في شارع أبي نؤاس. الآن هي في باريس. وهل لباريس مثل هذا السحر؟ ودّ لو يعرف شيئاً عن باريس ليتخيل أين هي الآن، في ظهيرة حارة كهذه. ذهبت بعباءتها أم خلفتها هنا. أحقر باريسي الآن أسعد حظاً منه. لأنه يرى قوامها الغض بدون عباءة بينما هو لم يرها إلا في ليل عباءتها. ستجلس في باصات أخرى، وترتاد أماكن ليست عنده أية فكرة عنها. وتذكر أن جواداً سكرتير الشركة التي سيشتغل فيها زار باريس ذات مرة. سيذهب إليه لا ليسأله عن وظيفة، بل ليطلب إليه التحدث عن باريس، مدينة الحبيبة الخائنة. ليست هي الخائنة الأولى ولا الأخيرة. تاريخ النساء سلسلة من الخيانات. ردد في ذلك سره متسرياً، واحتواه ظل بارد ناعم حين دخل عمارة الشركة، وصعد المصعد الأنيق إلى الطابق السابع. رائحة نفتالين أو شيء يشبهه. والأرض ملساء مصقولة. سأله الفراش عمن يريد فأجابه "جواد، جواد". ودخل الغرفة الأنيقة. استقبله جواد من الباب:

_ قضيتك لم تنته بعد.

قال مغتاظاً:

_ دعني أقعد. أنا لم أجئ لأسألك عن الوظيفة.

_ تفضل اقعد. على أي شيء إذن؟

وانهد شريف على كرسي مريح:

_ جئت لأسألك عن باريس.
نظر إليه جواد مشدوهاً:
_ عن باريس؟
_ نعم، عن باريس. أنت كنت فيها. أين يمكن أن يقضي عروسان شهر العسل فيها؟

الأول

كان ستار واثقاً من أن ما جرى هو "الخير كل الخير، والشيء اللي يرضي الله ورسوله. لأن الله أمر بالستر واحترام الحقوق، بينما ظل سعيد في حيرته، وتشككه، شاعراً بمسؤوليته إزاء ما آل إليه حميد.
_ أي خير في ذلك؟ - تساءل أمام ستار – حميد صار يسرف في شرب الخمرة حتى فقد وظيفته في البنك، وتردى إلي حال لا يحسد عليها. لم يكسبه الطلاق شيئاً، بل أفقده أشياء كثيرة، وصار يتعذب، ويقول أنت السبب. كانت حياتنا مثل الساعة..
قاطعه ستار بنفس اللهجة الواثقة الحادة:
_ لا تصدق. أتحسب إذا رجعت له يتوب؟ أبداً والله العظيم. ولكن من قبل كانت له امرأة تغسل له ملابسه، وتنظف له بيته. وهو الآن ضائع، وملابسه وسخة.
_ وهي ماذا حصلت؟ - مضى سعيد في تسأله – النفقة التي كنا نعتقد أنه سيؤديها ضاعت. والله يعلم بأية حال هي الآن.
_ لا تخف عليها. هي مرتاحة أكثر من قبل.
نظر سعيد إلى الرجل مذهولاً. كان وجهه رصيناً وكأنما تحدث عن حقيقة عائلية. فسأل سعيد على استحياء:
_ هل تكتب لها؟
_ وأبعث لها.
_ فلوس؟
هزّ ستار رأسه. إذن فهذه هي الحقيقة التي يتوجسها حميد. هل وعظ هذا الرجل بطلاقها ليأخذها له؟ وهل قلّت النساء ليأخذ متزوجة؟ أم هناك علاقة حب؟

خطيئة. لزم سعيد وستار الصمت وهما واقفان في الساحة الخلفية لمركز البريد.

ثم سأل سعيد:

_ سيد ستار، أنت متأهل؟

_ الآن، لا. ولكن كنت.

_ أولاد عندك؟

_ ماتت قبل أن تخلف ولداً.

_ مع الأسف.

قال سعيد للمجاملة. ولم يعطه سؤاله شيئاً يذكر لحل المعضلة. ولكن الرجل قال دون حزن باد:

_ كانت مثل حليمة بالضبط. حبة مقسومة. ولكنها ماتت بالمستشفى الذي كتبت عنه.

_ مستشفى الحميات؟

_ نعم. حليمة لو عاشت معه سنتين أو ثلاثاً كان مصيرها نفس المصير. الآن على الأقل تشم هواء كربلاء.

_ وبعدين؟

_ وبعدين على شريعة الله ورسوله.

_ تتزوجها؟

_ نعم – قال ستار – ذلك بتصميم، ثم سأل حين حدق به سعيد – هل في ذلك عيب؟

لماذا يضع هذا الرجل الحقائق عارية أمام عينيه وكأنه محق في كل ما فعل؟ كان حميد على حق في تشككه بهذا الرجل. شرير تماماً. أناني. وجد سعيداً العربة بين يديه.

_ هل من العيب أن يتزوج الإنسان امرأة مطلقة؟

قال سعيد متجرئاً:

_ لماذا تضع المسألة بهذا الشكل؟

_ وكيف أضعها؟

كان يطل على سعيد من فوق منحني القامة قليلاً. قال سعيد وهو ينظر في صدر الرجل:

_ حميد يعتقد أننا، أنا وأنت، تآمرنا على سلب امرأته منه.

رد الرجل بسرعة:

_ حميد يتصور أقبح من ذلك. تصورات سكران. حاشا لله. كانت مثل أختي. وأنت تتصور مثله؟ أنا وأنت أنقذنا امرأة شابة من موت مؤكد. أنقذناها من رجل كان يدرس على مخانيقها. الآن تذكر امرأته؟ من قبل كان يطلع من الصبح ويجيء نص الليل. تتمرض وأولادها يموتون، ولا يهتم. الآن عرف زوجته؟ كانت عنده خدامة لا زوجة. وتقبل مرؤتك؟ وأنت كاتب ديموقراطي. كان شايفها نعجة يتصرف بها كما يريد. لو متزوج امرأة متعلمة كان قدر يعمل ربع ما كان يعمل بحليمة؟ لا سيد سعيد، أنا وأنت عملنا الخير.

كان ستار يتكلم بثقة، ويمس مواضع من القضية ليست في صالح حميد. وقد يكون كلامه صحيحاً. ولكن أيبرر ذلك كله التدخل في حياة حميد بهذا الشكل؟ هل كان لهما الحق في أن يعظا بالطلاق؟ خرج سعيد من ستار بنفس الحيرة السابقة. ضميره مثقل بالشكوك، والأسئلة تتوارد على ذهنه وتعذبه. ليته يستقر على رأي، حتى ولو تيقن من أنه أخطأ في هذا التصرف. عندئذ كان بوسعه أن يعترف لحميد بجنايته، ويكفر عنها. ولكنه حائر.

في البيت أخبرته أمه بأن أباه لا يقبل الدخول إلى المستشفى ولو حملوه على "سدية". عرف من الطبيب أن مرضه غير معد، داخل العظم. وليس لأحد الحق في إجباره على الدخول إلى المستشفى. قال ذلك منتظراً، وتوج كلامه بجملة موجعة أسالت الدموع من عيني أمه وهي ترويها له: "شكراً لابني. يريد يدهورني للمستشفى، ويتخلص مني؟ هذا جزائي منه في شيبتي؟"

وزاد ذلك من عذاب سعيد. فذهب إلى الجريدة، راحته النفسية ليصب همومه وشكوكه في مقال. كانت الجريدة ساكنة. رأى في وسط الحوش كومة كبيرة من الأوراق. وعند السرداب التقى بحسين الفراش يحمل حزمة منها. وفي السرداب كان ابراهيم يخرج ما في أدراجه. وقف سعيد مبهوتاً، وسأل:

_ ما الخبر؟

_ اسمح لي. لعبت بجراراتك مضطراً.

_ ولكن ما الخبر؟

_ الجريدة مهددة بالإغلاق. وعلينا أن ننظف حتى لا يقع في أيدي الشرطة شيء يحاسب عليه الناس من حيث لا يدرون. يجب أن نتلف الأوراق على الأخص الموجودة في مكتبك. فيها آلاف التواقيع.

كان كل شيء موضوعاً على المكتب. إضبارة "الرأي العام" الضخمة و"شكاوى وعرائض" و"من القراء" و"لمراسلينا" ورؤوس أقلام لمقالات، ومسودات مقالات قديمة، وبدايات قصص فاشلة، تاريخ سنتين من العمل الصحفي. كان مسجى على المكتب ينتظر الحرق.

أخرج كل شيء، ووضع على الكومة الرئيسية وسط الحوش، وطلب ابراهيم من حسين أن يغلق الباب وحين سمع ابراهيم صوت المزلاج أخرج علبة ثقاب، وأشعل عوداً، وقربه من كومة الأوراق. ولم تشتعل الأوراق من العود الأول، لأن يد ابراهيم كانت ترتجف. أشعل العود الثاني. وظهر لسان صغير من اللهب، لاح في ضوء النهار الساطع مثل فتيلة شمعة مسكينة تعود إلى القرون الوسطى. أخذ سعيد يراقب حركة النار، تقدمها المتخاذل الخائف في البداية، والسريع النهم بعد ذلك. زحفت النار مرتقية تل الأوراق منغرزة في الأعماق. وبعد دقائق كانت النار ترتفع من التل كله مصعدة دخاناً أزرق. كان الدخان يتصاعد في

قـوام ممشـوق، وكأنـه لا يريـد أن يمـس الجـدران والنـاس المحيطين فيه. كأن همه فقط أن يتصاعد إلى السـماء مثـل رغبات بشرية أحرقـت فتحولـت إلـى آهـة، اسـتغاثة، كأنمـا يريـد أن يوصـل إلـى السـماء مـا ضـاقت الأرض بـه فيعـوض بطريقة من الطرق عن الشكاوى المحروقة.

قال ابراهيم لسعيد، وهو يشير إلى ركام الأوراق:

_ هؤلاء أصدقاؤك يحترقون.

أجاب سعيد حزيناً:

_ نعم. أشم رائحة أجسادهم.

وفكر سعيد مع نفسه: كم نار أضرمت على هذا النحو ملتهمة عواطف الناس وأفكارهم، شكاواهم وأحلامهم. هذه على الأقل بعض حصة العراق من النار الأبدية.

ولمـا خمـدت النـار بـدأت عمليـة الـتخلص مـن الرمـاد الأسـود الـذي كـان يخـاف حتـى مـن اقتـراب الأقـدام منـه فيتطاير مذعوراً. ودخل ابراهيم وسعيد إلى السرداب، يرتبان مكتبيهما. قال سعيد:

_ هكذا إذن.

_ هكـذا. جريـدة النـاس ونـوري السـعيد شـيئان لا يجتمعان.

_ هل تحسب النهاية قريبة؟

_ قريبة. عندنا اليوم مقال شـديد عـن مراسـيم نـوري السعيد، مراسيم إسقاط الجنسـية، والفقـرة – أو "مـا إلـى ذلك".

جلس سعيد على كرسيه، وفتح جـراراً بحكـم العـادة. قابلـه ملـف "الـرأي العـام" فارغـاً. سـدّ الجـرار ثانيـة، ووضـع كوعيه على مكتبه، وحار ماذا يفعل. قال ناشراً ذراعيه:

_ أنا الآن صفر اليدين.

_ أبقيت لك بعض العـرائض – قـال ابـراهيم وهـو يفـتح جـراراً – خـذ. وبعـد قليـل سـيأتي البريـد محمـلاً بـالعرائض.

الناس لا يكفون عن شكواهم. وإذا أغلقت "الناس" وجدوا وسيلة أخرى للتعبير عنها. حكامنا نعّام!

أنشأ سعيد يتمعن في العرائض. يتملاها. الخطوط السيئة المكتوبة بقلم "قوبيا" أو بحبر رخيص، وبصمات الأصابع الموضوعة بأوضاع مختلفة، والتواقيع التي هي عبارة عن أسماء واضعة خط عليها خط أو خطان. وقال سعيد بصوت مسموع:

_ يا أصدقائي سأفقدكم مكرهاً.

قال ابراهيم:

_ يؤسفني أن أقول لك: يجب أن تمزق أصدقاءك حالما تنتهي من تثبيتهم على الورق، تضعهم في التاريخ.

وكانت النهاية قريبة حقاً. في ضحى اليوم التالي بينما كان ابراهيم وسعيد في السرداب سمعا وقع خطوات ثقيلة في الحوش. رفع كلاهما رأسه. ورأى سعيد سحابة خاكية مخططة بالسواد تتقدم في الحوش. وعندما كانت في إطار الباب تبين ثلاثة من رجال الشرطة يتقدمهم معاون ضخم الجثة شاهراً مسدسه. سدّت السحابة الضوء المتسرب من الباب، واندلقت في السرداب. وقال المعاون:

_ قوموا!

كان ابراهيم وسعيد واقفين خلف مكتبيهما. أجاب ابراهيم بصوت جاف:

_ ماذا تريدون؟

قال المعاون وهو يتقدم من المكتب:

_ اخرجوا. عندنا أمر بإغلاق الجريدة، وختمها بالشمع! خرجوا.

لأول مرة في حياة سعيد يرى مسدساً بهذا القرب منه. كان أسود ضخماً مثل عيون مسدلة. وكان الرجل الذي يحمله طويلاً يمتلئ الجسم، اسمر الوجه، كثيف الشارب،

ذا عينين مستديرتين وأنف ثابت، وشفتين محروقتين ربما نسيتا الابتسامة منذ زمن طويل. قال ابراهيم:

_ دعني أتلفن لصاحب الجريدة.

وسمح له. ومن الخارج راقب سعيد رجال الشرطة يخرجون محتويات مكتبه، ويكومونها مع الجرارات في وسط السرداب. مستمسكات جرمية أغلبها كتب. كان في مكتب سعيد "أسرة ارتامونوف" باللغة العربية و"قصص لتشيخوف" بالإنكليزية و"سقوط باريس" والمجلد الرابع من "العقد الفريد" مستعاراً من إحدى المكتبات و"المثل السائر" و"لمن تدق الأجراس" و"تورتيلا فلات" ونسخة منزوعة الغلاف من كتابه الفاشل.

خمسة أصوات

رأى نفسه يسير في موكب صاخب على الطريق المتربة المؤدية إلى ديلتاوه قبل أن يصل إلى الشارع العام المحفوف بالبساتين. كان في الموكب طبول وجنبارات وأناس غرباء لهم أصوات حادة يرقصون ويثبون حوله مثيرين الغبار، وهو بينهم صامت مختنق الأنفاس. داناه طبال عربيد ظل يقرع طبله في أذنه قرعاً لجوجاً مؤذياً أيقظه من نومه. فتح عينيه فرأى رجلاً طويلاً في دشداشة بيضاء يتمشى بالقرب من سريره. رفع جسمه على كوعه ونظر إلى القباب، وتأفف.

_ الله أكبر!

حيّاه الرجل الطويل بصوت مكتوم:

_ صباح الخير.

_ صباح القبقاب! لا تستعمل قبقابك ونحن نيام.

ضحك الرجل وقال:

_ الشمس طالعة. اقعد تمضمض واشرب لك سيكارة.

قعد على فراشه، وتعوذ من الشيطان. كان الآخرون نائمين بملابسهم الداخلية. والغرفة مستطيلة مثل ردهة مستشفى، والنوافذ المطلة على الشارع مفتوحة تحمل ضجيج السيارات المدوي، ورائحة البنزين المحترق، وغباراً. وقال شريف لنفسه: وأخيراً عدت إلى فنادق الدرجة الرابعة. وأشعل سيكارة.

فمه جاف لزج. جفناه يحملان ثقل جبهته. نهض مغمض العينين، وشعر ببرودته في أعماق جمجمته. ولكن لسانه بقي مغلفاً بطبقة جافة كالطباشير، والامتعاض النزق يجعله عصبياً حتى مع نفسه. هزّ ذراعيه بعنف، وضرب الفراش ونهض. جرعة من الخمرة تخفف من عصبيته. أين هي؟ فتح حميد عينيه بجسارة ورآها سوداء

قرب التنكة في انتظاره، مثل صنم صغير ينتظر الكاهن ليقوم بطقوس العبادة أمامه. مسّ الزجاجة الباردة، وأعد كأسه وجرعها بعجالة شاعراً ببرودتها الملتهبة تسقط في معدته. علك قطعة خبز جافة. وبعد قليل أعادت الخمرة إلى الأشياء نظامها المفقود. كفت عن النظر إليه بنظرها الشزر، وتصالحت الأشياء معه. وعجب من هذا الصنم الصغير له مثل هذا السحر الخرافي. صنم لا يفرغ إلا ليملأ من جديد، مثل صنم التمر الذي كانت إحدى قبائل الجاهلية تعيده. وحين تجوع تأكله، والصنم يتجدد باستمرار كهذه الزجاجة التي يعبدها، ويشربها، وحين تفرغ يملؤها من جديد.

وقال سعيد لنفسه: بدأت آكل اللقمة متقطعة من عافية أبي. سيظل السل ينخر في عظمه، وسأظل أنا عالة عليه. أنا والسل جرثومتان تقتاتان على عافية أبي. وحملت أمه الفطور إليه.. فطوراً ملوكياً، قشطة وعسلاً ورغيف خبز أبيض.

_ هذا الطعام كان يجب أن يأكله أبي.

_ أكل كفايته.

كان يعرف أنهم سيفعلون ذلك عامدين. سمع أباه يقول لأمه: "قولي له لا يتحسر! ما دمت أنا في الوجود ما أخليه عايز". شكراً يا أبي وبعد أيام ستنتهي فلوسي القليلة، وسآخذ من عافيتك أيضاً ثمن فنجان قهوة في مقهى رخيص. حنق وقال لأمه:

_ لا أريد أن تعاملوني هذه المعاملة. لست ضيفاً، ولا إنساناً مقعداً. أنا في تمام صحتي وقواي العقلية. سأعثر على عمل.

واستيقظ عبد الخالق على صوت محرك سيارة يجأر في الشارع. ورأى نفسه على عادته كل صباح متوتراً مغسولاً بالعرق. سيزول التوتر من تلقائه. أما الحرق فيجب أن يمسح. مسحه بقميص قرر أن يلقيه عن جسده. كانت

الزائدة مغمورة بلون مثل خضرة أوائل الربيع لأن الستارة مسدلة، وفي الجانب الآخر دندنة، وبقبقة ماء. ليس مستعجلاً مثلهم للالتهام فطوره. ولولا ذلك المحرك الذي عفط في أذنه لما استيقظ. لم يعد مستأجراً عند الحكومة. عفته من إدارة طاحونتها خوفاً من تخريب ما هو مخرب أصلاً. والآن لا حاجة إلى النظر في الساعة، ولا لعد أيام الشهر، ولا لانتظار يوم الجمعة. كل الأيام متساوية مثل بعر الأغنام. نهض عبد الخالق وأزاح الستارة، ونظر إلى شريط أخضر من الأرض ينتهي بشجيرات يأتي بعدها خائط الجيران، والعصافير تزقزق. وفي الحديقة الثانية يحرقون شيئاً كالأوراق اليابسة. ربما هي رائحة ريفية. سيشمها كثيراً حين يذهب في رحلته بحثاً عن الأرواح الميتة شريطة أن يرضى سعيد بمصاحبته. الآن حل الموعد. أصبح عاطلاً مثله.

فرك ابراهيم يديه، وقال لزوجته:

_ والآن نأتي إلى صيغة The passive voice ويعنون بها المبني للمجهول مثلا: The Newspaper was closed by the reactionary governnment.

_ لنتوقف عند هذا الحد. رأسي صار طبل All right. هذا يكفي الآن. لو بقينا على هذا المنوال لعلمتك الإنكيزية بشهرين، وتبقى المفردات.

ابتسمت وقالت بحزن لا يناسب ابتسامتها:

_ يعني سيكون لك مثل هذا الفراغ شهرين أو أكثر؟

قال وهو يشعل سيكارة جديدة:

_ سأشتغل. أنت دائماً تنسين بأنني محام، خريج كلية الحقوق. سأستشغل في المحاماة.

_ وهل المحاماة تطعم خبزاً؟

_ تطعم خبزاً لا أكثر. إذا أراد المحامي أن يشتغل في مهنته الأصلية. وهذا ما سأفعله.

كان البار بعد الظهر صاخباً رغم القطعة السوداء الجديدة: "الدين ممنوع". كانت تبحلق في عيون الزبائن بعيون بيض:

_ سيد ججو، جرجيس، جورج! قلت "البصاق ممنوع" وآمنا بالله لأنه بأمر من أمين العاصمة. ولكن "الدين ممنوع" بأمر من؟

_ بأمر زوجته – قال آخر.

_ محسن، لا تعمل قباحة. ما اعطيك بالدين ولو رهنت جراويتك وزبونك.

_ ولسيد حميد تعطيه؟

_ سيد حميد عنده حوش وراح يبيعه. وأنت سأقبض منك؟

أصبحت السويسرية تجلب مخاليق شاذة، مزدحمة مثل محطة قطار أجنبية. دخلها متوتر الوجه، وبحث عن مقعد. الجو يفوح برائحة قهوة شهية، وكعك دافئ، وسكائر أجنبية. ورأى وجوهاً يعرفها، تعود أن يراها في كازينوهات غالية، أو وراء مكاتبها الأنيقة. الآن تجلس على طاولة مثل آلات مستهلكة أو دعت للتشحيم.

_ أستاذ عبد الخالق، تفضل.

_ شكراً أبحث عن مخلوق.

_ إذا كان سعيداً، فقد ذهب ليشتري كتاباً من أصول التجارة، وتبادل الرسائل التجارية.

قلب كتاب "Commercial course" بين يديه واستبهظ الثمن.

_ هل تبيعه لي بالأقساط؟

ضحك صاحب المكتبة. ولمعت في غبش المساء أسنانه ونظارته.

_ كأنك تشتري ثلاجة يا سعيد.

_ لا أريد أن أضيع فلوسي على شيء قد لا أستفيد منه. وفلوسي قليلة. أتذكر يوم اشتريت منك مجموعة دوستويفسكي الكاملة بتسعة دنانير؟ الآن أبيعك إياها بثلاثة.

_ أشكرك. نحن لا نشتري الكتب المستعملة.

_ إذن، بعه لي بالتقسيط. هذا ربع دينار.

قال عبد الخالق لنفسه: الأيام تتابع كالسربس.

في المساء تفوح المنقطة كلها زفراً ودهناً محروقاً. منطقة المطاعم الرخيصة، وفنادق الدرجة الرابعة، والمبنى الحكومي العام. ضمّ يده بقوة على الورقة النقدية الخضراء، وصعد إلى الباص المتوهج كالكور. وجلس في الدرجة الثانية. لا حاجة إلى الجلوس في الدرجة الأولى بعد الآن. ذهبت الحورية إلى باريس، وهي الآن في أحضان رجل آخر. وعصر الورقة الخضراء بين أصابعه حتى كادت تتمزق. كان يتعقب خيالاً اذن، صيّاد خيال. طوال حياته يطارد الخيالات المجنحة وغير المجنحة.

_ لم يرد سعيد أن يسافر إلى الريف.

_ يريد أن يجلس في حجرة مبردة في شركة.

_ إنه جبان.

_ لا تهتم به. يمكن أن أحقق لك فكرتك هنا دون حاجة إلى الذهاب. تعال نذهب إلى فندق زيا.

_ ماذا نعمل في فندق زيا؟

_ إنه ملهى ملوك الريف.

_ غداً نذهب.

فندق زيا. كأس الويسكي بنصف دينار. كاديلاك وبيوك ومرسيدس. وقف ينظر إلى النهر المشجوج بمسامير ضوئية. والفندق هادئ. في الداخل ملاكر الأرواح الميتة والحية، والأرض والسماء. كأس الويسكي بنصف دينار، والروح الحية بفلس. تفوا!

_ لندخل.

_ لا أدخل. تشيتشيكوف لم يفعل ذلك في زمانه. كان مع الإقطاعيين على قدم واحد. سينظرون إلي بعيون خشّبها الويسكي. تفو! أنت يا شريف لا تفهمني.

_ أنا فاهمك. ألا تريد أن تشتري الأرواح الميتة؟

_ تفو!

واستدار وعاد إلى الشارع.

_ أتعتقدين أن دماغ سعيد يشيل حسابات تجارية؟

ضحكت وقالت:

_ يمكن يطلّع الشركة كسر!

_ نصحته أن يتعلم الضرب على الآلة الكاتبة.

_ ولكنه خريج كلية الآداب.

_ وما نفع الشهادات الآن؟

أصبحت مقهى السويسرية خزانة للمشاريع الفاشلة. تفو! دكتوران يريدان أن يفتحا علوة للمخضرات، وآخران أن يشرفا على آلة لتفقيس البيض. وصرخ بهما:

_ ومن سيشتري منكما دجاجاً لم يولد على الطريقة التي أقرها الله.

خجل من معلمه حين قال:

_ هذه الأصابع الرقيقة تبدو غير صالحة للضرب على الآلة الطابعة بالسرعة المطلوبة.

_ لأحاول. ستكون غليظة بالتمرين.

في الليل عندما يستيقظ كان يتخيل الأشياء كائنات حية. كانت تنظر إليه متكدرة، مستعدة للوثوب عليه. تنظر إليه بازدراء. تعاديه. كل الأشياء تعاديه لسبب ولغير سبب. المهد الخشبي، والتنكه، والطوفه، وحائط الجيران والسطح بارد في الليل يجعله يلتف باللحاف رغم توهج الخمرة في أحشائه. ربما سيقضي الشتاء في السطح، خوفاً من بيت مسكون بأرواح الميتين. هل ينزل ليرى كيف تتراقص

الملائكة وأرواح الميتين؟ ويشرب جرعة من الصنم الأسود وينام.

_ قل لي بصراحة يا سعيد، هل ستذهب إلى الجنوب أم لا؟

_ لا.

_ سأسافر إلى سوريا. سمعت أنهم يريدون معلمين هناك.

_ تريد أن تتوظف في شركة. وأية شركة توظفك وأنت سيء السلوك؟

_ إذن، فأنت جبان، هارب.

_ سمني بالأسماء التي تهواها.

أصبح بيته كئيباً. لا وقت لمطالعة كتاب. كان يتهرب من أبيه. كان يخاف أن يجد على وجهه آثار العبء الذي أضافه على ظهره المكسور من الفقرة الرابعة. وكانت معاملتهم الرقيقة له إهانة، شفقة، مثلما يشفق الرحماء على إنسان عاجز.. بينما هو..

_ لماذا نغالط؟ لا نستطيع أن نستمر على هذا المنوال.

_ ماذا تريدين إذن؟

_ نعود إلى بيت أبيك.

وفكر ابراهيم: أليست هذه هزيمة؟

الثلاثة جالسون في المقهى منذ أربع ساعات. وأصر سعيد على رأيه. أرسل طلباً إلى سوريا وإذا جاء بالإيجاب ذهب.

_ ومن يعطيك جواز سفر؟

_ عندي واسطة.

_ بدأت ارتباطاتك بذوي الواسطات.

_ يمكن.

_ اذهب مشيعاً بالعار. أما نحن فباقون بين الرصافة والجسر.

كان حديثهما يبدو لشريف مهزلة تتكرر في كل لقاء. قال يشارك فيها:

_ نعم نحن باقون بين الرصافة والجسر. ولو أن رأس الجسر مملوء بالشرطة السرية، ولا عين مهاة واحدة. اقفرت بغداد من الجمال.

_ اسكت، يا شريف. أنا جاد. سعيد هارب جبان.

جبان لأنه لا يستطيع أن يهرب أبعد – قال شريف لنفسه – أهذه ولاية؟ لو كانت لي فلوس لذهبت إلى باريس.

نفس القصة في اليوم التالي.

_ لا أسمح لك بأن تستعمل معي هذه الكلمات الخشنة.

_ اذهب وستموت من الجوع. ستفتش في صناديق القمامة.

_ سأذهب إلى بلد عربي. وسأشتغل مدرساً بينما في وطني لا أستطيع أن اشتغل حتى كاتب طابعة.

_ ستشتغل هناك بـ...

وغادر المقهى.

_ اليوم جاءت أمك تبكي. أبوك مريض يا ابراهيم.

تناول نفساً من سيكارته وقال:

_ ما رأيك؟ تذهب إليه. ربما سيظن أننا متنا من الجوع.

_ ليظن ما يظن. أليس ذلك أحسن من أن تتراكم الديون علينا؟

_ هذا كتاب Commercial course أعيده إليك ولا حاجة إلى أن تعيد لي ربع دينار.

_ الكتاب توسخ.

_ لم أقرأ منه غير الصفحات الأولى. سأسافر إلى سوريا بعد أربعة أيام.

_ ودورة الاحتياط؟

_ لحد الآن لم أدع. والباسبورت معي.

_ سيرسلون عليك من هناك.

شيء يضغط على صدره. ورأسه عند اليافوخ ثقيل. أهذا هو الموت؟ هل سيموت مبكراً؟ انتزع نفسه من السرير بقوة وكأنه ينتزع نفسه من براثن الموت. وتراجعت الطيوف ودخلت الحائط. وظل العالم حوله صامتاً.

طوال اليوم خارج البيت. وعند العصر شعر بأعياء ووحشة وانقطاع. ذهب إلى البيت فرأى أمه مع امرأة أخرى.

_ هذه أم طالب، هل نسيتها؟

_ عجوز نحيلة لها وجه مستطيل، وأنف مدبب، وخدان غائران.

_ خاله أم طالب، كيف طالب؟

غالبت العبرة وقالت:

_ أويلي على طالب.

وأعاقتها العبرة عن أن تقول شيئاً آخر. كان لطالب وجه مستطيل أيضاً، وجبهة عريضة ناصعة، وناصية كثة، مثل الممثل غريغوري بيك.

_ وطالب يستحق السجن؟ طالب الشجاع العصامي يذوي في نقرة السلمان؟ لو كان هناك عدل لكان الحكام الآن هناك ومن في السجون أحراراً.

وعندما خرجت أم طالب دخلت أمه الغرفة:

_ عيني، استر على نفسك، ولا تتكلم بالسياسة.

نظر إليها كظيم الغيظ:

_ أنت مثلهم أيضاً تعظين بأن لا نتدخل بالسياسة. ولماذا يتدخلون هم ويحكمون، ولا نتدخل نحن؟ وكأن الله

خلق صنفين من البشر: صنفاً له الحق في التدخل بالسياسة، وآخر لا يحق له. كأن الطفل حين تلده أمه يولد مكتوباً على جبينه: مسموح له وغير مسموح له.

تألم ابراهيم حين رأى يد أبيه ترتجف وهو يعانقه. ابنه الوحيد. وبعد ساعة قال له:

_ ألم أقل لك هذا بيتهم، ولا يقبلون أحداً بأن يدخل فيه؟

مخلوقات لها وجوه غارقة في الحزن واليأس، باهتة مثل طرر نقود ممسوحة. سيمر الزمن بهم كنسمة هبت على مقبرة. متى سيستيقظون؟ في يوم الحشر.

_ جرجيس. أنت الوحيد الذي أحبه في العالم. أنت ذخري.

_ تريد كأس؟

لن أعود إلى بعقوبة على أية حال. سأقوم بجولة أخرى بشعري هذه المرة.

ودخل سعيد إلى حانة عند ساحة النصر كان يرتادها أحياناً عندما كان طالباً في كلية الآداب. رآها على حالها. قطعة مستطيلة من الأرض كالمجاز على جانبيها صفان من الموائد الموضوعة لصق الحائط، المفروشة بمفارش مختلفة الألوان. وفي نهاية المجاز بار نصف دائري، ومطبخ صغير، ومغسلة. كانت الحانة هادئة في الداخل مثلما كانت قبل عامين، وبلا راديو أيضاً. يكفيها ما يتسرب إليها من راديوات المقاهي المجاورة، وراديو مطعم الباجه الذي كان يجأر بأعلى صوته مثلما كان من قبل. جلس سعيد إلى مائدة خضراء. سيقضي ليلته الأخيرة في بغداد وحيداً، وبلا أصدقاء. طلب ربعية عرق، ومزة ضئيلة رغم أنه جائع وعطشان. وجاء الساقي بالطلب بلمح البصر، وجعل يحتسي خمرته على معدة خالية بنيّة من يتعجل السكر. غداً لن يكون أمامه هذه المناظر. ستغيب دجلة عن ناظريه،

والأهل والأصدقاء والأماكن المألوفة. وتبدأ حياة الغربة. ما يزال يتذكر ليلته الأولى في القاهرة. أقام في لوكاندة البرلمان في العتبة الخضراء، وفي المساء نزل يتعشى، واحتوته دمدمة الترام، وصوات عجلاته على السكة، ومنبهات السيارات، وصياع باعة البسبوسة والعرقسوس، والصلاة على سيدنا محمد. والأضواء فيما حوله، والنيون والليل وفراشه ونساؤه، ومحتالوه. والناس يتحايلون على السيارات وعربات الكارو ليعبروا الشارع. وشعر بأنه نقطة ضئيلة تائهة لا أصل لها. إذا سحقته سيارة، ودخل فلن يسأل عنه أحد. وإذات مات دفن في مقبرة مجهولة. وأحس بتعاسة لا توصف، وبضياع لا أمل في انتهائه. فهل سيحسن بذلك الآن بعد أن كبر سبعة أعوام؟

وخلال استرجاعه للذكرى وجدت الخمرة فرصة لتتسرب في جسمه. أحس بها فجأة تغسل قدميه بنار، وتوهّج صدغيه، وتطوف ضبابا في رأسه. ها هو مرة أخرى معها، مع تلك الحسناء المبتذلة التي وطئت فراشها ملايين الأقدام، بمهر تافه أو ثمين. خاطبها: لعينة أنت يا غنجاء يا شوهاء يا ملعونة يا شجرة الزقوم الملونة بالأحلام، يا حلم العاجز وشهوة الشرير.. ملعونة أنت إلى يوم القيامة!

وشربها. وبعد أن فرغت كأسه خاطب نفسه: ولماذا تلعن الخمرة؟ العن نفسك. هي مبتذلة حقاً، فلماذا تبذل رنفسك لمبتذلة؟ لماذا تشربها يا سعيد؟ لُم نفسك ولا تلمها. أنت التي اشتريتها، وسمحت لها بأن تمتطيك. من الجاني، هي أم أنت؟ اوه، اللعنة. ها قد أصبحت عاطفياً أكثر من الضروري. والخمرة هي السبب. الخمرة تجعلك عاطفياً على نحو أخرق رخيص، وتضخم أتعابك، وتصيرك مثل مارمالادوف يتعذب مرتين. ألأجل هذا تشربها؟ لأجل أن تكون شهيداً في عين نفسك؟ كان الأولى بك أن تحذرها، وتحترس منها حتى لا تدمرك. لن يقدر أحد على أن يدمرك

قدر ما تدمرك الخمرة. هؤلاء الناس الذين قطعوا عليك لقمة العيش في وطنك لن يستعطوا تدميرك. وإذا دمروك، دمروا جسدك فقط. أما هي فتدمرك روحاً وجسداً. هي عون للطغاة عليك.

وعربدت العاطفة في صدر سعيد، ولم يستطع أن يجابهها إلا بالخمرة. رفع كأسه وقربها من فمه وجرعها. وقال لنفسها: اشربها إذن، عبّها. واهتف وهي تستل قوتك: عاش الطغاة، عاش الجلادون.

وارتدت الخمرة في صدره، وأحرقت بعض قطراتها حنجرته. وقال لنفسه: لعلك تريد أن تنتحر بهذا الخنجر المسموم؟ ولماذا يئست تماماً؟ انهزمت؟ كان حرياً بك أن تثبت في أرض المعركة. وقيمتك في الثبات على فكرتك. لا قيمة لك غيرها. فلماذا فزعت؟ نعم، لماذا تهرب، لا تفلسف الأمر. أنت جبان مثلما وصفك عبد الخالق. جبان، وخسيس، ومتدهور، ومنهار. كان خليقاً بك أن تصمد هنا، في أرض المعركة. كان عليك أن تأخذ العبرة من دعبل الخزاعي الذي ظل يحمل أعواده أربعين عاماً. وأنت كم حملت أعوادك؟ سنة سنتين؟ ربما لم تحملها قط. كنت مرتاحاً، ولم يمسك أحد بسوء لم يمسك واحد بالمائة مما مسّ صديق صباك طالباً مثلاً. خفت من فوهة مسدس؟ يا لعارك! ربما هو شعور الاضطهاد الذي يسيطر عليك، ربما هو مجرد الهروب من جريمة ارتكبتها بحق حميد، وبحق عائلتك.. ربما هو الفشل، الفشل الذريع.

ورفع كأسه، ومعها عينيه الغائمتين، وتراءى له أنه يرى شاباً واقفاً قرب مائدته. اهتز رأس سعيد وسأل بامتعاض:

_ من أنت؟

_ ألا تعرفني؟

هذا شاب يتكلم بسّام الوجه، حلو الشاربين. ربما يسخر منه، يهزأ من حالته.
_ لا أعرفك، من أنت؟
ابتسم الشاب ابتسامة لطيفة وقال:
_ أنا أخوك مختار.
_ مختار؟ أنت مختار؟
_ مختار.
_ أخي مختار؟ بهذا الكبر أصبحت؟
وقف وأمسكه من يده. هو أخوه حقاً.
_ اجلس معي، كيف عرفت أنني هنا؟
_ سألت عنك في بلقيس. فقال شخص أنه رآك تدخل إلى هنا.
وجلس الشاب الممشوق القوام، العريض المنكبين، البسام الوجه، الممتلئ عافية.
_ اشرب معي، مختار. بوي! هات قدحاً.
هزّ مختار رأسه:
_ أنا لا أشرب.
_ أرجوك أن تشرب معي.
_ لا أستطيع.
_ أرجوك. سأزعل منك.
_ لا أستطيع. سأتقيأ.
نظر سعيد إليه محاولاً أن يفتح عينيه ويراه:
_ أهي كريهة إلى هذا الحد؟
_ جداً، لا أحبها.
_ كريهة جداً ولا تحبها. أنا أيضاً لا أحبها. ارميها.
وألقى سعيد قدحه على الأرض، فانفجر كالقنبلة.
_ لن أشرب بعد الآن، ما دام لي أخ مثلك.
_ سعيد، لنذهب إلى البيت.

_ كنت وحيداً في آخر ليلة لي في بغداد، وبائساً فدخلت هذه الحانة. عندما كنت طالباً كنت أشرب فيها.

_ أبي في انتظارك، وكل الأهل جاؤوا لتوديعك.

_ عيب. أنا سكران. هذه أول مرة يراني فيها أبي سكران.

في اليوم التالي كان سعيد جالساً في مقهى الصالحية ينتظر أن تتحرك السيارة الكبيرة عبر بادية الشام حين لمح أباه بقامته الصغيرة المحنية قليلاً، من تخريب في الفقرة الرابعة، ومعه أخوه مختار بقامته الطويلة. وبعد قليل جاء أصدقاؤه الثلاثة واحداً بعد الآخر.

_ ألم أقل أنك هارب؟ لماذا لم تخبرنا، وتجعلنا نسمع من آخرين بيسوا من أصدقائك؟

_ أنت سعيد يا سعيد. دمشق أقرب إلى باريس من بغداد.

_ عندما ينفرج الجو، وتعود الحياة الديموقراطية سأصدر جريدة. وأرسل لك برقية كما اشتغلنا في السابق.

وعندما تحركت السيارة راقب سعيد المودعين طويلاً من الشباك الخلفي. وركز بصره على سبح أبيه الهزيل، فقد كان يحس بأنه يراه لآخر مرة.

1967

